محمد جاسم الحميدي

شمسِ الدين



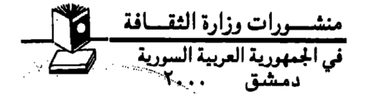
رواية

شمس الدين

محمد جاسم الحميدي

شمس الدين

رواية


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٠

شـمس الدين : رواية / محـمـد جاسم الحـمـيـدي . - دمشـق : وزارة الثقافـة، ٢٠٠٠ . - ٤٠٨ ص ؛ ٢٠ سم .
(قصص وروايات عربية ؛ ٩٤) .

١- ٨١٣٫٠٣ ح م ي ش ٢- ٨١٣٫٠٠٩٥٦١ ح م ي ش
٣- العنوان ٤- الحميدي ٥- السلسلة
مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني : ع - ٧٤٧/ ٥/ ٢٠٠٠

قصص وروايات عربية
« ٩٤ »

الإهداء

إلى من سرقتُ زمن الرواية من لحظاتها الحميمة، من ضروراتها الحياتية، من خبزها اليومي، من بيت لم يكن، وأحلام لم تخضر....

إلى أمّ أولادي.

محمد

السفر الأول

يسكنون في السماء كالملائكة..

أيام الشيخ إبراهيم

نجم في عز الظهيرة

لو لم يكن للشيخ إبراهيم رائحة التيوس الحامضة ، وجيفة الضباع النفاذة ، لاعتقدت شمس الدين أنه سقط عليها من السماء !

ذات أصيل شتائي بارد ، في غير موعده ، دخل الشيخ إبراهيم إلى شمس الدين كنهر غادر مجراه ، كنجم في عز الظهيرة ، كأفعى نضت ثوبها الثلجي مع أن الشتاء ما زال عجوزا تركض الرياح بعباءته السوداء الباردة كالجليد .

وقبل أن يرتد طرف شمس الدين إليها كان الشيخ قد نسج لها من ماء الظلمات ، وبقايا الطينة الأولى ، وغبار معارك لم تشهدها، وحيوات لم تخبرها، وصراعات لم تبتدعها تاريخا اليوم فيه كألف سنة مما يعدون.

انسحرت شمس الدين بأسرار النشأة الأولى، وغموض بدايات التكوين، والطينة الإلهية التي خرجت منها قرية سوية، فرفعت عينيها دهشة ، إذ لم تدرك من قبل، أنها داخلة في أسرار خلق الله، مبثوثة في أساطير الأولين، و لم تكتمل دهشتها

إلا عندما بشرت بأنها مدعوة إلى دخـــول دورة جديـــدة، في التكوين والخلق المستمرين..!

لم تكن شمس الدين أرض الحقيقة ليعرف الواقفون على أفواه السكك المشرفة عليها أن هذا الحـــامض كـــالتيوس، النـــتن كالضباع، الزهم كالظربان سيجعل شمـــس الديـــن تتخبّـــط كالنعجة الثولاء، لا تندل طريقها!

التقطته عينا خليف البدر أولا حافيا، خلاويا، لا ركب ، لا حمار، لا امرأة ولا ولد، يلوح كظل لغيمة تائهة لا تعد حـــتى بمطر عابر، تسوقها رياح كسولة كامرأة حبلى .

وحتى قبل أن تقع العين في العين، عرفه خليف البدر، فمـــن يأتي بعنقه، يلوح كخيط السراب إلا الشيوخ المتتنـــون الذيـــن تلتقط رائحتهم على بعد رمية حجر؟!

وتساءل خليف: أية ريح عاتية قذفته في هذا الوقت؟ فالسياد المتتنون يسبتون كالأفاعي في الشتاء، وعندما يجـــيء الربيـــع ويمسهم الدفء كأنما هو عصا سحرية توقظ الأمـــوات مـــن رقادها، يجري الدم في عروقهم، وتتحرك أطرافهم ، ويفيعون كالحيات المقرورة، فتفيض بهم الدروب والبراري والأوعار.. ! تتقافز بين أرجلهم السحليات والعرابيد والأفاعي ، وتتمســـح

لهم الذئاب والضباع والأسود ، وتذلّل ظهورها مطايا لهـــم ، وتنام على كواحلهم وفي أحضانهم إناث الغزلان، وتمطرهـــم العصافير والإوز واللقالق بموائد من السماء، وتتفجر أمامـــهم وتحت أرجلهم الينابيع والآبار، وتسعى بين أيديهم الجن، وتحف لهم الملائكة..!

يندرون في الشتاء ندرة الخل الوفي، وتتناخل لهم الدروب، في الربيع والصيف، وكأنما يقتفون أثر بعضهم بعضـــا، أو كأنمـــا يمسك أحدهم بثوب الآخر، إلا أنهم لا يجتمعون أبداً كمـــا لا يجتمع حصانان في مربط واحد!

فإن اجتمع اثنان فلن يكتفيا بـــالترافس الـــذي يصيبـــهما وحدهما، بل يشعلان وطيس حرب شعواء وقودهـــا النســـاء العواقر، والرجال العقم، والأطفال الطـــائحون، والمصـــابون بالعين، والمضروبون بالسر، والرجـــال المخـــاوون، والنســـاء الممسوسات، والضرائر اللواتي يتنازعن ذكر رجل، والعشـــاق الذين يتقاتلون على قلب امرأة، والكسحان والكتعان والعرجان والعميان والعوران والبرصان والكجلان والجذمان والجربـــان.. وكل ذوي العاهات المسمَّرين على عتبات بيوت الرب الآملـين في أن يتجردوا من هياكلهم الطينية الفانية ليتعلقـــوا بأذيـــال

الصالحين السائرين على الصراط المستقيم إلى كرسي الـــرب، لتأخذهم الرعشة من أنواره اللطيفة، وليستحموا في تســابيح العرش ، وليخلقوا من جديد في أحسن تقويم..!

ويشنشل الشيوخ اللائذين بهم بالودع والخرز والحســك، والتمائم والتعاويذ وكف الحسود، وسن الذئب، وكبد الضبـع ولسان الظبي، ويشرّبونهم ماء غسيل الرجلين، وغسيل الفـرج، ودم الحيض، وبول البهائم ونقيع الحشائش، ويطعمونهم قلــب دجاجة سوداء، قلب بغلة، رماد حافرهــا، خصيــة الكبــش والتيس، وقلب الضب، وفرج الضبعة وقضيب الضبع، ولحــم الهدهد وعيون الكلب الأسود والقطة البيضاء...

ومهما طال أمد الحرب فلا بد أن يضع أحدهم، الأقل صبراً على عض الأصابع عادة، ثوبه في أسنانه، ويهرب كالملســوع، لأن من يهرب لا يعود أبداً، بل يذوب في البراري أو يرتــدي اسماً جديداً ويردع لقباً مبتدعاً، ويبعث خلقاً آخر، فـالبوادي لا تتسع للهاربين، ولا تصدق الخاسرين..!

والشيوخ إضافة لنتنهم وحروبهم التي لا تنتهي ، وأحلامـهم التي لاحدود لها يحملون إلى القرى قملهم المربوب المذنّب فيغزو لحفهم وفرشهم ووسائدهم وثيــابهم وعبــاءاتهم وفروالهــم ،

وأجسادهم وعاناهم وآباطهم .. ولا تفلـــح ربـــة البيـــت في الخلاص منه إلا بسم القمل الذي يحمله البياييع !

يخاف القمل ، في الشتاء ، أن يغادر الأجساد المنتنة الدافئة ، فيتعنقد في اللحى الكثة ، وتحت الآباط ، وبين الأفخـــاذ ، وفي شعر العانة والعجان ، ويتربى على الدم الحار الذي يغلـــــي في العروق كقدور الطبيخ. أما في الصيف فإنـــــه يســـفي علـــى السيديات الحائلة اللون كما يسفي الدود في جيفة ، فـــالقمل الذي ينطبخ ببخار الأجساد المنتنة الموحلة ، يهرب من جحيـــم الجسد المنتن كالفطيسة فيهر من اللحية ، أو يتسلق العمائم دون أن يخشى السقوط من حالق كأهل شمس الدين الذين لا يخشون السقوط من فوق أرضهم المدورة ، فهم يعرفون الخطـــر قبـــل وقوعه ، يحلون خيامهم ويهجون إلى أن تستقر أرضهم المرتعشة بالخوف ، فهم لا يملكون فضول الثعلب الذي أراد أن يطـــــل على الأرض من فوق جناح لقلق ..!

وبالرغم من أنهم أكرم من الثعلب لأنهم صيادوه ، وأكـــثر منه أكلا للدجاج ، وأوسع منه حيلة ، فعند الفخر بالتحـــايل يجزمون أنهم ذيله ، لا يثقون بأن دعواتهم كدعواته ستسـقطهم على فريوة راع ، ولا يجعلونه قدوتهم في هذا ، فقدوتهم هـــــو

جدهم الأكبر الهارب دائما ، وبذلك يؤكدون حكمتهم الأبدية بأن : الهزيمة ثلثا المراجل !

قال خليف : الله يكفينا شر هالزول ..!

وتذكرخليف أنه عندما قدم أول سيد إلى شمس الدين قال:إن مقدم الغجرأبرك من مقدم السياد ..!

فسأله من حوله : لماذا ..؟

قال خليف : الغجر يتمنون عرسا،والسياد يرغبون في جنازة..!

قالوا :اسحبها ياخليف وإلاغضب عليك السياد ، ورموك بداهية لا يخرجك منها لسانك غير المسبع ..!

لكن خليف لم يسحبها ، وظل الشمدينيون يضحكون شهرا من قول خليف ، ويضعون الخطا في رقبته ، حتى لا يصابوا بشر ، و لم تعدم شمس الدين ، آنذاك ، من يسخر من مخاوف خليف إذ ليس لديه ما يخشى عليه ، فهو المقطوع من شجرة ، الفقير كصرصور في الشتاء ، لن ترقص حجية في عرسه ، ولن يجد أعظم سيد من يطعمه عظمة في جنازته .. لكن الشمدينيين الساخرين ما لبثوا أن خافوا على أنفسهم ، فهم الموصلون ذوو الحسب والنسب الذين يضربون بسهم من

الدنيا ، لديهم ما يخشون عليه ، وعندها قلبوا قوله على وجوهه المختلفة ، فدخل في تراثهم قولا مأثورا يتملحون به ..!

توقف الشيخ إبراهيم وحيدا مثل فزاعة لم يتقـن صنعـها، ماسحا الأفق بعينيه الصقريتين المدربتين علـى تمييـز الجمـاد والكدر والصخور عن كل حي يتنفس ، وعلى وجهه المتعـب المكدود المزرق تشكلت شبه ابتسامة ..وللتو انفصل عن الخلاء الذي كان ضائعا فيه ككبة روث ، واتجه إلى مجثم الراعـي .. وقال لنفسه : لا يمكن لراع حصيف أن يطعم أغنامه وحـلا ، فلا بد أن البيت خلف تلك الهضبة !

وللحال تكون حلم متكامل في ذهن الشيخ : النار الأنيسـة الذهبية كحضن حنون ، حليب سـاخن كمسـامرة ودود ، وعشاء دسم يرخي الأطراف ، ويجلب النعاس المهدهد الجميـل كغفوة تلج في أحلامها، ولا تفزعها مشاغل ما بعدها ، واندفـع الشيخ ككرة من نار يشعله الأمل وكأنما اغتسل للتو بحضـن امرأة .. وبالرغم من أنه ما زال بعيدا عن الراعي، فقد اسـتل سلامه مستعجلا من حرارة قلبه: السلام عليكـم ورحمـة الله وبركاته! خرج السلام الكامل عاليا كصراخ، كنداء، وظلـت الشفاه المزرقة والملامح المكدودة تكذب حماسته.

أبطأ خليف في الرد حتى اقترب الشيخ منه، وقال: وعليكم!

إجابة خليف الباترة الحاسمة كطعنة في القلب، أرادت ، وإن لم تفلح ، أن تكب طاسة ماء على حماسة الشيخ فالشيخ المعتاد على كل ضروب الإجابات الفاترة التي لا تريد أن يفتح السلام باب الحديث، ثم باب الوليمة.. سيجد دواء لهذا الإعراض، فهو كالحاوي يملك عجائب وأسلحة لا تنتهي ستجعل أي راع بليد يتحول إلى كلب في ذيله نار مشتعلة، عندما يقرر استخدامها.

ودون دعوة جلس الشيخ قبالة الراعي، فأصدر ثوبه الترابي قعقعة لأنه كان مشدودا من شدة الوسخ والبرد كحد الموسى.. وبثقة الحاوي وهدوئه القاتل بدأ يستل أسلحته.. قال بعتب هادئ ومدروس:ألا ترحب بالضيف..؟

قال خليف بشيء من نزق : رحبنا..!

-: أهكذا تحتفي بأحبة المصطفى، وأولياء الله..؟ ألا تسألني من أين أنا قادم؟

-: أعرف..!

-: أتعرف حقا ..؟!

-: من عند قبر المصطفى .

-: أنت، ولا شك، رجل مبارك!

-: لقد مر كثير من ربعك علينا

-: وهل كثرهم تسقطهم من عينك..؟

قالها باستنكار وقد ساءه أن تضيع هذه الأعجوبة المجربة التي لا ترمي من فمه إلا وترمي معها شهقة دهشـــة ، وارتفـــاع حاجبين .

قال خليف: التكرار يزيل العجب يا شيخ!

-: يظل العجيب عجيبا، ولو كثر ظهوره ..

وقال الشيخ في نفسه: إنه خصم عنيد،فليترك هذه له،فكيســه مازال مملوءا بما سيجعله ينط كتيس مـــاعز هوجمـــت أنثـــاه الوحيدة!

هارشه القمل ملحا، فأدخل يده تحت إبطه وهرش بعجالـــة الملحوق فارتفع صوت الهرش طاغيا، وكأنما هو يحرث أرضا، ثم أدخل يده تحت الإبط الأخرى وهرش، وخرجت أظفاره الـــتي كالمخالب تحمل فتائل الوسخ الأسود، وقد تخضبت بدمسه ودم حشراته، وهارشه رأسه، فدعكه مـــن فـــوق ســـيديته بنزق وغلظة..!

وبعد أن أكمل طقوس الحك والهرش، وهجعـــــت دواب جسمه ، قال له : اعطني خنجرك..!

-: وما حاجتك إليه؟

-: أريد أن أزيل صدأه..!

على زنده سن الخنجر مرارا، ثم مرر حده الملتمع على طرف إصبعه، ثم على طرف لسانه، ثم مده لخليف قابضا على النصــل وقال : أصبح يقطع الحجر.. جربه..!

-: وما حاجتي إلى قطع الحجر..؟!

وقال خليف لنفسه : هذه أعرفها يا شيخي، ولن تحركني ولــو سننته على ذكرك..! ما يحركني ، أنا الحالم مثلك ، هــــو أن تقودني من يدي كالضرير إلى حوريات الجنة ! ســتجفل لــو سمعتني وستصرخ بي غاضبا كما فعل ربعك : أتريد أن تجعلــني قوادا لك ؟

أسقط في يد الشيخ، فهرش تحت إبطه مرة أخرى بصـــوت مسموع، بحكم العادة، و كأنما يحك رأسه بحثا عــــن فكــرة أصبحت تبتعد عن يقينها..

و قال لنفسه: أي انحطاط أصاب مهنة الأنبياء على يـــد هــذا الراعي المتحجر القلب الذي لن يتحرك و لو أخرجت له العيش

من بطني ، بل لن يتحرك حتى لو أعدت له أباه من قبره رادعا لحافه على ظهره فهذه الأسلحة لا تؤثر في هذا الحيوان المتوحد الذي أصبح كالحجارة، كالأرض الصماء التي يتوسدها.. فما الذي يمكن أن يحرك هذا الحيوان ؟ لا يمكن أن يحركه إلا الماكرة الخبيثة الداهية، اللعوب العروب، الضحوك، سيدة الغواية ، وسيدة الخصب ، ربة المكر، وآلهة الحب التي تحرك الحجر، حواء دواؤه، حواء التي أخرجت جدنا من جنته بسحرها و مكرها، حقا لا يمكن أن يفكر، هذا المتوحد ، إلا بامرأة تؤنس وحدته، و لا بد أنه كان يطارد طيفا أوشك أن يناله عندما سقطت عليه كعذول ثقيل، فهرب طيفه فأنكرني وكرهني، ولن يستجيب لي إلا إذا دخلت في دربه وطاردت معه طيفه..

قال الشيخ دون أن يفوت الفرصة: لن يغلب هذا البرد اللعين إلا حضن مشرق الاستدارة كشمس ربيعية..

-: ظننتك لا تخشى البرد، ولا تحفل بأماني الفانين..؟

-: وماالضرر في أن يحترق الفاني بلهيب الفانية سيدة البشر..؟ قلبي معلق بالفانيات الفاتنات الملتهبات كالنار..

-: ولمن ستترك حوريات الجنة يا شيخ؟

-: ليوم الله يدبر الله يا بني..!

-: وهل ينفع أن تضع عينا في الدنيا ، وعينا في الآخرة..؟

-: عيننا التي ترى في الدنيا هي التي تقودنا إلى طلـــب مـــا في الآخرة..!

-: نفسك خضراء يا شيخ..!

-: وهل في اليابس خير يا ولدي..؟

-: فكيف بعت الدنيا من أجل الحوريات؟

-: الحوريات حلم مؤجل ، والحلم المؤجل حاجة للروح ، فهل تظن أن شيخك سيظل موفور الشباب إلى الأبد..؟!

-: أنت مراوغ كطيف..!

-: الطيف لا يراوغ، ولا يخون، ثابت كاليقين...

قاطعه خليف : الطيف كالأشباح والموتى الباردين، والحجـــر الساكن.. زرقة الأشباح لا تدفىء المقرور..

-: فابحث عن الجسد الحي لتمـــص العظـــم، ولا تكتـــف بالرائحة..

-: وأين الجسد الحي في هذه البوادي..؟

-:عندما لاتجد الجسد الحي ، استنجد بالأحلام..

اخترق الشيخ قلب خليف وعرف وجعه حين لم تفلح وسائله المكشوفة، وجره إلى الحديث رغماً عن أنفه، وهل يستطيع خليف أن يغلب شيخاً مراوغاً كالطيف خبيراً بالنفوس والأسرار كالملائكة..؟ فهل يملك هذا الشيخ أن يفعل ما عجز عنه الآخرون فيحول الحلم إلى حقيقة ؟ لماذا يحسن الظن به ؟ ألأنه يتحدث عن الحوريات دون تأثم ؟ أليست هذه خطته ليحصل على مايريد عندها يطوي تسامحه كسجادة الصلاة ، ويصكه كحمار أزعر ؟! لن يكون أفضل من غيره، فكلهم يحملون أحلاماً في جيوبهم وأخرجتهم وأعبابهم، ينثرونها على رؤوس العباد، وكأنما يسكّتون أوجاعهم، ويسلّون آمالهم، ويستلبون يأسهم ، منهم من يبيع الأحلام بثمن بخس: عشاء دسم، وعد بعشاء، مبيت ليلة، ومنهم من يبيعها بثمن باهظ: هيمنة على الروح ،ولا أحد يبرأ من بضاعة هي زاد الحياة ، لكن الأحلام المباعة، بالرغم من الثمن البخس أو الباهظ، مستحيلة.. فالأحلام المنثورة أمامك ذابلة كوردة لا يصلها الماء، مراوغة كثعلب ماكر.. لقد مر خليف على حوريات الجنة كلهن بشفافية أجسادهن، بالدم الذي يسري في عروقهن، عاريات ومكتسيات، متكئات على سرر، وقائمات على نار،

مجنحات ومقعيات.. تنقل خليف في كل أطراف الجنـــة الـــتي تجري من تحتها الأنهار، ومع هذا لم يتعثر بامرأته الموعــودة، و لم يلمس نداوتها الحارة والآسرة كسر لا يباح به..

لا نفع في الأحلام الذابلة إلا باستثارة الأطيـــاف البـــاردة، الباردة كالموت ، ولا نفع في بائعي الأحـــلام إلا لمـــن أراد أن يكون مثلهم لا وجود له إلا في الأحلام..!

ماداموا يبيعون الأحلام فليحققوها أيضاً !

عاودت خليف روح المخاصمة فالتفت إلى الشـــيخ قـــائلاً: مانفع الأحلام؟

قال الشيخ:الأحلام كلها منافع فلولاها ما تحملـــت وحشـــة البراري ، إنها هي التي تلون وقتك ، وتؤنس وحدتك ..مـــن يعيش دون أحلام ..؟!

-: حتى وإن لم تتحقق؟

-: أليست الأحلام هي ما لا يتحقق؟.. ما يتحقـــق لا يبقـــى حلماً..!

هاهو ذا الشيخ يقوده مرة أخرى إلى منطقـــه، يدخلـــه في دهاليزه، إلى منطقة الظل الرطبة التي لا تلفحها شمس الحقيقـــة، لكن خليف يريد أن يهتك الأسرار ، أن تتحول الأحـــلام إلى

حقائق ، أن تمنح الأشباح الزرقـــاء حــرارة لا تملكـــها ، وأن يخضر درب الأحلام اليابس ، ولن يكون ذلك إلا إذا مسّــكه درها ، إلا أن الشيخ كربعه لن يدله على الدرب فليبعده عــن طريقه ، حزم خليف أمره قائلا : القرية وراء هـــذه الهضبـــة ، فاذهب إليها لتصيب دفئا وعشاء دسما حــتى لاتــأكل زرقــة الأحلام ..!

قال الشيخ : إن هذا الراعي لا يراوغ فهو يعرف ما يريد ومــا يرغب فيه الآخرون ..لاأوهام لديه وهو ليس حجـــرا كمــا ظننت، إنه جرح ينز دما ، وقلب مفتوح كالأفق ، لاتداويـــه الأحلام ، بل الوقائع والأفعال ، فليبحث هو عن ربعه المختزنين بالأوهام ، المسورين بها الذين سيحتفلون به، وسيرتمون دهشــة عند أول كلمة يفوه بها ، وسيتلقفون قمله ووســـخه ببركـــة النعمة ، وبصاقه باحتفال كدواء شاف ..

وانتعشت العينان الباردتان ، وهو يكلأ المزدحمـــين عليـــه المتلقفين بصقته وكلماته بعبادة . قام الشيخ وقبل أن يبتعد قال: سنلتقي ، فقلبي أحبك كما يحب العاشق معشوقه ..!

تقدم الشيخ نحو القرية وأمامه تتراقص ألسنة النار فيصطلـــي بها ، وترصف صحاف الطعام فيلتهمها ... وراقب خليـــف

الشيخ البدين ، و لم يخطر بباله أن هذا الذي جاء في غير أوانه ، الحامض كالتيوس ســـيجعل شمـــس الديـــن ترفـــس الأرض كالمرعوصة ، وأنه لن يترك فيها سترا إلا كشفه .

طقوس الوفرة ..طقوس العشق

ليست الصفات هي التي يورثها الآباء للأبناء فحسب ؛ بـــل إنهم يورثونهم مهنهم أيضا ، وكما تختلف الصفات المتوارثـــة في انتقالها من جيل إلى جيل حتى لا تكـــاد تعـــرف في الأجيـــال المتأخرة ، كذلك تتطور المهن وتتغير كالصفات إلا أن لعمودهـا ثبات ذيل الكلب الذي لا يقومه القالب ، فإن كان الـــوارث مبدعا، أضفى عليها روحه ، لتنطق بخبايا نفســـه وأحلامـــه ، ولتخرج خلقا آخر مستمدة لبوسها من ذاكرة عمرها عمـــــر التكوين ، فنسغ الذاكرة يستمر في الدم والصفات والأحـــلام منتقلا من أول مخلوقين وجدا على ظهر الأرض ..

كان الشيخ عيسى رجلا متدينا بسيطا ، و لم يكن يتـــاجر بالأحلام شأن الشيوخ المتنتين ، والسحرة والمغاربة والمسلميات وضاربات الفأل والودع، إلا أن ابنه إبراهيم قذف بحباله عاليـــا

نحو أبواب السماء ، وتمسك بأهداب ثوب الرب ، فأصبح بائع أحلام بجدارة ، يفتح أبواب السـماء للخـاطئين والخـائفين والمرضى مع أنه في بداياته انشغل بمعاداة السماء، وأتى بكل مـا يغضبها ..!

في بداية القرن التاسع عشر ، والزمن يدور كالدوامـة ، راكضا بمكانه كالجبال الهامدة التي تمر مر السحاب ، والفجـر يطلع كفجر الأمس ، والأرض الخربة والخاوية ممتدة كجسـد أسطوري ميت لايقبض عليها السـلاطين ولا الباشـوات ولا الإنكشارية ، ولايملكون أن يكتبوا فيها كلمة تخرجـها مـن عمائها ، فوحدهم الناس النادرون الذين يفرون مـن البـدو والعسكر فرارهم من الجفاف والفاقة والجراد والأمراض، كـانوا يقلبون في أوراق سفر البادية ، وهم يلوحون هزالا كالمحاذيف ، يظهرون ويختفون كالسراب ، لايمكثون أبدا ، ولايغيبون أبـدا ، فإن اكتشفهم أحد وظن أنه اقترب منهم ، هدوا خيامـهم ، ورحلوا فلاتظل إلا مراجيع العصي ، ودمن المواقد .

في ذلك الزمن المجهول كابن الزنى جاء الشيخ عيسى مـن وادي الفرات الأدنى ، يضرب في البيد الخاليـة ، وكأنـه آدم الأول يبحث عن البشر ، جاء بخربوش مـهترىء ، وحمـارة

عرجاء مدبورة ، وامرأة لاتشبه في شيء حواء الأولى ، وذرية من الصبيان والصبايا شبه عراة كالمسلوبين بغزو ..!

حط الشيخ عيسى ظعنه في البصيرة مجمع النهرين ، ومجامع الأنهار مراكز غواية ، ومواضع خطر إلا أنها لاتعدم البشر الذين يمنحون المكان اسما ، يؤنس وحدته ، ويخرجه من عماء الخواء ..ثم يسحلون ، في سفر الزمن المتطاول المتشابه كالأرض الخالية ، كيوم الآخرة ، بقبورهم ومزاراتهم ، كلماتهم الوحيدة التي تبقى حتى لو غادروا خفافا كأشباح لا هياكل لها..!

الشيخ عيسى الذي لم يكن يملك شيئا من حطام الدنيا شأن كل المتوحدين ، كان يملك قوانين البوادي ، فله ما للغريب من حقوق الجوار ، وصلة الرحم التي تعود لآدم نفسه..!

منحه شيخ البصيرةعنزا وثمنية حنطة ، فذبح العنز ، وأدارت زوجه الحنطة على رحى مستعارة ، وأولم لجيرانه مبددا القليل الذي حصل عليه .. وللشيخ عيسى مفهومه الخاص عن القلة والكثرة ، فالبيداء تضج بحلال الله ، وأرزاقه منثورة في طيوره وحيواناته ونباتاته وكلها ملك لمن أراد الكثرة التي لا

يمكن جمعها ، وإنما يمكنك أن تغرف منها متى شيءت ، فـــالله لايضن بحلاله المبارك المتزايد أبدا على أحد ..لذلك كان الشيخ عيسى يضع محذافه على منكبيه ،ويحمل مقلاعـــه ويخـــرج إلى البراري، فيصطاد الدراج والحجل والقطا والعصافير والأرانـــب والغزلان التي تتوالد بأسرع مما تتوالد الأغنام والجمال ،ويقول : ما أكثر حلال الله ، وما أقربه إلى المحتاج ! اخرجوا إلى البريـــة وانتقوا ما تريدون !

فإن لم يخرج إلى البوادي هرع أولاده ، ذكورا وإناثـــا ، إلى ضفاف نهر الفرات يصطادون طيورالشراشيح بأيديهم العارية ، والشرشوح لايستطيع الطيران أكثر من بضعة أمتار ، يرتـــاح بعدها، لذلك ينتشر الأولاد والبنات على ضفـــاف النـــهر ، ويمنعون الشراشيح المتهالكة الفزعة الكسولة من أن تتوقـف ،أو أن تأخذ نفسا ، وسرعان ما تقع بين أيديهم لاهثـــة مبـــهورة مستسلمة !

وذات يوم طرق خربوش الشيخ ضيوف جاؤوه على حــــين غفلة ، فذهب إلى منزل جاره مصطحبا إحدى بناته وقال لـه : خذ هذه الفتاة عروسا لابنك ، وامهرني بها خروفـــا وعجنـــة طحين ..

ذهل جاره وسقط فكه دهشة ،لكن الشيخ عيسى بدد ذهوله حين قال له : أسرع ..فعندي ضيوف ينتظرون عشاءهم .!

سلمه الرجل خروفا وثمنية طحين وثمنية جريش ، فذبح وأو لم لضيوفه ..

ولأن الضيوف يأتون دون موعد في البوادي ، والفقير يؤخذ على غفلة متى جاؤوه فقد تكرر ضيوف الشيخ الذين لا زاد لهم، فلم يكن ثم وقت للصيد ،وليس لديه ما يبيعه أو يبادل به ، فلجأ توا إلى رب الكثرة المباركة الذي لا يرد رجاء راج..وقال لزوجه : ضعي القدر على النار ..

المرأة التي خبرته لا تناقشه ، فالشيخ يعرف دائما ما يريد ، لذلك ملأت القدر ماء ، وركبته على الموقد بعد أن أشعلت النار ، فقال لها : اعجني ..!

قالت : الطحين قليل لا يكفي لرغيف واحد .. في فم من أحطه..؟

نظر إليها بعتب ، وقال : منذ متى وأنت تراجعينني بالقول ؟!

قلبت المرأة العدل ، ونفضت آخر ذرات الطحين في الطشت ، فانتثرت فيه دون أن تغطي قاعه ، ومر الشيخ بيده فوق الطشت ، فارتفع الطحين تحت نظر المرأة رويدا رويدا

حتى ملأه ، فعجنته وخمرته ، وركبت الصاج وأوقدت النـــار فعاد الشيخ ليضع يده فوق العجين ويسمي باسم الله . خبزت المرأة فراح الخبز يتراكم والعجين المبارك يزداد ولا ينقص ..افي ذلك الوقت كانت بناته قد أرثن النـــار، ودسسن الحطب والروث تحت القدر حتى نضج ..فأرسل أبنـــاءه إلى الجيران يدعوهم إلى الوليمة .

شمر عن أكمامه ورصف الصيباني المستعارة حول القدر وسمى باسم الله ، ومن كفكيره نزل اللحم قطعا قطعا ، أربعون صينية قدمها للضيوف والقدر كأنما أصبحت بئرا تفيض باللحم والمرق ، ويومها قيل إن القرية أكلت كلها حتى الكلاب شبعت من العظام ..!

وقال الناس : هذا الرجل لا حاجة به إلى عمل .

ـ : إنه من أولياء الله.

ـ : يأتيه الرزق متى شاء .

وسأله بعضهم : لم لا تطلب من ربك أن يغنيك ؟

قال : لا يطلب العبد من ربه إلا إذا ضاقت به السبل ..

-: ألم تضق بك السبل بعد ؟

-: من زاد حلاله زادت آثامه .

لقد عرفه الناس مباركا كريما كجدهم الأسطوري حاتم الطائي ، فأتته النسوة ببناهّن يقص شعرهن ليغزر بين يديه الكريمتين النديتين ..! وإذ يطول شعر البنات ويغزر يأتونه بأغنامهم وماعزهم ليقص صوفها وشعرها .. والشيخ لا يرفض طلبا لأحد ، والشعر والصوف يتباركان ويغزران ويفيضان ، وما بين يديه يشح ويتلاشى .

ولأنه كان تقياورعا صادقا أمينا فقد اختاره شيخ البصيرة حارسا لبيادر الشعير والعدس والدخن ..! ولأنه يرى أن للعصافير حقا في بيدر الدخن كحق ابن آدم فيه، فالعصافير جزء من الكثرة التي منحها الله للبشر كلهم ، كان يدير ظهره للبيدر لتحط عليه العصافير خفية ، وتصيب نصيبها دون أن ينغصها ، فإن زقزق عصفور اضطر لطرده ، إذ لا يمكن تجاهل عصفور أحمق يبول على النار ويعلن عن نفسه ، دون أن يخل ذلك بأمانته . وحتى لا يصطدم واجبه في مهنته بإيمانه بحقوق العصافير كان يقول للعصفور : انقر ..لاتوزق !

إبراهيم الابن البكر للشيخ عيسى لم يكن يشبهه في شيء، فقال الناس حكمة يتناقلونها عادة : الوردةتخلف شوكة ! لذلك سيصدقك البصيري لو قلت له أن ماء الفرات رد إلى

الوراء ، ولكنه سيستنكر لو قلت له إن إبراهيم سيمسك درب أبيه ، وسيزجرك حتماً، متهماً إياك بقلة العقل أو انعدامه..فهذا الكافر الذي غلظ أنفه ، وحمضت نفسه حتى ليقاتل ذباب وجهه، لا يمكن أن يمسك درب أبيه حتى لو شاب الغراب ، وحبل البغل !

لقد تلقى إبراهيم ضربة عصا طائشة في ظلمة الليل البهيم ، وشق خاصرته خنجر مجهول ،وهو يتختّل للفتيات ليلاً،وبدلاً من أن تقعده جروحه فرش في اليوم التالي أمام أمثاله من الشباب الغليظي الأنوف محرمةً معطرةً طرّزت حاشيتها باسمه..!

وبالرغم من إدراكهم أن هذه الحركة كثيراً ما كانت حركة نصب وادعاء إلا أنهم جميعاً يصدقون هذا الغريب الذي تمنح عيناه السوداوان اللتان تنفذان في القلب كالسهام ، ولسانه الذرب المعسول ، للفتيات نضجاً مبكراً ، يشع في عيونهن وقلوبهن قبل أن يبلغن مبلغ النساء ..وإبراهيم المتسلح بهذين السلاحين ، وهما كل عدة النصاب ــ العاشق يدخل بيوت القرية كلها ، فابن القرية حتى لو كان غريبا لا يمنع من دخول البيوت والاختلاط بالفتيات ، يجلس مع الأهل ، ويغازل أمامهم ، ويأخذ موعدا ، والجميع يعرفون من يدخل عاشقه من

عقاله نص رأس ، ومن غلظ أنفه ..والعشـــق مبـــاح مـــا دام مكتوماً ولا يصبح عيباً إلا إذا صرّح به !

الأهل يعرفون أن الشاب أخذ موعداً في واد ، في حظـيرة أغنام ، تحت سجف خيمة ، سيحاول اللقاء ، وســـــيحاولون اصطياده كذئب أدغم، بعصا ، بخنجر ، بحربة .. والويل لـه إن ظفروا به ، مهدور دمه لأنه حرامي ليل ..فإن أفلت بقي الأمـر سراً لا يبوح به أحد .وكل ما قبل الزواج لا يثار بعد الزواج ، تطوى صفحته ويغيب في بـــئر الأســـرار ، حـــتى المنـــاقرات والمناكدات وكفش الرؤوس والخصومات التي تصل إلى حـــدود القتل ؛ لا تبيح ظهور هذه الأسرار ، فليس من فتاة لم تعشـــق ، وليس من فتاة تزوجت عاشقها ، ولا أحد دون عرض !

ولأن القرية ليست خالية كذقن الأكوس فإن المنافسـة تـأخذ شكل مبارزة كلامية في سيف اللسان ؛ وفي إحدى الليـــالي في بيت إحدى الفتيات اشتبك إبراهيم وأحد شـــباب القريـــة في مبارزة ، فكنى أحدهم الآخر بأنه جحش يأكل وردة..! وشـبه الآخر خصمه بأنه أبو الجعل الذي يموت لـــو غســـلوه بمـــاء الورد.واستخدموا في مبارزتهم وجه الزاغ وأبا عماية والثعلـــب المكار والكلب السلوقي والضبع المنتن وابن آوى...واســـتطار

"النحوي "بينهما إذ تلبس الجرأة غطـاء الكنايـات الشـفافة والتوريات المبهمة ، والإيماءات الغامضة ليخوضوا في المحرمات ، وليحموا أنفسهم من غضبة الرقباء المتأهبين لاصطياد فرائسـهم إن خانتهم قدرتهم على إخفاء أنفسهم بخروجهم مـن عمـاء الغموض إلى وضوح المباشرة المفضوحـة كثـوب مشـقوق الزيق..! وبالطريقة نفسها أعطى كل منهما موعداً للحبيبة عند صياح ديك الحردانة !

عند هذا توقفت مبارزة العشق لتأخذ الأحـاديث منحـى آخر، فحياتهم منسوجة بالأحاديث التي يستعينون بحرارتها علـى برودة الأحداث وندرتها ؛ فتطول الأحاديث وتطول ، وتتوالـد وتشتبك وتتداخل ، ويجر بعضها بعضاً كأفـاع في قـارورة واحدة ، أو كجن يركبون بعضهم بعضاً يتلصصـون علـى السماء .. والليل الطويل يبتلع الأحاديث ، ولا يشبع كبطـن الحنفيش ..فإن تعبوا وعزت الأحاديث تحولـوا إلى حكايـة الذبيبينة ..! فإن قلت نعم وإن قلت لا سيحدثونك عن ذبيبينة، إن استنكرت أو استسلمت سيحدثونك عن ذبيبينة ، ذهبت أم بقيت سيحدثونك عن ذبيبينة ، ولأن الحكاية ، التي تحتـاج إلى كبد بعير وعناد بغل لا تنتهي ، فإنهم يلوذون بالانسلال واحداً

إثر الآخر من مستنقع حكاية الذبيينة ومأزقها الحـــــرج ، ولا يبقى في الأذهان إلا المواعيد التي تلتقي بنزق ديك الحردانة.

اللقاء سيتم ولو على جثثهم ، فالشباب لا يخلفون موعدا ، وأهل الفتاة سيترصدون للمتنافسين ، ومن نالوه منهم ذهب من كيسه.

في تلك الليلة وقد عاد إبراهيم من سهرته ، أدرك أن الوقــت تأخر ، وأنه لن يستطيع أن ينام ليقوم إلى موعده ، لذلك تحــزم على دبوس قير وخنجر ، وتلثم بكوفيته ، وتمدد على فراشـــه ينتظر الموعد وأهله منثورون في الخيمة وعقله يخطط ويطـــارد الأحلام ، والفتاة الموعودة تبتسم له .

في آخر الليل يبدأ المنتظر الأرق المستلقي على حجارة التوقـع وأشواك الانتظار الحادة كالمخط المنصوبة ، يقنع نفســه بــأن الخصم لن يأتي فالصبح قريب ، وتمنحه النجــوم الــتي تبــدأ بالتلاشي إحساسا بالأمن الموهوم الذي يزينه التعب والنعــاس ، يهوم المنتظر ، يقع رأسه غير مرة ، ثم يغفو لأن لاملــح علــى إصبعه يمنعه من الرقاد..في هذا الوقت بالذات تهجع الكــلاب ، ويتوقف صرار الليل عن الصرير ، ويسود صمــت مريــب ، يسمع فيه إبراهيم دبيب النملة ، صخب الصمت الذي هو وقع

دفرات قلبه ، حركة ثوبه ، صوت أنفاسه ..يحمل إبراهيم دمه على راحته ، ويمضي متحللا بالليل الذي ما زال يمنح للصوص والعشاق أمنا بأن الأوان لم يفت بعد . وبحذر متناه يتجنب كلبا ، زولا أسود ، خطأ واحد وتكون النهاية ، قبل بيت المعشوقة في واد صغير جاف خلف البيت ، يلتقيان كأنما انطلقا في لحظة واحدة، تسترا بالظلال نفسها ، سلكا الطريق ذاته..وإذ يلتقيان يعرفان أن واحدا منهما فقط سيذهب إلى لقاء الحبيبة .

قال إبراهيم : عد ..فهي ليست لك ..!

-: ما جئت لأعود .

-: لا أريد أن تفقدك أمك .

-: تشاهد على روحك ..

يلتحمان في إيقاع الموت دون ضجيج ، فهما حريصان على الصمت ، يؤجج الحقد قلبيهما ، ونار الشهوة تضرم نار القتال ، يتماسكان ويبتعدان ، يستعينان بإرث أجدادهم الوحشي في أكل لحوم بعضهم بعضا ، تلتمع الخناجر في ضوء نجوم شاحبة ثم تنزل ، تند صرخة مكتومة من أحدهما ، ينز الدم، تتخضب يد الخصم برطوبة حارة، تضعف اليد ، ويسقط

الخصم ، يضع إبراهيم رجله فوق صدر خصمـــه ، ويلتمـــع الخنجر في ضوء العينين المهزومتين ، فيرى الرابح قسوة الخسارة الأبدية للمحبوبة ، ولأن خسارتها تتساوى مع الموت لا يطلـب المهزوم الرحمة ، مع أن المنتصر يمنحه فرصة أخيرة : اخرج مـن طريقي ..و لا تعد إليها .. عدني بذلك ..!

تكفي المهزوم مرارة الخسارة ، فالمنتصر لا يرغب بقتله لأن القتل يغل الحقد ، والحقد يحصد قتلا آخر ، لكن المرمي يتسلح بالخذلان ، فيفور الحقد كالمرجل الغالي ، ويمنع البصيرة مـن أن ترى خيط النجاة ..يقول المرمي : لن تفلت مني يا إبراهيـم ، سأطاردك ولن أتوقف ..!

يلتمع الخنجر التماعة أخيرة وتغيب التماعته في الصـدر في موقع القلب ، وتفلت صرخة ذبيحة ، ويتدفق الـدم ، يـهتز الجسد ، ينتفض وينتفض ، ويقول القاتل : لن تجدني أبدا ..!

لا ينسى القاتل المنتظرة التي يخطو إليها فوق شلال الـدم محاذرا أن يصطدم بحواجز الأهل وفخاخهم التي نصبوها لحرامي الليل ..يطلع من الوادي ، يتسلق ظهر الهضبة ، ثم ينسرب نحـو المنزل القريب ، يهر الكلب هريرا مسترخيا تعبـا ، يتعرفـه فتتخامد هرهرته حتى تصبح خريرا ، وهو يربت على عنقـه ،

ويمسح ظهره ...يذهب إلى صيرة الأغنام ..تنشـــط أشـباح وظلال لا صوت لها .. وقبل أن يدفع باب الصيرة تنشـل يده ، عصا توسطت الرأس لكن حركته جعلتها تقع فـــوق كتفــه فشلت يده ، تمددت إلى جانبه كلسان كلب لاهث ، وحتى لا تقع ضربة أخرى قاضية يهرب، يصرخ أحدهـــم : حرامـــي ! وتخرج أشباح وظلال تتحول إلى رجال يركضون ، يضيع بـين المنازل فيزيل كوفيته ، ويفزع حاملا محذافه ، يبحث معهم عن الحرامي ..ولو لم يستره الظلام لتحـــول إلى هـــرس تـتراوده المحاذيف !

قضت القرية آخر ليلتها بالهرج والمرج والضجيـج ، تداخل الناس ، وتداخلت الأسئلة والتخمينات والتوقعـــات ، ثم بـــدأ الناس ينسحبون والنجوم تتلاشى ، وكان آخر المنسحبين نجمـة الصبح الشاحبة .

في الضحى عثروا على جاسم مقتولا في الوادي فثـــــارت الأسئلة من جديد هل هو الحرامي ؟ لا يعقل فأهل القريــــة لا يسرقون بعضهم بعضا .. ثم إن الحرامي هرب باتجاه آخـــــر ، تداخلت الأمور لأن من حضروا المبارزة لا يبوحون بالأسرار ! إلا أن سو يلم العبد الله كان يعرف الحقيقة كلها ،فابن عمــــه

القتيل حدثه عن موعده ، قال له : خـــذني معـــك لأحـــرس ظهرك.. من يعرف ما يمكن أن يحدث ..!

قال جاسم : لو ذهبت محمي الظهر بك سأ تخاذل ..ســأعتمد عليك ، أما إن ذهبت منفردا فسأعرف أن ليس لي إلا قـــوتي ، يداي وحدهما اللتان تحمياني ..!

يفور الحقد في قلب سويلم ، يفور الدم ، يصرخ به الـــدم المهدور ،شبح المقتول ..لن يعرف الراحة أبدا ،لن يهدأ له بال، لن تمتد يده إلى فتاة ، لن يذوق طعما للزاد، الطعـــام كلقمـــة الزقوم كالدفلى .. والنار تشتعل في قلبه ، يتقصف قلبه كغصــن يابس ، ليقتله الآن ، الآن وليس غدا وإلا لركبه العجز والظلم، يا إلهي ما أقسى أن تشعر بالظلم! ما أقسى أن تتخطـــف يـــد غادرة روحا عزيزة عليك،وأنت عاجز مسلوب..لا..لســـت مسلوبا ،يمكن أن يأخذ بثأره بأي وقت، فمن لهـــذا الغريـــب يحميه من حقده ؟!سيختار الوقت وسيختار الطريقة أيضـــا ، سيكون ثأره بطريقة لا تخطر إلا على بال الشيطان وحـــده ، وهكذا فقط يمكن أن همد النار المشتعلة في قلبه ...ســـيتركه حيا ، ولكن دون حياة ، سيسلبه ما يباهي به ، أعز ما لديه... وسيشعل النار في صدره إلى الأبد حتى لا ينسى جاسما ، وحتـى

لا يظل شبحه الصادي يقتحم وحدة ســـويلم آنــاء الليـــل وأطراف النهار ..لن يهنأ إبراهيم أبدا ، سيموت وهو حي ..!

إبراهيم الذي تحسنت يده منح سويلما فرصته الذهبيـــة ، نسي القتيل وكأنما هو كلب أو شاة ، لم يبال بمـــا جـــره من حزن، ما قتل من أحلام وطموحات ...عاد إلى سيرته الأولى ، تساعده عيناه السوداوان ، ولسانه الذي استعاد حلاوته وكـأن شيئا لم يكن !

ومر الوقت ، الوقت الذي مر على إبراهيم قصيرا كـــان كالدهر على سويلم ، وفي الحصاد عند البيادر جاءت الفرصـة الذهبية التي هيأها لا مبالاة إبراهيم ويقظة سويلم ، فلم يفلتـها بل قطف وردة إبراهيم بضربة واحدة دفع فيها كل غله وحقده الفاطس في داخله ككلب ميت !

فوق البيادر وبينها كان إبراهيم الذي خلفه الرجل التقـــي الورع الغارق في تقسيم كثرة الرب ، وتعليم العصافير الحصول على حقها من بيدر الدخن ، قد ركبه الغرور من كثرة غزواتـه الناجحة ، بل لأن رصيده ليس فيه غزوة فاشلة ، فهو يبـــادر الصيد الأجمل في كل وقت ، ويفوز بالقلوب ، والقلوب تقـود إلى الأجساد ، فالحرارة والنضج والشـبق المبكـر لا يكتفـي

بالكلام ، وكان إبراهيم قد بدأ يعتقد أنه فحل ، كل عمله هـو أن يشبي الإناث ، فيترك صلصاله بـين الأفخـاذ المرمريـة ، والسمراء الحارة كلهيب الصيف ، ويرشه كبول مبارك فـوق سنابل القمح ، وتلال التبن ، سويلم الذي يترصده عثر عليـه ، بل قل أمسكه راكبا ، في تلك اللحظة التي يطلع فيها السـر ، وتتلألأ فيها آلاف الأنجم في العيون ،ويكتمل القمر بدرا منـيرا ساطعا في العينين المغمضتين ، في تلك اللحظة حط عليـه سويلم وصحبه ، ومن هول المفاجأة لم يتمكن من إرسال ثوبه وتغطية حيوانه المنتصب كذكر الحمار ، فأمسكوه وتجاهلوا فتاة هربت متخفية بالظلمة ..قيدوا حركته ..شـدوا خيطـاً في ذكـره وسحبوه منه ، وهو يصرخ ويستغيث ، يكاد ينشلع ويكاد قلبه ينشلع معه ، يلتهب بالنار ، فيشتعل رأسه بالنار أيضاً ، وسويلم الحاقد يتشفى ، يقترب بالخنجر حتى يلتمع في العينين ، ثم يرتـد ليمنحه لحظة أمل في أن يؤجل لحظة كائنة لا محالة في رقصـة بربرية أتقنها الحيوان الصائد...ما بين لحظات اليأس والأمـل الكاذب عاش إبراهيم دهراً بحاله ..ثم بحركة سـريعة رشـيقة ماهرة نزل خنجر سويلم مرة واحدة فوقعت وردة إبراهيم على

الأرض ترفس كذيل الضب ، واشتعل رأسه بالنـــار قبـل أن يشتعل ما بين أفخاذه ...

وابتلعت الظلمة سويلم وصحبه الملثمين ..عندما جاء الناس كان إبراهيم وحده يخور كالثور الهائج ينطح الأرض ، ينطـح تلال التبن وأكداس القمح ، ويغيب فيها ملوثاً بالدم والعار .

إبراهيم يطّلع على كتاب المصائر

بعد شهرين من الغيبة المشوبة بالصحو ، والصحو المشـوب بالغيبة والسمن الغالي ، ولبخات الأعشاب ، وصلوات الشـيخ عيسى الحارة ، وأدعياته المستغيثة التي تقرع قبة السماء الزرقـاء في اليوم ثلاثة آلاف مرة تعافى إبراهيم ، وتماثل للشفاء ..!

في الصحوة الأولى صرخ صرخة حيوان جريح ، تجـاوزت صرخة نملة قتلت ظلماً وسقطت في آذان الملائكة والجن ، ولّمت الأكواخ وبيوت النهر والحجارة ، وترددت في التـلال والأوديـة والسهول فأصمت حيوانات البراري وقيدتها ، ومضـت في السماء فدومت الطيور في سكون كأنما أخذتها الصرخـة ، ثم

سقطت في النهر فارتعشت الأسماك في قلبــه ، واســتقرت في الصدور فناحت الفتيات ، وندبن فارسهن ...

في المرات الأخرى ، كان يردد : ليتني مــت ..! المــوت أهون ألف مرة ..!

وانتحبت أمه العجوز نحيباً يبكي الحجارة ، وقالت : الحمد لله على سلامتك ياولدي ..!

_ : أي سلامة يا أمي ؟ ..ليتني مت ..الآن أشهد موتي وأنــا حي ..!

_ : لاتكفر يا ولدي ..!

وفي لحظات ما بين الغيبة والصحو جاءه جاســم ملثمــاً بكوفيته ، واشتبكا معاً في صراع مميت ، وتدفق الدم من صــدر جاسم ، فقال له : ستموت أبشع من ميتتي ، ولــن ينفعــك أحد..!

في مرات أخرى كان يسرح بصمت حقود ..وحين شفي، دعاه أبوه ليخرج ويتمشى ، فأبى بعناد : لن أخــرج أبــداً .. سأموت في فراشي !

لن يغادر خربوشه ..أين يغادره ؟ ولماذا؟ لقد فقد إبراهيــم أثمن ما يملكه بشر أو حيوان ..! الشيء الوحيد الذي يثبــت أنــه

وجد ذات يوم ، وترك خفقة قدم في الطين،وأنـــه مســـتمر في نسله ! الشيء الوحيد الذي يضعه على هاوية الخلــــود ولــو بأعقابه المتتابعين المصنوعين من طين الأرض العـــائذة بــالرب منهم..!

لمن ترك الفتيات والصبايا ؟ من يسمعهن غـــزلا يكـــر في نضجهن ، ويدفع الدم في أوردهن ، فيمكنهن من اقتحام ظلمـة الليل بأجسادهن اللاصفة كبريق السيف ؟ مـــع أن دمـــاءهن مملوءة بالوحل والأحراش والمداهمات والســـبي ، فينتظـــرن في الصير ، في الوادي ، في عراء ظلمة ، في ظل حائط له عيـــون، والفضيحة كالحنفيش تغمض عينا ، وتفتح أخـــرى منتظـــرة إشارة، حركة ، حسا ، همسة لتفتح الثانية...!

ومع أن الموت ساهر فوق رؤوسهن كقلب المجزرة الـوادع فإلهن يهبن أنفسهن ، ويمنحن كنوزهن المتوارية من ألف عام لمن يفك الرصد برحيق الكلام ، وبوعد غامض في العودة ، في تلك اللحظات فقط ، إلى الجنة التي خرجن منها ، والتي ينتظرن منـذ حواء الأولى أن يعدن إليها ، ولأن اللحظات مؤقتة فإلها تتكـرر إلى ما لا نهاية للقبض على ما لا يمسك أبدا ، ما يفوتنا أبدا..!

ماذا يبقى بعد ذلك ؟ بالألم والعذاب يكبرون ، ليعيشوا كالحيوانات المطاردة ، آملين أن تتوقف المطاردة يوما ، وينعموا بفسحة من الوقت ، ليتنفسوا ، ويأكلوا ، ويتناسلوا ، وهم ينتظرون حياة كحياة أجدادهم ، يموتون شوقا إلى لحظة منها ، فلا شيء سيكون مثلها .. هي الأول والآخر ..اويطول الانتظار، فلا يرجع الوراء ، ولا يأتي الأمام..لا مجد يحصلون ، ولا رحم يستعيدهم ..فلماذا يبقون ..؟بل لماذا يبقى إبراهيم نفسه ما دامت أهم متعة في الدنيا تلك التي تمنحه وهم الحيلة ، تلك التي تمنحه الإحساس ، ولو للحظات ، بالسمو والعظمة والألوهية ، قصيرة قصر سلطنة الشقراق ، عندما يحلق صافا فوق النهر ، فيتملكه الفخر ، ويسلمه إلى لحظة وهم بأنه سلطان النهر ..!

حتى السلطنة الموهومة السريعة الزوال كالومضة ، المتجددة كالأمل فقدها فماذا يبقى له ..؟انتظار موت سيان إن أتى الآن أو بعد ألف سنة ؟الا شيء يأتي ، ولا شيء يعود إلى الوراء ، والزمن عظم نخر لم يكتس لحما، ولن ينهض من رقدة..اضاع إبراهيم إلى الأبد ، بل وركبه العار كعذراء انتفخت بطنها ، كقرع طبول أعلنته على رؤوس الأشهاد رمزا لكل عار !

سيموت إبراهيم في اليوم ألف مرة ، سيموت كلما التقاه أحد من أهل البصيرة وما حولها ..! لا بد من الهرب ، ليذب في الكون الرحب ، والبوادي الخالية ، ذرة غبار ، حبة رمل ، حيوانا هاربا من عنف القرى ، وليحمل اسما ولقبا جديدين ، وليمت إبراهيم إلى الأبد ..!

لقد مات إبراهيم منذ اللحظة التي منح فيها اسمه للزمن ، تقاسم السنة هو وضحيته ، فقيل : يوم قتل جاسم السلو ، ويوم قطع ذكر إبراهيم العيسى ، سيظل ذلك تاريخا تتناقله الأجيال ، وستخلد تلك السنة ، يموت إبراهيم ولا تموت اللحظة الحية في الزمن الأعمى من أبي عماية ..اولعشرات السنين سيتعين الزمن بالحادثتين ، سيحيا بالميتين ! وستظل الحادثتان صوى تدل التائهين على درب الزمن المتشابه الفارغ من الأحداث ، واللحظات التي تحمل اسما ، موتا ، عارا ، ولادة ..تبقى وما عداها يموت ويفنى كالبشر الفانين ، ويظله النسيان والذاكرة المثقوبة !

يضيق إبراهيم بنفسه ، بأفكاره ، فيرحل وهو على فراشه إلى البيداء الخالية ، حيث لا أحد إلا الحيوانات التي لا تعرف

الخجل ولا العار ، ولا تعّير بالخطيئة ولا بالهزيمة ، ولا تعـــرف الزمن المحدد بالأفعال ..إنها مكانه ولا مكان آخر له ..!

وليطرد إبراهيم الأفكار العاصية كالشيطان ، الأفكار الـــتي تخضه كالشكوة المعلقة يلجأ في عزلته إلى كتب أبيه ، وكـــانت القراءة والكتابة هما الشيئين الوحيدين اللذين تعلمهما منـــه قبل أن يعسو عوده ، ويصبح الشوكة التي تخلفها الوردة..افـــأدرك للتو ما أذهله ..كأنما انكشف الكون أمام ناظريه ، كأنما يـــرى رؤية لا يصدقها ، واضحة ساطعة كالفتنة في حضن العاشق !

رأى كل شيء منذ الأزل ، عندما لم تكن أرض ولاسماء ولا أنهار ولا بحار ، بل ظلمات من فوقها ظلمات ، والرب يعجـن الطينة بيديه الكريمتين ، وأمنا الأرض تركع عند أقدامه كـــي لا يكمل خلقه لبني آدم من طينتها ، فتعذب بعذاهم ، وتسـقط في خريف النار بسقوطهم !

وأمام دهشته التي لا تنهض لما يرى ، شاهد جده الأكـــبر الأحمق وهو يخصف على نفسه من ورق الجنة ، وقد استجاب لجدته الماكرة الحمقاء ، المبدعة الأولى التي تريد ما لا تعـــرف ، وترغب في كل ممنوع ، وتبحث عن كل متوار ..!

رأى صراع الملائكة والجن والإنسان ، ورأى أنبياء وكهنة وعرافين وملوكاً وسلاطين وخلفاء وولاة وقادة وعامة يصطرعون ، فيقتل الأخ أخاه ، والأب ابنه ، والإبن أباه ، والمرأة زوجها . . .من أجل امرأة ، أرض ، مال ، سلطة ، عرش..ومن أجل لا شيء أيضاً ..

ودخل إبراهيم بطون الأرضين ، أجواف البحار وظلمتها ، زرقة السماوات ، وزار مدن النحاس ، ومدن الذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان والياقوت والزبرجد والماس . . .وعرف أن جده كان طويلاً طويلا ، بعينيه يلتقط أسرار السماء ، وبأذنيه يسمع لغط الملائكة ، وظل الرب يحطه ويقصره إلى أن صار هذا الرجل الهزيل القصير القامة الذي أمكنه تكديس الأموال والحريم والهروب بها من الحروب والغزو والدمار ، ومع هذا تنبع أنهر من الدماء ، ويتكدسون جبالاً من القتلى في الشوارع والحارات والأزقة والقصور والبيوت ، وفي البيد والأوعار والجبال والأودية ، والأنهار والبحار ، مامن ذرة تراب إلا من مسحوق عظامهم وأجسادهم ، وما من بقعة في الأرض إلا وتسهر على كنز صغير أو كبير والعلامة خيمة ، صخرة ،

غيمة، نجم ...الأرض مزروعة بـــالكنوز المؤمنـــة بالأرصـــاد والطلسمات ، وما أسهل فك الأرصاد والطلسمات ..!

والقلم أول مخلوق في الكون كان قد سطر مصائر الخلائـق كلها إلى يوم الدين ..وإبراهيم ذريرة تافهة، كتب مصيرها منذ سبعين ألف عام مما يعدون ..!

ومع إدمانه القراءة أدرك أنه يمكن أن يصـــل كجســده إلى السماء ، فيسمع همس الملائكة ، وينظـــر في وجـــه الـــرب ، ويستطيع أن يصارع جن الأرض ويغلبهم ، ويحبسهم كما فعل سليمان النبي ، كما يستطيع أن يفك الأرصاد والطلسمات عن الكنوز المطمورة ، فقد أصبح عارفاً بكل شيء ، قريبـــاً مـــن الرب، موعوداً بالجنة ، ويمكن أن يكون صاحب سلطة فينـــال الوفرة التي تحدث عنها أبوه ..! وهذا ليس درب أبيه ، وهـو لا يشبهه في شيء ، فما يريده إبراهيم لم يفكر فيه أبوه ، فهو يريد الوفرة له ، بين يديه ، يتمتع بها ، يعيش بنعمتها ، ويضع الجنـــة تحت إبطه ، فتصبح الجنة جنتين !

منذ أن قرأ في مخطوط المصائر أدرك أنه قادر على التدخـــل فيها ، وتغييرها ، وإعادة صنع الحياة كالرب ..!

لا يمكن أن يحدث هذا في البصيرة نفسها ، فليغادرها دون إبطاء ليلحق بحلمه الذي أصبح دافعاً جديداً للتمسك بالحياة..!

في ليلة مظلمة كجنح الغراب خرج إبراهيم هارباً تقـــوده جياد الحلم الجامحة كالسّعير، اتجه نحو الشمال الغربي ، تقاذفتـــه الدروب والأوعار، السهول والتلال ، الجبال والأودية ، طالعته وفرة البراري بأسراب الغزلان ..ورفوف الطيور ..وطاردتـــــه الذئاب والضباع ، فاختفى في مغائر وكهوف ، أكل حشـــيش الأرض ونبات البرية ...واكتشف وحدته ذئب جائع فطـــارده ملحاً ليلتهم حلمه الندي كشجرة وارفة الظلال..ناوره..اختفى عنه في مغارة ، فوجده في اليوم التالي ينتظره أمامها ، اختفى في واد ، فرآه في اليوم التالي ينتظره فوق رجم ..!

استخدم إبراهيم محذافه الذي لا يخطيء فـــأجل المواجهـــة بأرانب اصطادها وتقاسمها مع الذئب الذي لم يحصها لكنه خلع الضغينة كما يخلع المدجن أنيابه فاقترب من الرجل أكثر . راقب إبراهيم المسافة الشحيحة برعب متزايد ، ولمـــــا لم يـــدرك أن الأرانب المهضومة نزعت أنياب الذئب وجعلته يتبعه كظلـــه ، قرر ، والمسافة تجاوزت خط الأمان ، أنه ماعاد قـــادرا علـــى تأجيل المواجهة فلبس الخوف ثوب الأمل : إنه أبسط الأخطـــر

التي تهدد حلمه فليبدأ هذا الحلم من هنا ، من هـــذا الذئـــب العنيد، إنهما وحيدان ولا شاهد عليهما ، لو انهزم إبراهيم فلـــن يشهد أحد هزيمته ، والهزيمة التي لا شهود عليها ليست هزيمـة ، إنما هي حكاية عادية من حكايات الكر والفر في هـــذه البيـــد الواسعة تحدث كل دقيقة ، وكل لحظة ..!

ليخاوي الذئب ..المخاواة تعني المساواة ، والمفـــروض أن يأسر الذئب ، يجعله خادمه ، سبيّه ، مركوبه ، كمـــا فعـــل الأجداد بسلطتهم المستمدة من سلطة الرب ، فليتسلح بكـــل الامتيازات التي منحها الرب لأجداده ، ليكن رأسه في الســماء يلتقط الأنجم بيديه العاريتين ، عملاقاً يصاغر الذئب والحيوانات والبشر ..وتوقف إبراهيم ، توقف الذئب أيضاً ، ركز عينيـه في عيني الذئب ، استعان بقراءات وأدعية حفظها من كتب أبيـه ، كررها عشرات المرات وهو يحدق في عينيه قائلاً : يا مبارك ..! ابحث عن طعامك وطعامي ، فأنت في حضرة سيدك المتكلـــم باسم الله ..!

تريث الذئب ، تلفت ، تردد ، ثم حزم أمـــره وذهـــب ، جلس إبراهيم وهو يلاحق الذئب بعينيه ، نزل في واد ، تـوارى خلف هضبة ، لكنه لم يسقط من عيني إبراهيم ، ظـــل يقيـــده

بعينيه ، يحزنه فيهما ، فيراه أينما تحرك ..هاهو ذا الذئب يعثر على سرب من الغزلان ، يطارد خشفاً .. يتعثر الخشف ويكبو.. ينقض عليه ويجره وعينا إبراهيم لا تفلت الذئب ..عاد الذئب يجر فريسته وكلما اقترب منه توضح في عينيه حتى وصل إليه ، فرمى جثة الغزال ، وابتعد مقعياً ..أخرج إبراهيم خنجره، سلخ الحيوان ووشّله ..وعلى نار شبّها من الأعواد الجافة وبقايا روث شوى الغزال..

أكل حتى شبع ..تجشأ ، ثم رمى للذئب بالفضلة ، وقال : ما أروع أن تصير سيد الوفرة ، تنادي الضواري فتقدم عليك ، تأمرها فتطيع ، تذلل ظهورها لك ، وتمنحك نفسها طعاماً لذيذاً!

لم يعد الذئب يفارقه ، يسير خلفه دائماً ، قرر أن يمر بركبه في إحدى القرى ، فاجتمعت القرية كلها ، تمسحت بالسيد ، تبركت به ، جاءته بالطعام والشراب ، قال لهم : الله يكفي عباده الصالحين ، ويتكفل بحاجتهم ..!

_ : أتردنا خائبين ؟إنما جئناك بزادنا لتباركه ..!

_ : مبارك زادكم وحلالكم .

تمسكوا به : ابق بيننا ..حل مشاكلنا ..اطرد أمراضنا ..

أبي السيد محمد كما سمى نفسه ، وسيد الذئاب كما سمته القرى : الرب هو الذي يقودني ، وحيث يأمرني أذهب ..افهذا الذئب مسخر مأمور أينما برك بركت !

ما كان السيد محمد يريد الإقامة لأنه لم يبعد بعداً كافياً عن البصيرة ..فليغرّب أيضاً ، وليتوغل أبعد فأبعد ..وليدخل القرى مصطحباً معه كرامته وهي ملء العين ، تحكي دون كلام، فهذا هو سلاحه الذي اختاره ، وهو المجرد من كل سلاح في البوادي التي خطت حيواناها قانونها الأكبر : السيد هو الأقوى ..اوالمهنة لا تحمي الوحيد ، المهنتان الوحيدتان اللتان لهما حق الحماية في البوادي الخالية هي مهنة السيد ، صاحب الكرامات ، الذي تطوى له الأرض والأزمنة ، ومهنة الشاعر الجوال ،والسلطة لا تمنح إلا للسيد وحده ، فالشاعر الجوال لا يستطيع أن يكون سيداً..!

لا يريد السيد محمد أن يحمي نفسه فقط بل يريد سلطة لا تنازعها سلطة ، يريد أن يكون السيد المطاع ، ففي داخله شيطان وإله ، سيكون بائع أحلام وأمان ، سيمنح الناس الأمن والأحلام الرخيصة الثمن ، سيمطرهم إذا يبست عيون السماء، وسيفجر لهم الينابيع إن جفت آبار الأرض ، وسيطير على

أجنحة الملائكة ، ويمشي على الماء ، ويعالج المرضى ، ويلقن الموتى ...وعندها سيكون كل شيء بأمره ..!

ليستقر في قرية يختارها وتحتاج إليه ، وأي قرية لا تحتاج إليه، هو ظل الله على الأرض ، حامل مشيئته ، الناطق باسمه ؟ فالقرى منهوبة مفزوعة مزعزعة بجند السلطنة التي تتذكرهم عند المواسم أو دفع الخاجور،وبغزوات البدو التي لا مواسم لها ، والأمراض وكوارث الطبيعة الدائمة والمفاجئة،خاصة القرى المتطرفة،إنها قرى عارية ينشب العدو مخالبه فيها أولاً،فإن وصلها الفزع وصلها وهي ميتة من الخوف والأخيذة،وحتى القرى التي تقع في وسط مشابه لها لا تسلم من الأخيذة ، فالأعداء يتسللون بين القرى ويضربون حيث لا يتوقعهم أحد ..!

مملكة صغيرة ومتاعب جمة !

بدا السيد محمد متعجلاً للعثور على قرية يدلها على طريق الله، ويبيعها بيدر الأحلام الذي يملكه ، ويسورها بالأدعيات والتمائم والكرامات ، ليرفرف السلام على قلبه كما يرفرف بيرق السيد الأخضر فوق ربوة ..! وليحصل على مملكته

الصغيرة التي تدفعه إليها النار المتأججة في قلبه ، علها تعوضـه عما فقده ، مع أن لا شيء يعوض شيئاً !

سار السيد يقطع الفيافي ، دخل قرى البو حسن ، وسلمته قرية إلى أختها ، وهو يصطحب خويه الذي أغناه عن كثير من الشرح ..ونشر السيد تاريخه وتاريخ أجداده في القرى التي مر بها ، فجده آخى بين الذئب والشاة ، وأحيا الميت ، وأبوه استمطر السحاب ، وركب السبع ، وحلب التيس ، وأنطق الضواري ..كانت القرى تستقبله بإعجاب يليق بركبه ، إلا أن ولاءهم "لقرير" كان أشد ، فهو أقرب إلى أن يكون طوطمهم، أو إلههم ..! وسمع السيد بقرير، فقرر أن يتحداه ، إذ لا يمكن أن يجتمع ديكان على مزبلة واحدة ..!

توجه السيد نحو الجنوب متتبعاً مجرى نهر البليخ إلى قرية صكيرو ليعاين خصمه عن قرب ..!كان قرير يربض بشمم صخرة عملاقة على حدود قرى البو حسن من جهة الجنوب ، وكان في البداية مجرد استعراض للقوة قام به بضعة من شباب البو حسن ليثبتوا أن حدودهم مسورة بالقوة ، وهو مجرد صخرة استثنائية في حجمها وشكلها ، فهي بحجم ابن آدم العملاق الذي خلقه ربه حين كان قادراً على أن يدس رأسه في

السماء ، إلا أن قرير كان مضطجعاً أو قاعداً ..! وعندما تكثر حركة المرور بين قرى الجزيرة الفراتيـــة والبليـــخ إلى حـــران وبالعكس ، كان جمع من الشباب يقيم عند قرير ، ويجـــبرون المارين والمتبضعين إما أن يسجدوا لقرير ، وإما أن يدفعوا لـــه جزية أو نذوراً...

ومع الوقت نسي الناس السر الذي دفنوه سوية ، نسوا أنـه مجرد تحديد للحمى ، وتداولوا أن البو حسن يؤمنون بقريـــر ، وأنهم يسجدون له ، وأنه وثنهم وإلههم الذي يفضلونـــه علـى الله..اوصدق هؤلاء الحكاية التي شاعت على ألسنة النـــاس ، فأصبح قرير رمزاً لمنعتهم وقوتهم ، تذبح عنده الذبـائح ، وتقدم النذور ...لا بد من واحة أمان ،في بيد لا أمان فيها ، لا بد من حرم يلوذ به الفـــار والخـــائف والموجـــوع والمقـــهور وذوو الحاجات.

وصل السيد إلى صنكيرو في ظهيرة قائظة ، يتعـــوذ فيـــها الإنسان من ثوبه الذي يلبسه ، يرافقه خويه ، وما إن أحســـت بهم الكلاب حتى نبحتهم ، لكنها لم تجرؤ على الإقتراب ، مـــع أن عدوها اللدود بدا ساكناً وهادئاً وحالماً كناسك ، و لم تلبـث أن خرجت القرية كلها لتستقبل الشـــيخ وصاحبـــه اللذيـــن

وصلتهم أخبارهما من قبل ، وقال له بعض عقلائهم : ما نفعل بك وعندنا قربير ؟!

قال الشيخ : زيادة الخير خير.

قالوا : فإن غضب ؟

قال : قودوني إليه ، فنحن نفهم على بعضنا بعضاً .

وقف السيد أمام الصخرة الصماء،والبليخ يتبخر في الظهيرة القائظة،قال في نفسه:أنت أمام امتحان..امن يضع نفسه أولاً سيواجه امتحانات كثيرة،في كل خطوة امتحان ، وعليه أن يتخذ القرار الصائب وحده..وإن أخطأ أوضعف أو جبن سقط من العيون دفعة واحدة كما تسقط الدمعة من العين ..!

اقترب السيد من الصخرة ، وقد أحس بأنه العملاق الذي يحيط بكل شيء ، القادر على كل شيء ، قال : أعني يلوبي .. أعينوني ياأسيادي ..!وأحاط الصخرة بيدين كالمناجل ، رازها والرعشة تركض في القلوب كالوجل ، والصمت يرتجف في العيون كطائر فقد اتجاهه ، وحطت فجأة صرخة عظيمة ما أثبتها الحاضرون المذهولون أمن الشيخ أم من السماء هي ، لكنهم أثبتوا أن الصخرة اهتزت ، والقرية اهتزت والنهر غادر

مجراه فاستجابوا لإثباتاهم بالصرخة المشدوهة : أنت الأقوى..!
أنت الأقوى ..!

وقال غير واحد إن قريير أنَّ توجعاً ، واكد آخرون أنـــه سبح باسم خالقه .

قال لهم الشيخ ، وكل شيء يقوله الآن مقدس كأنما هـــو مكتوب في اللوح المحفوظ :إن قريير عبد صالح من عبـــاد الله ، عصى ربه حينما أراد أن يطلع على السر الإلهي ، وينظـــــر في وجه الله ..فمسخه الله حجرة ..! أخذ روحه النادمـــة فأسكنها في ملكوته ، وترك هيكله الممسوخ ليتعظ به الناس ويعتبروا ..!
قالوا له : ابق يا شيخ ..!

قال : مبارك قريير لقد تركت فيه شيئاً مني فاســـتظلوا بظلـــه واذكروني ، لأنني سأذهب إلى من هم في حاجة أشد منكم إلي.

رحل السيد إلى الشمال تسبقه أخباره بفضل التيل البشـري المتواصل بين القرى ، واستقر في قرية عين العـــروس ليحمـــي الحدود الشمالية لقرى البو حسن ، بينمـــا يحمـــي حدودهـــا الجنوبية قريير ...وهكذا راح السيد وقريير يســـوران القـــرى بآياهم وحضورهم وكراماهم إلى أن جاء الصبي الأبيض فـــهزّ

عرش استقراره وطمأنينته ، وأخرجه من دعة الحلم والسـيطرة إلى قلق الصراع للاحتفاظ بهما .

كان الصبي الأبيض فتىً مملوءً بأحلام السيطرة والسطوة التي لا ينازعه فيها منازع ، منذ اللقاء الأول أدركا أن أحدهما يجب أن يغادر فالقرية لا تحتمل شيخين ... كلاهما كـان عنيـداً ، الصبي الأبيض يعصف به حلم السيطرة والامتلاك ، والسـيد محمد يريد أن يحتفظ بحلم حققه ، ذاق طعمه ، طعم السـلطة والسيطرة حيث يأمر فينفذ الآخرون ، وحيث يحصل على مـا يشتهي ... وإن نازعه منازع ، وناقشه متمرد رجع في النهايـة كخروف ضال إلى القطيع ، ككلب حرد عاد يتمسح بأذيـال صاحبه ليغفر له هفوته ، عاملاً بالقاعدة الذهبية : من يقـول لشيخه لم لم يفلح ..!

كان كل منـهما واثقـاً أن أجـداده سـيعضدونه في حربه. بدأت حرب التاريخ أولاً ، فكان تاريخهما يكبر وينمـو ويتطاول ، ويلتف كالأشجار ، كالأيكة الكثيفـة المختلطـة بأغصان شائكة يصعب فصلها عن بعضها . وتحدث النـاس ، وكأنما هم الذين شاهدوا بأعينهم التي سـيأكلها الـدود ، أن الصبي الأبيض كان منذوراً للمشيخة ومباركاً منذ كان جنينـاً

في بطن أمه ، فقد رفرف فوقها طير أخضر مبشراً إياها بأنها ستلد ولداً صالحاً ، أبيض البشرة كالحليب ..وأنه حين يصل إلى مرحلة الشباب سيتوقف نموه ، فشبابه خالد إلى أن يموت ، لذلك تسميه الصبي الأبيض اوقد تكلم وهو صبي في المهد ! وقابل الرسول يقظة ، ففيما هو يحبو ذات يوم أشرق وجهه بنور انعكس عليه ، فتبسم الصبي ، وقال : أهلاً بسيدي وحبيبي رسول الله ..!

ويقال إن الرسول مسح على رأسه ، وغسل قلبه ، وتفل في فمه ، وجعله مدينة العلم من بعده ..لذلك فإنه لا ينطق عن الهوى ، بل يتحدث بفم النبي ، يتنبأ بالغيب ، ويمطر السحاب، ويرد الغزو ، ويبريء الأكمه والأبرص والأخرس ... كل الحكايات تدور حول أفعاله هو لا أفعال أجداده ، في حين كان تاريخ السيد محمد يفسح حيزاً وافياً للأجداد ، ولا يترك له إلا هامشاً صغيراً ..!

التف المريدون حول كل منهما ، وازداد ضرام حرب الكلام ، وحرب الكلام طاحنة ساحقة ، فمن يحسن استخدامها يهز خصمه ، يخلخل الأرض تحت رجليه ، ويتركه

كأنما هو معلق على شفا هاوية ..ولا يبقى إلا أن يُجهز عليـــه بضربة قاضية ..!

ما كان الصبي الأبيض ممن يعقدون اتفاقات ســـرية في ألا يتعرض أحدهما للآخر ، فهو شيخ الشيوخ ، لا شيخ قبلـــه ولا بعده ، لذلك لم تفلح محادثات التهدئة والصلح ، بل لقد انفجـر الصراع طاغياً ضارياً، ذات يوم عندما تحدى الصبي الأبيـــض السيد على رؤوس الأشهاد قائلاً : ليبرهن كل منا مـــن هـــو الأقرب إلى الله ..هذا الميدان يا حديدان ..!

حشد كل منهما أجداده ومريديه وكراماته ، ونـــزل إلى الميدان ، واحتشدت عين العروس حين بدأت الشمس بـالمغيب مخلفة وهجاً قانياً كالدم ، أشعلت السكروجات ، وشبت النار، وكان المريدون قد فرشوا ولمسافة طويلة طريقاً بالأغصان الجافة والروث ثم أشعلوها ، وحين انطفأ نور الشمس ، ارتفع لهيـــب النار ، والمريدون يحيطون بالنار بصفـــين متقـــابلين ، يحملون الدفوف ويتقدمهم شيخاهما ، يخرج من جماعة الســـيد مريـــد يقابله مريد آخر من جماعة الصبي الأبيض ومعاً يجتازان النـــار بهدوء ، بهدوء غريب كالغياب ، لا يتعجلان ولا يبطئان ، بـــل يرددان مع قرع الدفوف والمريدين الآخرين : الله أكـــبر .. الله

حي ..!وهكذا انسرب المريدون جميعاً في طريق النار ، ومـــن تنتهي نوبته يعود إلى مجلسه ، فإن وقع أحدهم مغشياً عليه قــام إليه شيخه فجذبه جذبة تعيد إليه وعيه ..!

ثم بدأوا من جديد يخرجون كل مع من يقابله فيغرسون في بطونهم الشيش أو السيف ، وهم يرددون مع المنشدين وقـــرع الدفوف ، ثم يعودون إلى شيخيهم ، فيخرجـــان الشـــيش أو السيف من بطن المريد ، ويرصدان الجرح ببصاقهما حـــتى لا ينزف ، و لا يتحول إلى جرح دائم !

بعد أن انتهى المريدون خرج السيد ، وتقدم بينهم ،رمـــى كمبرته ، وظل في سرواله الطويل ، فأدخل يده تحت حزامه ، ودفع يده في أحشائه ، فأخرج العيش من بطنه ، ثم راح يفتتــه بيده ، وينثره على النسوة ،فتلقفته النسوة ليأكلنه لأنه يشفي من عرق النسا ، وحية الهوا ، والعقم ، وهووصفة مجربة لطالما جـاد بها الشيخ على أتباعه ، واكتسب بها لقباً آخر " أبو العيش " .

انبرى الصبي الأبيض فأدخل شيشاً من بطنه خــــرج مـــن ظهره ،وآخر من خاصرته خرج من الخاصرة الثانية، وما بينهما من جهة اليمين غرز شيشاً ثالثاً ، ثم غرز شيشاً رابعاً ما بينــهما من جهة اليسار ، ودار بين القوم كقنفذ مسلح بأشواكه ...!

ثم بدأا معاً بدهك الحجارة وأكلها وهضمـــها،واســتمرا طويلاً والدفوف تدق والنداء يقرع قبة الســـماء الســوداء:الله أكبر..الله حي ..! وخسر السيد بضعة أسنان لم يعلن عنـــها ، و لم يعرف خسائر صاحبه لكن المريدين من الطرفين حجـــزوا بينهما ...وإلا لأكلا بعضهما بعضاً..! وتواعـــدا في الليلـــة التالية..!

جر كل واحد أقدامه جراً ، وانفضت القرية لتتحدث عـــن الليلة التي ستصبح جزءاً من تاريخها ، وسكن السيد في خيمتـــه منقبضاً مكدوداً ، شبه مهزوم ...وكان يستمع إلى المريديـــن الذين بقوا معه وهم يتهامسون : ستكون ليلة الغد فاصلـــة ..! سيلتقي الشيخان وحدهما في صراع وحشي ، وربما تحـــولا إلى أسدين أو ذئبين يتصارعان ...وقد يحمل أحدهما الآخر ليلقيـــه في آخر الدنيا أو في بحر الظلمات ...ومن هنـــاك ســيعودان طائرين إلى بعضهما ليصطدما في الجو مما قـــد يـــهز الســـماء ويقوّض الأرض ...وكل ما يسقط منهما من حبة عـــرق أو مزقة ثوب أو لعاب سيحرق ما يقع عليه أو يحطمه ..! وقـــد يأكلان بعضهما بعضاً في النهاية ، يقتلع واحد منـــهما عـــين الآخر ، فيمد الآخر يده ليقتلع عيني خصمه ، ويدفع أحدهمـــا

يده في أحشاء الآخر ليخرج معدته أو قلبه أو مصارينه ، كــل يقتطع عضواً ليأكله أمام نظر الآخر حتى يتلاشيا ..! ليســترنا الله من ليلة الغد ، ستقوم القيامة ..!

سكن المريدون ، وهجعوا مستسلمين لسلطان النوم ، لكن السيد لم ينم ، وكيف ينام الخائف القلق ..؟ فغــداً ســتكون اللعبة نهائية وقاتلة ...! فلماذا لا ينسحب ؟ لماذا يقتل نفســه بيده مع أنه لم يشبع من لذائذ السلطة والحياة..؟! الموت مصــير كل حي ، والآخرة دار البقاء لكنه لن يذهب إليها مادام ثمــة زمن لم يعشه ، وحلم لم يحققه ، وامرأة لم يمازجها..!

وتسلل السيد تحت جنح الليل هارباً في غير أوانــه ، وأدرك أنه لن تقوم له قائمة في أرض تعرفه لقد هجر مملكته الصغيرة ، فليهجر اسمه ولقبه أيضاً ، وليحيي اسمه الأول ، وليضــرب في الأرض باحثاً من جديد عن قرية يسورها بالأمن ، ويفــرض عليها سلطانه ، ويقيم فيها مملكته الصغيرة ..!

حكايات الليل المدهونة بالزبدة

أشرف الشيخ إبراهيم من الجنوب على شمس الدين ، مخيــم من بيوت الشعر المتناثرة على ضفاف النــهر حــتى ســفوح

الهضبة التي تتدرج وترتفع نحو الجنوب والغرب ..أهذه هـــي شمس الدين التي كان يغذ السـير إليـها وكأنها الفـردوس المفقود..؟ أهذه مملكته الجديدة ..؟ لم يتعجل النزول إليها كمـا تعجل الوصول ، فبالرغم من هزالها ، وقلة بيوتها لا بـد أن يدخلها دخولاً غير عادي ، فليس هو الذي يدخـل القـرى كلص أو كعابر سبيل يلوذ بالصمت الحميم .يدخل إبراهيـم القرى دخول الفاتحين لا المتوارين في ظل أجسـادهم الهزيلـة كالأيام الفارغة التي تدخـل وتخـرج كالأشـباح ؛ دون أن يلحظها أحد ..! لا بد أن تخرج القرية كلها برجالها ونسـائها وأطفالها ودوابها لاستقباله ، ويظل يومه علامة فارقة في حيـاة القرية .

تقدم باتجاه الجبل ، وصعد إلى أعلاه ، وفي رأس الجبل رأى امرأة وحيدة تنحني على قبر وحيد وهزيل ، وهي تبكي ....من فوق المرتفع رأى جبلاً آخر على ضفة الفرات اليمنى ، والنـهر يمر بينهما ، وعلى امتداده العكر تناثرت حوائج بلون النحـاس الكابي ..!

توارى إبراهيم وراء صخرة مراقباً المرأة التي ازداد نشـيجها حرارة ..ثم مسحت أنفها وتمخطت بذيل زبونها ، وقـالت

تعاتب القبر : ياشيخ سن ! يا أبا الأرامل والأيتام والضعفاء ..!
يا سيد من لا سيد له ..أيرضيك أن أعيش وحيـــدة كـــأنثى الحيوانات وأنا ذات زوج ..؟! لماذا تخطف الجنية زوجـــي ولا ترميها بشهاب من نار فتجعلها فحمة ســوداء ؟ إن لم تحــرك ساكناً سأعتقد أنك راض عن خطفه ..أنت وليّ ومعيني فـــإلى من ألجأ إن تخليت عني ..؟ أنام جائعة ومقرورة وحزينة فمـــتى تهب لنجدتي ..؟! سأنذر لك خروفاً ، وللشيخ عرودة الـــذي ينظر إليك الآن من الجبل المقابل خروفاً آخر ، وسأصوم لكمـــا شهراً بحاله ، فأعيدا لي زوجي ليتنفس في وجهي ، ويؤنســـني فالوحدة باردة كالموت يا شيخي ..!

خرج إبراهيم من مكمنه ، وتقدم دون صوت من المـــرأة ليفاجئها ، ولتعتقد محقة أنه سقط عليها من السماء ، أو حـــط فجأة من مكان بعيد ..بعيد ..! فالشيخ إبراهيـــم لا يدخـــل القرى إلا فاتحاً ، ولا يظهر للفانين إلا محاطاً بنـــور الـــرب ، وبركة الكرامة . وإذ أصبح خلف ظهرها تماماً قـــال منتفضـــاً كالانفجار: من ينادي أولياء الله ..؟من يقض مضاجعهم بحرارة نشيجه ، وصدق دعواه ؟من أبكى شـــيوخنا حـــتى تنـــدّت لحاهم..؟

شهقت المرأة ، كادت أن تفقد وعيها ، ظنت أن القبر انشق وخرج منه الشيخ ، أو هبط عليها ملاك من السماء..وظلت مفتوحة الفم مشدوهةً من شدة المفاجأة..فاقترب إبراهيم منها ولمس يدها ، وقال : لا تخافي يا امرأة ..اهدئي ..اهدئي ..!

إلا أن المرأة المروّعة ، ظلت ترتعش وعيناها جاحظتان تحدقان دون تصديق في الملاك السمين المنتن الهابط من السماء..اربّت على يدها عدة مرات ، وقال لها : لا تخافي يا امرأة ..أنت إذن من أقض نوم الشيخ سن الراقد تحت سدرة المنتهى ، وفي ظل العرش ..؟! وأنت من أحرقت دموعك الحارة قلبه الرحيم ، فبكى شيخي حتى اخضلّت لحيته ، وقال : امرأة تستجير بي فمن يجيرها ؟ وكنت نائماً في مسجد رسول الله حين سمعت نداء شيخنا ، فلبيت النداء في الحال ..!

لم تكد تفهم المرأة شيئاً ، إلا أن نفسها عادت إليها ، هدأت واطمأنت ، وهي ترى الهابط من السماء يحدثها حديثاً مطمئناً ، ويربت على يدها بدفء سرى كالرعشة في كل جسمها ..!

قال لها الشيخ : أتريدين أن يعود إليك زوجك ..؟!

ونطقت أخيراً بعد أن غادرها الخوف ، وتسللت الطمأنينة لتداعب قلبها الحزين كأغنية دافئة : نعم يا شيخي .

ــ : قري عيناً يا امرأة ..!

ــ : لن أصدق يا شيخي حتى يلمس يدي بحنان كما تلمسها أنت الآن ..!

ــ : سأقوده إليك من عرّوطته ..وسأكبل غريمتك بالأصفاد ، وأسجنها في قمقم وألقيها في البحر كما فعل النبي سليمان مع الجني العاصي ، حتى لا تعود إلى إزعاجك..!

ــ : ومتى يا شيخي ..؟

ــ : كل شيء بأوانه ..كل شيء بأوانه ..!

تحدث الشيخ إبراهيم مع المرأة فعرف منها أولياء شمس الدين وشيوخها ومزاراقم :الشيخ سن وعرودة وشمس الدين ، وعرف هموم القرية ، وانحباس الأمطار عنها ..

قالت له : انزل معي يا سيد إلى القرية لتتبارك بك ..!

قال لها : اسبقيني إليها ..

قالت المرأة بخوف حقيقي : لن أتركك وقد وجدتك يا شيخي..!

قال إبراهيم : إنما جئــــت الآن مـــن أجلـــك ومـــن أجـــل القرية..اسبقيني إليها لأن لي حديثاً مع شيخنا سن ..!

نزلت المرأة إلى القريـــة ، الأولاد يلعبـــون أم الغيـــث ، والنسوة يشعلن النيران أمام الخيام فالظلام يـــهبط بـــاكراً في الشتاء..وتدحرجت المرأة كصخرة سوداء ، كعنـــز جبليـــة يسبقها صوتها : جاءني شيخ من السماء ..!

توقـــف الأولاد عـــن الركـــض ، واشـــرأبت أعنـــاق النسوة..وحين تكرر صراخ المرأة ، اندفعوا نحوها متســـائلين ، فقالت : جاءني شيخ من السماء ..!

قالت امرأة : الوحدة أذهبت عقلك يا هدلة ..!

قالت هدلة : انتهت الوحدة ، فالشيخ قال لي : ســـأعيد إليك زوجك ..!

ــ : أنت تحلمين يا هدلة ..!

ــ : ما زالت حرارة يده الكريمة على يدي كدمعة ساخنة ..

ورأى البعيدون الجمع فجاؤوا راكضين أو متعجلين ، قـــال بعض المحيطين بهدلة : لقد فقدت هدلـــة المشـــكو عقلـــها..! وأضاف آخر : أعتقد أن الجنية التي خطفت زوجها خطفـــت عقلها أيضاً ..! لكن هدلة قالت لهم ، والدمع يكاد يطفر مـــن

عينيها : صدقوني ..القد قال لي : جئت من أجلك ومن أجـل شمس الدين ، وسأجعل الأمطار تنزل عليها مـدراراً ، وسينبت العشب كبحر من الخضرة فتخوض فيه الدواب والماشية ..!

قال أحدهم : لا حول ولا قوة إلا بالله ..!

ـ : صبر جميل وبالله المستعان ..!

ـ : ستلحق بزوجها ..

قالت لهم : تعالوا لتروه بأعينكم ...اتبعوني ..!

تقدمتهم هدلة ، صعدت القرية خلفها وكأنهم قطيع مـن الماعز يرتقي سفح جبل سن ..وحين رآهم الشيخ تبسم، وتهلل قلبه ، فهاهي ذي القرية تأتيه كلها ، عن بكرة أبيها .. وحـين تأتي القرية وتنقاد كالقطيع ، لن يردها نباح كلب ، ولا أقـوال راع مهمل ..! الآن ستضع شمس الدين مصيرها بين يديـه ، وتصبح كالخاتم بإصبعه ، وسيهديها الأمطار والأحلام والوفـرة في ماشيتها ، ويداوي أمراضها وعاهاتها ، ويفتح طريقـها إلى السماء ..فعندما تؤمن به سيتحقق ذلك ..! وبذلك سـتكون مملكته الجديدة التي ستعوضه عما أضاعه ! ألا يحلم حقاً؟ أيـن ذهب الشيوخ الاموات إذن ؟ إن الشيخ يضيق بالشيخ فكيـف إذا كانوا ثلاثة يجرون في القلوب مجرى الـدم في العـروق ،

ويحفنون المعجزات من كمال الموت ؟ إن توزيع الكثرة الهزيلة لهذه القرية على أربعة سيجعله شحاذا لا ملكاً ، وحتى يحقق حلمه عليه أن يطيح بهم جميعاً ، فالوحدانية شرط المملكة .. !

تلقى السيد إبراهيم أهل القرية مواريا عبوس أفكاره بالبشاشة المرحبة : أهلاً بأهل شمس الدين ..أبشروا لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون بعد الآن ..!

قال أحدهم : انزل إلى قريتنا يا شيخ لتتبارك بك ..!

ـ : مباركة القرية ..موطئ قدم جدنا آدم ..ومثوى شيوخنا الصالحين الزاهدين ..!

نزل الشيخ والناس يتمسحون به ويتراكضون أمامه ، ويلغطون حوله كعريس محتفى به ، فشمس الدين لم تستقبل إنسيّاً منذ الصيف الماضي عندما مر بهم خيالة إبراهيم باشا على ضوامرهم مالئين أصابع الشباب خواتم ليتطوعوا في عسكره..قادوا السيد إلى خيمة الشيخ حمد ، فاستقبله بوجه طلق ، وبترحيب حار ..جلس الشيخ إبراهيم في صدر الخيمة ، والنار المشتعلة التي يزيدونها بالأغصان الجافة تهس هسيساً دافئاً..وأشار الشيخ إلى عبيده فذبحوا خروفاً وسلخوه وقطعوه ، ووضعوه في القدر ، وانتظروا نضجه وهم يتعابثون ..

وانفلت من الخدر ولد ، دخل على الرجـــال ، نظـــر في وجوههم ، ثم توجه طائعاً إلى الشيخ فجلس في حضنه ، أخرج الشيخ خنجره وسنه على زنده ، ومرر الخنجر على رقبة الولد، فحطت فوقه امرأة انكبت عليه كطائر ينكـــبّ علـــى فرخـــه المهدد: أعده لي يا شيخي ..!

ــ : اتركيه .. سيكون صاحب سر ..!

ــ : إنه وحيدي يا شيخ ..!

تركه لها فضمته إلى حضنـــــها ، وخرجـــت كمـــا دخلـــت كالعاصفة، قال الشيخ حمد : لم يأتنا المطر منذ سنوات ..

ــ : سيأتي إن شاء الله ..

ــ : كأنما جفت ينابيع السماء

ــ : لا تجف ينابيع السماء إلاإذا جفت القلوب من ذكر الله ..

ــ : والأرض محروقة يابسة كالقلوب الميتة ..

ــ : ستخضر كقلوب عامرة بذكر الله ..

ــ : بوجهك وبوجوه الصالحين نحن يا شيخ ..!

ــ : استوصوا بالله خيراً يستوصي بكم ..!

ــ : أنت شفيعنا عند الله ..انقل له شـــكاتنا ..!قـــل لـــه إذا اخضرت الأرض اخضرت قلوبنا بذكره ، فإن يبست يبســـت

قلوبنا ..لا تؤاخذنا يا شيخ هكذا نحن نلين عند العطاء ، نعطي من يعطينا ، وننصرف عمن يشيح عنا ..!

فكر الشيخ في نفسه : هكذا إذن حتى الله لا تحكّون له إلا إذا حكّ لكم،لا تقومون له إلا إذا أنبت مراعيكم،وملأ غدرانكم بالمياه !إلا أنه قال : لايضع الله رأسه في رأس الجاهل فيعاقبه على ما يجهل ، وإنما يمنع رحمته عن الكافر العنيد ، وأما ما أنتم فيه من شح السماء فهو من فعل الأولياء الصالحين..

ــ : وكيف يا شيخ ..؟

ــ : عرفنا طريقنا ، أنر لنا قلوبنا .. أنار الله بصيرتك ..!

ــ : لهذا جئتكم اليوم .

ــ : أولياؤنا ،دستور من اسمهم ، يوقعون بنا العقاب ؟!

قال الشيخ : لذلك حكاية طويلة سأحكيها لكم ..إن شمس الدين أثر من أثار أقدام جدنا آدم ، وكل خطوة خطاها كانت فيها قرية تسبح باسم الله ، وكانت شمس الدين قبلة للأولياء الصالحين حتى قبل أن تسكنوها ، سكنها الشيخ الجليل شمس الدين وبسط عليها حمايته ..ثم سكن في جبلها الشيخ سن فعرف الجبل باسمه ، و لم يكن له اسم من قبل ، ومقابله استقر الشيخ عرودة فأعطى للجبل المقابل اسمه ...ومع أن النهر

يفصل بينهما إلا أنهما كانا يتزاوران، ويــزوران بـين الحـين والآخر الشيخ شمس الدين.، لم يختلفا على شيء وهما اللـذان لا يمكن أن يختلفا على امرأة أو أرض أو زرع أو ماشية ، أو حـتى على قلوب المريدين فأوضار الحياة لا تدنسهما ..لكنهما اختلفا في النهاية ، فكل منهما ادعى أنه الأقرب إلى قلب الله ، وعلـى قلب الله تقاتلا ..!

وذات يوم وقد اشتد النزاع بينهما غضب الشيخ عـروده فخلع سيديته وضرب بها الشيخ سن ، فظلت طائرة في الهـواء كأنما لها أجنحة حتى وقعت فوق جنود تيمورلنك الذين كـانوا يعبرون نهر الفرات فيخربون المدن والقرى ، ويذبحون النـاس كالنعاج ، فغرق أتباعه في النهر ..!

وضرب الشيخ سن غريمه بسيديته ، فطارت كبساط الريح ووصلت إنطاكية ، وكان في البحر أسطول إفرنجي يـهددها فوقعت فوق الأسطول ، فانكفأت السفن كالقدور في البحـر ، وغرق الجنود ..!

واستمر التراشق بين الشيخين أشهراً وسنوات كان يفـتر أحياناً ، ويشتعل أحياناً أخرى ، وقد حمى قتالهما النهر وشمـس

الدين فقذائفهما المتبادلة كانت تصيب الأعداء والطغاة الغـلزين والضواري القاتلة ..!

وذات يوم اقتطع كل منهما قطعة من جبله وقـــذف بـــه الآخر ، فترامت القطعتان تحت أقدامـــهما ، ومـــا زالتـــا في موضعهما على حافتي النهر يعجب كل من يراهما كيف انفصلتا عن الجبلين ووصلتا إلى موقعهما هذا ..!وأصبحـــا يتنـــاكدان ويتبارزان حول أي شيء ، فالشيخ سن يرسل الغيم تلو الغيـــم ليغرق الأرض كما أغرق الرب قوم نوح ، والشـــيخ عـــرودة يحرق الغيوم بزفرة ، أو يبددها ويرققها بأمر حتى يجعلها كغيـوم الصيف الكذابة التي لا تمطر .

قال أحدهم : كل ذلك يحدث ولا ندري ؟!

ـــ : ومن يعرف أسرار الأولياء ؟

ـــ : وما فعل الشيخ شمس الدين ..أوقف يتفرج عليهما ؟!

ـــ : في البداية حين كانت قذائفهما تصيـــب الأعـــداء أدرك الشيخ شمس الدين أن قتالهما إنما هو أمر من تدبير الله ،لينقـــذ شمس الدين من أعدائها، وعندما تطاول القتال حاول التوســط بينهما فلم يستجيبا له، لأن قلبيهما لم ينبضـــا بالرحمـــة منـــذ

ركضت الضغينة فيهما كجياد الطغاة مطوحة بالرحمة الندية كالغيث ..!

ــ : وإلى متى سيدوم ذلك يا شيخ ؟

ــ : فرجت إن شاء الله ..لماذا جئت أنا ؟!

ــ : بارك الله بك يا شيخنا ..!

قدّم الطعام الساخن الدسم ، فأقبل عليه الشيخ وكأنه لم يذق طعاماً منذ خطّت قدم آدم قرية شمس الدين ..!

استعادت شمس الدين أحلامها المزمنة التي عتقتها المزارات، وسالت عليها دماء النذور ، فقد بعث الشيخ الجديد الأمل فيها، فنامت شمس الدين تحلم بالفرج القادم متوسدة أنوار وجه الشيخ إبراهيم بعد أن طبخت على نار الليل الهادئة المدهونة بالزبدة عشرات الحكايات عن الشيخ المجاور الذي بارك ابن الشيخ حمد ، فالسيف لا يمضي في الرقبة المرصودة بخنجر الشيخ..!وقالوا : إن الشيخ سيغير حال شمس الدين فيأتيها بأمطار ما شهدها قط ، وسيخصب مراعيها وحقولها ..وقد حمل لكل مشكلة حلاً ، فتلمست القرعاء شعرها ، والعاقر بطنها ، والمريض علته ، وأمل العاشق بالوصل ، والكاره بالتغلب على عدوه ، بل إن وضحة المرار هددت ضرتها خود

العبد الله بأنها ستعمل لها عملاً عنده حتى يطلقها زوجـها ، أو يهجرها ليرتمي في أحضانها هي فالشيخ وعدها بشـعر نـاعم كالحرير ، أسود كالليل ، طويل كأغصان شجرة ..!

ونام الشيخ إبراهيم لأول مرة دون أن يؤرقه شبح هزيمتـه وقد اطمأن إلى حكمة تدبيره ، فالقرية وضعت بيضها كلـه في سلته.

أيام القريتين التوأم

الحقد كلب ميت !

مع أن الشتاء ليس موسم الاحتطاب إلا أن وضحة المسرار التي لا يركد عليها ماء الوضوء ،كانت تسعى للالتقاء بنساء قرية الشجرة ، حاصت كدجاجة على بالها بيضة ، ثم وصلت إلى حل فأقنعت عدة نسوة عبرن إلى الحويجة على طوف مصنوع من أعواد الغرب والطرفاء حاملات فؤوسهن المثلمة الأطراف ليحتطبن ، وكانت واثقة أن الشجريات سيسارعن إلى الحويجة فالطمع طبع المرأة ، والمحاكاة عدتها ، والغيرة دافعها، ولن يسمحن للشمدينيات أن يحتطبن أكثر منهن من الحويجة المشتركة.

ظهرت الشمدينيات في الحويجة ، فعبرت الشجريات متعجلات كخزلة ماعز شتتها الذئاب ، وما إن أصبح صوتهن يصل إلى أسماع الشمدينيات حتى بادرت إحداهن صائحة ، قبل أن تقع العين بالعين : أتحتطبن في الشتاء يا كحيلات ..؟

قالت شمدينية : ما جاء بكن ..أحسد أم ضيق عين ؟

ــ : من يدري قد يطول الشتاء ..؟!

قالت وضحة المرار : سيطول الشتاء ، وستأتي أمطار غزيرة ..!

ــ : اسم الله حارسك .. امنذ متى تتنبئين بالغيب ؟

ــ : منذ كنت تلعقين ما يسيل من أنفك ..استأتي أمطار غزيرة بالرغم من أنف شيخكم عرودة ..!

ــ : وما دخل الشيخ ، دستور من اسمه ، في ذلك ؟

قالت غزالة : نساء الشجرة لا يعرفن ..!

ــ : وماذا نعرف ؟ عن أي شيء تتحدثن ..؟

قالت وضحة : شيخكم هو الذي يمنع الأمطار عنا ..!

ــ : عشنا وشفنا ..! قولي غير هذا الكلام واتركي الشيوخ في حالهم ..!

ــ : لكنهم لا يتركوننا في حالنا ، فشيخكم هو الذي يطرد الغيوم وييبس السماء .

ــ : ولماذا يفعل ما يضركم و يضرنا ..؟ فإن لم تمطر عليكم لم تمطر علينا ..!

ــ : إنما يفعل ذلك نكاية بشيخنا سن .

ــ : ولماذا يناكده ؟ أأصبح الشيوخ عندكن كالديكة يتنازعون على مزبلة ؟

قالت غزالة : لن يتمكن عرودة بعد الآن أن ينازع أحداً على شيء لأن الأمطار ستحفر قبره ، وتستخرج عظامه البالية ..!

ـ :قبّحك الله ..وما أدخلك في هذا يا عابرةَ الناموس..؟

قالت وضحة ساخرة : كنت أظن أنكن لا تعرفن الـلموس ولا تملكن شيئاً منه ؟!

قالت الشجرية غاضبة : الله ما يخطّ خطاً أعوج ..بليس دون سبب جعلك الله صلعاء كدبر السعدان ..!

عندها تناولت وضحة الشجرية من كفشـها ، ونتفتـها وحلتتها ، ثم تراجعت محتمية بصويحباتهـا ، وحـين أفـاقت الشجريات ، وقد فاجأهن عنف الهجوم وشراسته ، وقفـن إلى جـانب صاحبتـهن ، ورفعـت كـل منـهن فؤوسـهن مهددات..والتمعت الأنصال المثلمة للفؤوس في ضوء شمـس شاحبة هزيلة لتكسر أي رأس يابس ،وعلى يباسة رؤوسـهن كرأس الكردي ، لم تجرؤ واحدة منهن أن تهاجم الأخرى ،بـل تراشقن بالسباب ، ومطرن به بعضهن بعضـاً ، فلـم يـترك السباب حرمة لا لعرودة ولا لسن ... إلا أنه انصب أخيراً على الأعراض فكل امرأة من الطرفين قالت مـا لاتسـتطيع قولـه لجارتها؛ فالشمدينيات عبن الشجريات بأنهن لا يعففن عن أحـد

من الرجال ، وأهن كالكلبات يصرفن بمجـــرد أن يريـــن أي رجل..ثم أنه ليس لرجالهن محارم فهم كتيوس الماعز يقفطـــون زوجاتهم ، وزوجات أخوتهم ، وخالاتهم وعماتهم ..اونـــالت غزالة حصة وافرة من بيدر المسبّات .

و لم تقصّر الشجريات فقد جعلن الشمدينيات ســـاحرات يجرجرن وراءهن عشاقهن بسلسلة مسحورة...!

وفي تلك المشاجرات التي اشتعلت في الجزيرة استخدمت مـن الطرفين كل نقيصة في النساء ، احتوتها الذاكرة المثقوبة ، مـــن أيام جدتهن حواء ..! ونبشت كل قرية أسرار أختها ، ونشرت عرضها كغسيل وسخ .

والسباب ليس أمراً يمكن نسيانه أو تجاهله ، وجرح اللســـان أكبر من جرح البدن ، يشفى جرح البدن وتبقـــى حـــزازات النفوس إلى أن تحك المغسلة رجل الميت ، فالسباب يؤخذدائمـاً على محمل الجد ، فيفوّر الدم ، ويكون الدخان الذي يشـــعل نيراناً قد لا تنطفئ بالهين ..!

ومع انسحاب النساء كل إلى قريتـــها تصـــاعدت حـــرب الأهازيج والأغاني في أفواه الصبية التي تمس كل واحـــد مـــن القريتين باسمه وبعائلته ... لم يمنع أحد الأولاد أو يزجرهـــم ،

لكن أهازيج الصبية لم تبرّد قلوب النساء ، بل أشعلت قلوب الرجال أيضاً . وكانت الحرب تتطور ، دون أي مظهر ناتئ من مظاهر العنف ، ففي الصدور والقلوب كانت تقرع طبول الحرب ، وكانت الكلاب الميتة تنتن ، والاجتماعات الحاشدة في المضافات والبيوت لم تحوّل العنف إلى كلام وتصرفه ، بل حقنت النفوس بشجرة الحقد اليابسة التي ظلت تنمو لتمد ظلالها على كل شيء في القريتين .

اهتزت القريتان وكأنما مر عليهما زلزال ، فوقفتا على الشطين ، وهددت كل واحدة الأخرى بنقمة شيخها ، وحاول شباب من الجانبين أن يعبروا إلى بعضهما بعضاً في القوارب والحلل والقرب المنفوخة ، وعلى الأطواف ..أرغوا وأزبدوا وتوعدوا ...و لم تلبث الحرب التي أشعلتها النسوة السفيهات أن تطورت من مجرد شجار وملاسنة وكفش رؤوس إلى صراع وجود بين القريتين العتيدتين المتشاطئتين على النهر ، واللتين تقاسمتا فيضانات النهر وغزوات البدو ، وهجمات العسكر ، وتآزرتا غير مرة في صراع لا رحمة فيه ضد كل الأخطار الخارجية ...

وتحت جنح الليل المظلم كالرحم ، حيث تخبو نار العقـــل ، وتزين الحماقات ، انفجر الحقد فقد عبر بضعة شباب من شمس الدين إلى الشجرة يقودهم صالح الخماش فنهبوا غنماً ، وأحرقوا صيرها بانسحابهم ، ووعدهم بأنه لن يترك للشجرة من حلالهـا إلا الكلاب ..! في الليلة الثانية عبر الشجريون إلى خيمة متطرفة من شمس الدين ونهبوا كل شيء فيـــها ، البســط والســوح والعدول والفرش وحتى صرغات الحمير ، وثيـــاب الرجـــال والأطفال والنساء بعد أن كمموا أفواههم ، وتركوهم عـــراة موثقين ..!

وتتالت حروب الإغارات والتبييت ..و لم يسلم العشاق من لعنة الحرب الشاملة ، فالشمدينية التي وعدت صاحبها الشجري في هذا الطيش المجنون ، لم تلبث أن وجدت نفسها مشـــاركة فيه..التقى الشجري والشمدينية في بطن واد ، فقال الشجري : لعنة الله على الشيخين لأنهما جعلا لقاءنا صعباً ..!

ـــ : بل لقد سهلاه..فمن سيتذكرنا في هذا الطيش الشامل ..؟

ـــ : ما دمت ترين هذا ..فليت الحرب لا تتوقف أبداً ..هـــم يشتعلون بأوار الحرب ، ونحن نشتعل بحريق العشق ..!

ــ : لا تفرح كثيراً ..! فلو استمرت الحرب فلن نتمكن مـــن الزواج ..

ــ : ومن يتحدث عن الزواج ؟ ألسنا نفعل ما يفعل المتزوجون فما حاجتنا إلى وجع الدماغ ؟

ــ : طول عمرك تقول ما لا يجب أن يقال ..!

ــ : وأنت ، من دور حواء ، عقلك ناقص ..

ــ : أنت أحمق من شيخك ..هل جاء في بالك أن تتعصــــب لشيخك وتناكدني ؟

ــ : بل سأدمس شيخي فيك حتى يتقاطر ماؤه على ردفيك .

وللتو أمسكته الشمدينية من ذكره ، بحقد لعنفه بدا قديمـــاً، وإن اكتشف للتو ، لوته منه وجرجرته حتى كادت تطلع روحه من خصيتيه ، وقد لمعت بروق حمراء أمام ناظريـــه ، وصـــرخ صراخاً مكتوماً ورجاها أن تفلته ، فدفعته ملقية إيـــاه علـــى ظهره، وقالت له : إياك أن تعود وإلا قصفته لـــــك كغصـــن يـــابس..! وإذ تخلـــص منـــها ســـبها وســـب شـــــيخها وهددها..ركضت المرأة باتجاه البيوت ، وصرخت داعية شمـــس الدين إلى حرامية الشجرة ...فطاردوه ، وهرب الشجري ومن شدة خوفه ، في الليل البهيم ، ما عاد يعرف أين يضع قدميـــه ،

فقد تعثر في حجر ، في شجيرة شـــوك ، وتدحـــرج في واد ، وتدهدى من فوق رابية ..وحين أمسكوه لم يـــالوا بخدوشــه وجروحه ، ولا بأعضائه التي خدشتها الحجارة أوســــحقتها ، أورضتها الوقعات المتتالية ، بل تناولوه بالضرب واللطم : وأيـن يوجعك ؟ حتى حولوه إلى كتلة دامية تصيـــح وتســـتريح ، ثم قطعوا أذنيه وهو يصرخ صراخ الحيوانات التي تكوى ،أو تقطع أعضاؤها ، وأرسلوه إلىالشجرة رسالة صريحة ناطقة : هكـــذا سنفعل بكل شجري ..!

أما الشجرية فقد كانت شديدة التعصب ، فطلبـــت مـــن صاحبها الشمديني ، قبل أن يلمسها ، أن يسب شيخه ويلعنه ، ويحمل لواء شيخها ويصبح من مريديه ..! إلا أن الشـــمديني لطمها ، وقال : لن أنكر شيخي من أجـــل فـــرج مـــاأكثر أمثاله..! لعلك تظنين أنك حواء الأولى ؟

ـــ : بل إن فعل حواء سيكون هيناً أمام ماسأفعله ..!

ـــ : فماذا ستفعلين يا بنت الكلب ؟

ـــ : سأفعل ما لم تفعله امرأة قط ..ومالن ينساه مخلوق أبداً ..!

ـــ : أتهدديني ياعاهرة ؟والله لأرينك نجوم الظهر ..!

وبلطمة قلبها على ظهرها ، ورفع ثوبها وثوبه ، وشد رجليها بيديه على وسطه ، واندفع بين رجليها، قاومتـــه الشـــجرية ، خمّشت وجهه ، صرخ بها : سأقتلك إن لم تهدئي ..!

وعندما بدأت تتراخى وتخور لمحت خنجره المتحـــزّم بـــه ، فامتشقته وبمثل لمح البصر صفّر الخنجر وغاب بين ضلوعه مـــرة واثنتين وثلاث حتى تراخى الرجل ، فدفعته عن نفسها ، وولّت هاربة ...!

اشتدي أزمة تنفرجي !

حرب شمس الدين والشجرة حقد يفور في الأعماق ، قـــهر لا يجد له منفذاً ، فعل من لا يستطيعون فعلاً، فلأنهم لا يجـــدون ملجأ من البدو والعسكر وفيضانات النهر وجفاف الســـماء ، هاجموا نظراءهـــم وكـــأنهم أعداؤهـــم الذيـــن لايملكـــون مهاجمتهم..إنهم يعيدون التوازن إلى ذواتهم المقـــهورة ، فـــهم أيضاًقادرون على الفعل والقتل والقسوة ، يحـــاكون عنـــاصر الطبيعة ، وعناصر السلطة الطاغية فيذبحون نظراءهم ويمثلـــون

هم، وينتقمون من عجزهم عن العـــودة إلى زمـــن الأجـــداد وجنتهم الخالدة ..إن إنسانيتهم لا تتأكد إلا في حيوانيتـــهم ، وقسوتهم المفرطة المجبولة من طين ضعفهم .

إلا أن تلك الحرب وضعت مدماكاً لحقد لاينضـــــب ، وإذ سميت لديهم بحرب الشيوخ فإن ذلك لم يمنعها من أن تكـــون كحرب البسوس أو داحس والغبراء إذ ستظل تشبّ وتخمـــــد دونما نهاية ..!

وفي الزمن القادم ، كلما زادت الضغوط على أهل القريتـــين من أعدائهم ، وللملاسنة تافهة أو مسبة غاضبة ..، انفجر العنف بينهم كصرخة الاستغاثة ، عشرات المرات سيرفعون رايتي ســن وعرودة ، وسينصبونهما لحرب تهب ولا تخمد إلا بخمود اللهيب الضاج في أعماقهم كزوبعة غبار حطت أحمالها على الأرض ..!

أزهقت في الحرب أرواح ، واختفت نساء ورجال وأغنـــام وأقوات وأشياء كثيرة ..وهذا يعـــني أن الحـــرب ستســـتمر ، والثارات ستتجدد لأن كلاً منهم بوجه الآخر صباح مســـاء.. فأين المفر ؟ لا مفر إلا أن تجلو إحدى القريتين ، لكن أحداً مـــا لن يرضى بالهروب ، فالضراوة الحيوانية التي يشرّسها الحقـــد والكره ستجعل كل طرف يتشبث بالأرض ، و لا يـــتزحزح

حتى لو نزلت فوقه الصواعق والأعاصير ..التدمير هو هدفهم ، لن يهرب أحد ، لن تجلو قرية بكاملها، لا بد من النصر أو الموت ، سيمحق كل واحد منهما الآخر ..سيذهبون إلى الموت بحثاً عن الحياة ، فالقرى التي تهرب دائماً ، لا تهرب من أمثالها..!

حاول الرجال الكبار الحكماء الذين علمتهم تجارب الحياة أن يهدئوا الشباب ، ويخربوا همهم المنحازة إلى العنف لإثبات ذواقم ، لكن صرخة الحرب ظلت هي السائدة ..

ـــ : من يخاف على حلاله فليجنّب عنا ..!

ـــ : لن نختل في بيوتنا كالنساء ..

ـــ : لن ندفن رؤوسنا في الرمال كالنعام .

ـــ : إما نحن أو هم ؟

استدعى الشيخ حمد السيد إبراهيم ، و لم يكن هذا يهدأ أو ينام فالأحداث هزّته كما تهز الريح شجرة لم تستغلظ ، وتلاحقها لم يعد يمنحه الوقت كي يفكر في الحل الأمثل ..لقد وقعت الفأس في الرأس ، والتدبير أصبح متخلفاً كلوم الغريق على النزول إلى النهر ..! كاد الشيخ أن يهرب ، أليس هو

سبب البلاء ؟ وسيدرك النـــاس ، الذيـــن تعلكـــهم الحـــرب كالرحى، هذا عاجلاً لا آجلاً..!

كان تدبيره محكماً فالشيخان في صراعهما المتدثر بتـــاريخ طويل من المشاجرات والمنافرات ، وقد أعماهما الحقد ، أوشكا أن يحطما القرية ، فجاء الشيخ إبراهيم مبعوث رحمـــة عندمـــا عجز الشيخ شمس الدين عن رأب الصدع المتوسع بينهما لينتزع القرية من أفواه الضغائن كما تنـــتزع الفريســـة مـــن أفـــواه الضواري، ولن يكون هذا إلا بمعجزة سيصنعها وحده كمـــا صنع المخاصمة من قبل ، وعلى بركة المعجز ة الحارة كبيضـــة نصلت للتو من مؤخرة دجاجة سيقيم عرش مملكته غير المنظور؛ ويركب على شمس الدين مدندلا رجليه عليها .

ما دبره كان حازما وبسيطا وفعالا فقد باعد بين الشيخين حاشرا نفسه كالدخيل في الدرب الضيـــق الـــذي لا يتســـع لثلاثتهم،ليسقطجوا جميعا ويبقى وحـــده ! إلا أن الشـــيخين اللذين أراد الإطاحة بهما أصبحا ، وهما الميتـــان ، صـــاحبي الأقدار ...! إنهما الأسلاف الذين تُطلب شفاعتهما ورحمتـهما ووساطتهما ،وهو وأمثاله يعيشون على فضلاتهم ، على نخوتهم، بهم يهتدون ،ومنهم يطلبون العون ..إإنه يستحق ذلك فـــهو

الذي نفض غبار سيدياهما ، وحملهما من مرقدهما ..لقد أيقظ الأشباح ، وربما لن يكون بعد الآن سوى ظل باهت لها ! أحقا خسر معركته قبل أن تبدأ ؟ أأضاع المملكة من يديه كما يضيع الأحمق في ظل تدبيره ..؟

ما دبره لايخطر إلا على بال شيخ ملهم أو شيطان رجيم لكنه لم يحسب حساب من لا يدخلون في العير ولا في النفير، فالسر الذي تسرب إلى الصبية والنساء أثار حربا ضروسا كتّل كل قرية خلف شيخها .. لقد دمر الصبية والنساء خطته المحكمة ، وتشظت المملكة ، وعليه الآن أن يجمع الشظايا ويطفئ نار الحرب ..!

ولأنه كلما زاد الطمع زادت الخيبة فقد بكى إبراهيم في داخله نصرا تحول إلى هزيمة !

عندما استدعاه الشيخ حمد ، كان يلوح كالذبيح لكنه تجلد ليوحي للشيخ بالقوة التي تفر منه كفرار الملكوع ..

واجهه الشيخ حمد بعصبية ظاهرة ، ولولا بقية خوف من رجال الله لأمسك به من عنقه،كبح غضبه ، وقال : أين اختفيت ؟ كأنما الأرض انشقت وابتلعتك ..؟!

ـ : إنني قريب .. أسمع وأرى ..!

ـــ : بل أنت لم تسمع و لم تر ..وإلا لكنت تصرفت ..!

ـــ : ما يحدث مكتوب في اللوح المحفوظ يا شيخ ..؟

ـــ : أنتفرج إذن ..؟

ـــ : بل ننتظر أن يأخذ الله حقه ..؟

ـــ : قل هو حق الشيطان ، لا حق الله . ! ثم لا تحدثني عــــن حقوق أحد ..فأنت من أشعل الحرب ، وترك القريـــة تلتـــخ كالنعجة الثولاء ، بل بفضلك لم يُترَك ستر مغطّـــى في شمـــس الدين .

ـــ : تسرب السر إلى الجهلة والسفهاء ، و لم يبق مكتومـــاً في صدور الرجال ..!

ـــ : أنا لا أفهم هذا الكلام ..أنت من أوجد هـــذه المشـــكلة وأنت من يحلها ..

ـــ : لا مشكلة تستعصي على الحل ..

ـــ : فماذا تنتظر ..؟

ـــ : أنتظر أن تأمرني العناية الإلهية ..!

ـــ : إن لم تأمرك في الحال ، سآمر بدفنك حياً ..! فما بعد هذا الخراب خراب ..

أطرق الشيخ إبراهيم هنيهة ، وساد صمت قلق ، وفكر بـأن ما يزعجه هوأن إطفاء نارالحرب ستنسب إلى الشيوخ الميتـين الذين سيظلون أصحاب السلطان وهو مجرد وسيط ، فـهي إن أدبرت لا ينفع فيها تدبير ولا تردها حكمة ..

ثم رفع الشيخ إبراهيم رأسه وقال بثقة : اطمئن يا شـيخ .. لا تفقد حلمك ، واعتبر المشكلة منتهية ..!

خرج الشيخ إبراهيم ،تقدم فوق ماء النهر،دخـل الحويجـة فغاب عن أنظار الفانين ، ثم سمع أهالي القريتين من الحويجـة دمدمة وصراخاً ، وجدالاً ، ثم لم تلبث الأصوات أن هـدأت ، وارتفع صوت فوق سماء الحويجة يقول : (فإن جنحوا للسـلم فاجنح لها ، وتوكل على الله) .

دهش أهالي الشجرة وهم يرون الشيخ إبراهيم أمامهم يعصر ذيل ثوبه مما لحقه من بلل بماء النهر فبادرهم قائلاً : يا أهـالي الشجرة ، لقد جئتكم من عند المصطفى ، حبيب الله ، يأمركم بالسلم ، ووضع أسلحة الحرب ، فقد جمع الشـيخين سـن وعرودة ، ووبخهما ، ولامهما ، فحلفا له أنهما لم يفعلا شـيئاً يثير الكره في النفوس ..!وأنهما سينزلان الأمن والسلم في قلوب مريديهم وتابعيهم ..! وقد أرسلاه إلى القريتين ليصطلحا ..!

قالوا : وما علامة ذلك ..؟

قال : ستنزل أمطار ما رأيتموها طوال حياتكم بعد أن نصلـــي صلاة الاستسقاء ..!

قالوا : فإن لم تمطر السماء ..و لم تأت العلامة ؟!

قال : عندها افعلوا ما تشاؤون ..!

قالوا : وماذا يقول أهل شمس الدين ..؟

قال : أنا عنهم ..

قالوا : قبلنا إن قبلوا ..!

جمع الشيوخ وجوه القريتين ، وتنازلت كل قرية عن مطالبها بالمفقودين والمقتولين ، وبالأشياء المنهوبة ..واختلفـــوا علـــى الصلاة عند أي قبر ستكون ..!

فقال لهم الشـــيخ إبراهيـــم :سنستســـقي بالشـــيخ شمـــس الدين..!وتلك هي رغبة النبي صلـــوات الله عليـــه ، ورغبـــة الشيخين الجليلين ..

ذهبت الرسل من شمس الدين لتجمع قرى الجزيرة ، ومـــن الشجرة لتجمع قرى الشامية ، وفي اليـــوم الموعـــود،جـــاءت الجموع من القرى ،رجالاً ونساء وأطفالاً ،وتوجه الجمـــع إلى مزار الشيخ شمس الدين،يقودهم الشيخ إبراهيم ، فكبّر وكـــبروا

خلفه ، ورفع يدين ضارعتين قائلاً : اللهم أنبت الـزرع ، وأدر لنا الضرع ، واسقنا من بركات السماء ، وأنبت لنا من بركات الأرض ، اللهم اكشف عنا من البلاء ما لايكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفاراً ، فأرسل السماء علينا مـدراراً ، اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب !

وردد الناس خلفه ، ثم انفضت الجموع ، وقد سيطر عليـها أمن قادم لا شك فيه ..امع هذا ظلـوا يرفعـون رؤوسـهم منتظرين العلامة ، والقلق مهر شمـوس يضـرب بحوافـره في قلوبهم..يومان فقط ، وانهمر المطر كالشلال .

أيام لا تنسى..!

ضربة في السر

فيما الحرب قائمة على قدم وساق ، والشيخ إبراهيم يتلــوى على الأرض كأفعى جريحة يبحث عن حـــل للحــرب الــتي أطلقت من عقالها ، فاندفعت كثيران هائجة أشعلت في أذيالهــا النيران ، ماتت خود العبد الله ، سقطت عند المســـاء ترفــس برجليها كدجاجة ذبيحة !

ولأن لا أحد يموت حتف أنفه في شمس الدين قيل إنها مــلئت بضربة في السر من الشيخ إبراهيم .

قبل الغروب فلّلت خود شعرها الطويل بهدوء مبـــالغ فيــه لتكيد ضرتها ، وتحت نظر وضحة المرار التي كانت تروح وتجئ أمامها كمكوك الحايك ، غسلت شـــعرها الفــاحم الســواد كشلالات من حرير ، وتركته ينزل حتى محزمها ، وبخار المــاء يتصاعد منه ، فعلت ذلك وهي تعرف أنها في أمــــان ، فلــن تهاجمها وضحة ما دام مطر في الربعة .

قالت لها ضرتها الصلعاء : هذه آخر مرة ستغسلينه فيـــها ..! لن تحتاجي لذلك بعد الآن ، فالشيخ إبراهيم ســــيقود مطــر كطفل تائه إلى حضني ..!

ـــ : أنت تحلمين يا وضحة ..!

ـــ : لقد وعدني الشيخ ..ستتمثلين له في صورة حشـــرة ، في صورة خنفساء أو ضفدعة ، أو جنية ، ســيرى عزرائيـل ولا يراك، وستصبح رائحة شعرك نتنة كرائحة ضربان ، وسـيهجّ منك كالمطلوب بثأر ليرتمي في حضني ..!

ـــ : لعنة الله عليك وعلى شيخك اللعين الهدوفـة الـذي لا تعرف قرعة أبيه من أين ..!

و لم تتم خود كلامها ، فقد سقطت ترفس برجليها كدجاجة ذبيحة !

قال بعضهم : لا علاقة للشيخ بما حدث !إن الجن الذيـن رشقت عليهم الماء في المساء هم الذين لخوها ، فقد ارتجفـت خود قبل أن تسقط ، ارتجفت كأنما تتنازعها أيـد خفيـة ، ثم سقطت على الأرض ترعص ، والزبد يتطاير من فمها ..!

وقال غيرهم :سيحصدهم الموت جميعاً ، فهذا أول انتقام للشيخ عرودة منهم ! وسيدؤون بالسقوط واحداً إثر الآخر كسـرب من الطيور المتتابعة ..!

لكن آخرين احتموا بالشيخ سن ،وقالوا : إنه سـيقف لـه بالمرصاد، وسيمنعه من افتراسهم كقطيع داشر ..!

واستنجد بعضهم بشيخ الشيوخ شمس الـــــدين ليشـــكم الشيخ عرودة الذي يتمرجل على عباد الله ..!

وتساءل بعض آخر بشك حصيف : لماذا بدأ الشيخ عـــروة بخود العبدالله الرقيقة كنسمة الغربي في صيف قائظ وهي التي لم تؤذ أحداً ، و لم تشارك في حرب ؟! وضعّف أكثرهم فكـــــرة الانتقام، ودعموا ذلك بحجج قوية ، وعلى الرغم من نفيهم هذا الرأي فقد ظلوا يتوجسون خيفة فلاأحد يعـــرف الاتجاهـــات المتناقضة كوكر الحصيني التي تأخذها الحرب بين الشيوخ ..!

غسلت شمس الدين خود العبدالله في غمرة انشغالها بالحرب ، وحملت جنازتها إلى (تل الجويف)، وبعد أن صلى عليها الشـيخ إبراهيم صلاة الجنازة ، أنزلوها في القبر ، ولقّنها الشـــيخ ، ثم أهالوا التراب فوقها .

والندابات وحدهن أعدن القول : بأنها ماتت مقتولـــة ، وإن كان لها " جان " سيأخذ بثأرها ممن قتلها ..!

لم يأخذ أحد كلام الندابات على محمل الجد ، فإرادة الشـيخ من إرادة الله، وهو الذي إن قتل في السر لا يُطلب بثأر !

ولو كانت أيام شمس الدين فارغة كعدل الطحين في أواخـــر الشتاء ، لتوالد الكلام ، وفرّخ ، لكن أيام شمس الدين كـــانت

مملوءة كبطن كلبة صارف بالحرب البسوسية مع الشـــــجرة ، فانصرفت من بيت مطر العلي ، ولم يبق إلا هو وعائلته وعائلـة خود العبدالله ،فالنار ما تشعل إلا في موقدها ..!

وضحة المرار المستفيد الأكبر من موت خود كانت الأكـــثر حزناً..افهي لم تكن تريد قتلها، بل تلقينها درساً لاتنســـاه ، يمرّغ أنفها الشامخ في التراب ويجعل زوجها يشعر بها فيمنحـــها بعض وقته ، لتزهو بامتلاكه ، ولو قليلاً ، لتلطف ذلك الحقـد الضاري في قلبها على خود والدنيا كلها ..الكن خود ماتت..! عدوها ، غريمتها ، موضع حقدها ، حبيبتها ، حياتها ..فكيـف ستكون الحياة دونها ..؟وعلى من تصب جام غضبـــها ؟ مـــن تناقر؟ من تصاول ؟ من تعارك ؟ وماذا ستفعل بنفسها ؟ مـلتت خود وهي القاتلة ، وتسرب مطر من يديها إلى الأبد .. ذاك ما تحسه من نظرته المتهمة الحاقدة .. لم يبق لها أمل في اســتعادته ، في الصراع عليه ، فالقلب الشاك إن لم يمتلئ بالحقد القـاتل ، لا بد أن يمتلئ بالبرّودة المهينة ..!

نفق الحقد

كانت وضحة قرعاء صلعاء ، رأسها ملساء كبطن خـود ، كجلد أفعى ، وكان ذلك بداية نفق الحقد المعتم الرطب المنتن ، وهذا ما جعلها في حالة حرب وتوتر دائمين ، مما وسم الزمـن والصويحبات بذلك ، فلذاتها لا يشرن إلى رأسها أو يذكرنـه ، أو يذكرن الصلع أمامها ، فإن أخطأت واحـدة ، وذكـرت ذلك، عامدة أ و غير عامدة ، تحولت وضحة إلى لبوة ، تهـاجم بضراوة ، ووقود المعارك شعر غريماتها ، حيث تمسك الواحـدة من جدائلها ، أو كفشها وتحلته حلتاً ، وتظل هي بمنأى عـن العقاب لأنه لا شعر لها ..وعلى الرغم من أنها هـي المنتصـرة دائماً إلا أنها تعرف أنه لن يهدأ لها بال إلا إذا نبت لهـا شـعر كشعرهن ، أو أصبحت نساء شمس الدين كلهن صلعـاوات مثلها ..!وإذا فاتها أن تحلت شعر غريمتها ارتجفت من شـدة الانفعال ، وغابت في زوبعة بكاء ..!

مع هذا لم يدلّ اليأس رجليه في ماء قلبها ، فعندما تجدل شعر أخواتها تتمناه لنفسها ، وتتباهى به أمام صويحباتهـا ، وتحلـم أحلاماً تتكرر وتتداخل باستمرار ، طائر سماوي أخضر يـأتي

كنقطة من أفق بعيد ، يتوضح كلما اقترب منها ، يحمل شـعراً حريرياً أملس ناعماً كأنما دهن بلحم أفعى ، يضعه كالتاج فوق رأسها ، وهو يحوّم فوقها ، فينزلق الشعر مجللاً كتفيها ، ونازلاً إلى ما تحت الركبـة ،كاسـياً جسـدها كلـه كأغصـان شجرةوارفة..وتضحك وضحة ..تضحك حتى الجنون ..ويبتعد الطائر الأخضر ليختفي في الأفق كما جاء ، ووضحة تلوح لـه بشعرها ، وكأنه طرف صايتها أوزبونها اثم ما تلبث أن تدخـل إلى قصرها الفاره ، وهي الأميرة التي تسكن وحدهـا ، ويمـر تحت قصرها فارس فتعجبه ويعجبها ، وحين لا يجد سـبيلاً إلى الصعود إليها ، تنزل له إحدى جديلتيها التي تتحول إلى حبـل غليظ ، يطول ويطول حتى يصل إلى الأرض ، فيتخذه الفـارس سلماً للصعود إليها ..!

ثم تجد نفسها منكبة على بئر فيها رجل يستنجد ، لا تعـرف كيف سقط في البئر ، وتحار وهي الوحيدة ، كيف تنقذه ، وفي حيرتها ، وهي منكبة على البئر ، تسقط جديلتها ، فيتعلق بهـا السّـقيط ..!

وعندما تتحسس في الصباح شعرها المنقذ تصطدم بصلعتـها الصلبة كبطن السلحفاة!

لم تحلم وضحة فقط إذ لم تترك غجرية و لا مغربية ولا داية إلا واستفتتها ، وجربت أنواع العنيات واللبخات ، والمصول والأبوال ، وذرق الطيور ، والرماد ، والمزارات والنذور..وكان آخرها ما أشارت إليه داية : فشقت جسم أفعى وبذرته بالشعير وغرسته في الأرض ، وعندما أسبل الشعير ، يبسته وفركته ، وحمصته ودقته ، ودافته بالسمن ، ودهنت به صلعتها ..ولكن دون جدوى ،فقد ظل ذلك كله عبثاً لا طائل وراءه .. بل لقد ألصقت برأسها جدائل جاهزة لنسوة قصصنها على فراق الأحبة ، لكن الجدائل كن كفروة أبي حصين المنشوبة بالعيدان ما تلبث أن تسقط ..امع هذا كان لا بد من الشعر فالمرأة لا تكون امرأة دون شعر ، لا يغازلها أحد دون شعر ، لا يزور أهلها أحد ، لا ينظر في عينيها أحد ، لا يعاكسها شاب في حقل ، عند النهر ، في درب ، كأنما هي غير موجودة ، إنها لا تقتحم العيون ، ولا تلوج في القلوب ، ولا تستقر في الصدور كعبرة من سفر الأفئدة .

ولأن الشعر لم يأت فقد امتد الحقد ليشمل حتى رب العباد الذي سواها على غير الصورة السوية ، فما ضره لو خلقها بشعر ؟ أينقص لو اكتملت ..؟

وعندما بدا أنه من المستحيل أن ينظر في خلقتها رجل ، جاء مطر العلي وخطبها ، لم يخترها لجمالها ، ولا لجاه ، أو مــال ، بل اختارها لتكون الوعاء الذي يحتضن ماءه المصنّ ، والظــرف الذي يدلق فيه الزائد الذي تمدره خود دون أن تشوي له فيـــه أولاداً..!

إنه يريد منها أولاداً يسندون ظهره،يراعون كبرته،يغذي ذاك حلم قديم مفوت،عجز الأجداد أن ينالوه ، فحملوه من ظـــهر إلى ظهر ، وتناقلوه في مورثاتهم ، الخلود الذي نالته أفعى ..!

و لم ترفضه وضحة ، أرادته هي أيضاً رجلاً يــــهدئ النــار الشرســة المتلظيــة في ســراويلها ، ويطفــئ اللـــهيب في عروقها..اومع الوقت ستكسبه ، ستســتدرجه إلى جنتـــها ، ستفرش له جسدها بساطاً من سندس، حقلاً أبيض كـــالحليب برائحة كرائحة العشب الندي ، ولو حاول الخروج ســـيكون كالعشب المقلوع لا يلبث أن ييبس ، كالسمك الذي يغـــادر ماءه ..!

لكن مطراً العالق في جسد خود وسرها التي كالخـــاتم ، لم يعلق بجسد وضحة ، و لم تستدرجه كمائنـــها الســرية ، ولا أشراكها ، ولا حجبها ، ولا تعاويذها ، ولا خرزات المحبـــة ،

ولا فرج الضبعة ! لقد غص طريقـــــه بالأشـــياء والأســـلحة المهدورة، وتعثر بها في الظلمة الدامسة ، لتقود قلبـــه عبثـــاً إلى وضحة ! فقلبه ظل لخود دون أن تكلس الأشياء والحجـــب في طريقه ..! لم يهد الأولاد قلب مطر إلى فراش وضحـــــة ، ولا طردته صلابة بطن خود إلى حضنها ..افهل انتصرت خود دون حرب ؟ خاضت خود الحرب بسلاسة الأفعـــــى ونعومتـــها، وكسبتها نهائياً فشعرها الحريري المضمخ برائحـــــة المســـك ، وزهور البراري التي تنقعها خود ، وتغسله بنقيعها كان ســـحراً في عيني مطر ، فهو لا يرتاح إلا عندما يشدها منه ، أو عندمـــا يجدله لها في الليل ، أو حين يدس جسده تحته ، وهو يسبح على بطنها التي لا تثمر في الوقت الذي تتقلب فيه وضحة في فراشها وحيدة كالأفعى..!

وحولت خود حنانها كله من الأولاد الذين لم يكونـــوا ، إلى مطر نفسه ، فأصبح حبها قيداً له، لا يأتيها بحكـــــم العـــادة ، وحسب دورها ، بل يأتيها كل ليلة لأنها تمارس فجوراً مشروعاً يجعله يذوب ويتهاوى ويتخدر في حلم من أحلام الجنة الـــتي لا تنضب .. ولا حدود لها ..كل ليلة تطلعه على سر ، تصعد بـــه تلالاً نضرة ، وأودية ممرعةً ، تمنحه أنهاراً وغابات وأسراراً،تضع

بين يديه النجوم ، تضع بين يديه الأمس واليوم والغد فيضيع في متاهة الزمن اللانهائي ، ويرتوي فيه عطش غريزي بحكم أجداده من قبله ..إنما هي عشيقة لا زوجة ، وكأنما يمارسان معاً حراماً، وللحرام عاداته ولذاته التي تخرس اللسان ، ولا حدود فيه للشهوة الفاجرة ، والفجور المشتهى ..!

والبطن العاقر التي كانت نقطة ضعفها ، أصبحت سر قوتها ، فالبطن بيضاء كاللجة ، صلبة وحريرية وناعمة كملمس أفعى ، ينزلق سفحها الرشيق إلى غابة سوداء كالليل ..!

كان سلاح خود الذي انتصرت به هو جسدها ، وهو ملك يدها لا تبحث عنه كما تفعل وضحة عند الغجريات والمغربيات والعجائز اللواتي يهدينها إلى طرق استخدمتها حواء منذ كانت ، وكلما نامت وضحة على حمل تين تحول إلى شوك، فيتغذى نفق الحقد المعتم ، وتتوسع دهاليزه ، وتندب وضحة نفسها ، وتكشف مستور قلبها :

قلبي يصلّ صليل الحيّة
مكسورة مني ابنيّة

عندما هددت وضحة ضرتها بالشيخ إبراهيم كانت تخفي سلاحاً أشد فتكاً ، سلاحاً سيجعل خود صلعاء مثلها ، أخذته

من غجرية وترددت في استعماله ، لكنها ما دامت قد خسـرت الحرب ، ولن ينبت لها شعر فلتتساويا هي وغريمتـها ، فعلـى الرغم من أنها حلتت شعرها غير مرة ، إلا أن الشعيرات المعلقـة بأصابعها لم تنل شيئاً من جزة الصوف التي على رأس ضرتهـا ، وكأنما شعرها يزيد ويتوالد كألسنة ساحرة ، وفي كل مرة كان العقاب جسيماً فمطر ما كان يتوانى عن ضربها كلما لمسـت شعر ضرتها ، ضرباً يترك جسمها كالنيلة الزرقاء !

هذه المرة ستدس لضرتها السم الذي يسقط شـعرها مـن أصوله، وليميز عندها مطر بين رأسها ومؤخرتها ، لـن ينالهـا العقاب فلن يعرف أحد شيئاً ..! وفي الماء الذي سخنته خـود وضعت السم حين غلت الماء ، وبدلاً من أن يهلس شـعرها سقطت خود ترعص كدجاجة ذبيحة ، وظلت عيـون مطـر العلي أبلغ من سهام قاتلة ..!

وضحة تدخل الجنة

لم تغالط وضحة نفسها منذ البداية ، فلم يكن مطر هو الذي جاءها في ظلمة الليل الحالكة السواد كقلب لا تركـض فيـه

خيول الحنا ن،فعينا مطر متروستان بالحقد، والحقد لا يمكـــن غسله كالجيفة ، لذلك فإنه لا يستطيع أن يأتيها حتى من أجـل أن يدفن فيها ماءه الذي يثمره في إ نجاب نسل يستمر فيه ..!

عندما يستعمر الحقد القلوب يصبـح الحـب مسـتحيلاً ، والجنس كإتيان المحارم لا يؤثر إلا الندامة ..!

ما دام مطر لم يأت ، فهل جاءها بسم الله الرحمن الرحيم ..؟ لاتستطيع أن تجزم ، فالظلمة كانت دامسة ، نورها ما تحسـه الأنامل ، وما تشمه الأنوف ، وما تلتقطه الآذان ..و لم تكـن حواسها مستيقظة فالأرق المعذب منذ ماتت خود كان يعلكها، ويطوّحها في متاهات التعـب الموحشـة كمفـارق دروب الخرافات، ودهاليزها ذات الألف اتجاه ، وعتمة قلبها الموحش ، لا تتيح لها جعل الندم غير المثمر يسـتعيد مـا فرطـت فيـه يداها..آنذاك يأتيها النعاس فيهوم الرأس مبشراً بقـدوم النـوم سلطان السلاطين ، ويرفرف سلامه البارد اللذيذ علـى كـل الجسم ، في تلك اللحظة الغائبة المختلطة ، أحست وضحة ، بل هجست أن جسداً ما يلتصق بها ، له رائحة الأرض المغسـولة بالمطر ..! ويدان تمران فوق جسدها ، تتلمسانها ، ثم تحتضنـان النهدين بحنو ونعومة .. لم تفـزع ، لم تندهـش ، لم تنبـهت

وتضيع، بل تنبهت طاردة النعاس من عينيـــها ، واســتدارت لتتأكد مما أحست ، فسمعت ما يشبه رفرفة أجنحـــة تبتعــد وتحمل معها الرائحة المميزة التي شمتها ..!

أكانت تحلم ..؟ والرائحـــة ؟ ودفء الفــراش ؟ واليــدان الحانيتان ؟ ونهداها النافران ؟ وحلمتاها المشـــرئبتان كحبـــتي حمص..؟ أكل ذلك هيأ لها ..؟ أهي رغباتها تزين لها ما تريد..؟

وانتظرت أن تعود اليدان الحانيتان والرائحة المميزة ..إلا أنهـا غفت في انتظارهما عبثاً ..!

وتحولت نهاراتها إلى انتظار طويل لليل الحالك السواد ، عــلّ ظلمته تضيؤها لمسة حنان من يد غريبة تأتي دون علمـــها .. ودون استئذانها ..وبالفعل آن يبدأ ســـلطان النــوم يرفــرف بأجنحته العذبة ،وتصبح قطرات المطر كأنما تهطل في قلبـــها ، تأتي الرائحة والجسد الخشن واليد الحنون فتستســلم للعذوبــة الطاغية ..وتنقلب بوجهها إليه ليغوص وجهـــها في الجســد المشعر..!

تكرر ذلك مرات ..واستسلمت وضحة دون ســؤال، دون كلمة ، فغرقت في الحب المبرأ من حاجات النسل ، وضرورات

الضغط والواجب ،وحين جاءها الصوت كان عذبا ودافئـــاً :

لقد خلقت لي ..!

ــ : لم لم تأت من قبل ؟

ــ : بحثت طويلاً قبل أن أعثر عليك ..!

ــ : كيف تعرف أنني أنا ..؟

ــ : كما عرفتني أنت عرفتك ..! كل عضو في تعرف علـــى كل عضو فيك ..!

ــ : أأنتم مثلنا..؟

ــ : مثلكم تماماً نحب ونكره ..! وما لم يجد الواحد المكتــوب له في اللوح المحفوظ ، يشقى ، يعيش ولا يعيش ..!

ــ : ستبقى ..؟

ــ : من يجد روحه يتخلى عنـــــها ..؟ لا أســتطيع العيــش دونك..!

أخيراً حل السلام على روح وضحة ، لم تجـــده في الشـــعر الحريري الذي لم يأت ، بل بالمخلوق الذي أحبـــها لذاتهـــا ، بالرغم من أن صلعتها ما زالت تلصف كما هي من قبــل ، و لم تعد صلعتها سبب مرارتها ، بل لم تعد ثمـــــة مـــرارة تنغـــص عيشها..!

وتتعجب وضحة ، وهي تغوص في نبع الحنان ، كيـــف لم تسمع بجني خاوى أنثى أنسية..؟ وتسأل الحبيب الذي تلمســه ولا تراه ، فيقول لها : أما يكفي أنا وأنت ..!

فتفكر أن ما حدث لها ، لا بد قد حدث لكثيرات غيرهــا ولكن هذا الجانب يظل سرا لايباح به .. يطوى في الصدور ..! فكم مرة سمعت عن عذراوات حملن ، ودفعن حيــاتهن ممــن حملهن ..و لم يعرف صاحبهن ..!

كثيرة هي أسرار الحياة التي يموت الإنسان دون أن يعرفـها ، لا يعرفها إن لم يخبرها بذاته ..!

ظل ثمة ما يقلقها ، ترصدت الشيخ إبراهيم حتى خلت بــه ، فسألته متعجلة كي لا تتراجع : هل يتزوج الجني إنسية ؟

فوجئ الشيخ بالسؤال ، وحدق في المرأة مليا فغضت طرفـها حياء ، وأحست أن التراجع أصبح مستحيلا ..!

طوى الشيخ السر الذي سعى إليه مختارا في صدره وقال لهــا : إن كان جنيـا مؤمنا ..!

ـــ : فمن يميز بينهما ؟

ـــ : لا يأتي المؤمنة إلا مؤمن .

وتلجلجت بسؤال آخر وشحبت كالأموات وهـــي تــرى عينين فاجرتين تقتحمانها فعرفت أنها أصبحت مكشوفة وعارية أمامه ، وتساءلت في نفسها : أله إصبع فيما حدث لها ؟

وقبل أن تذهب بها الظنون بعيداً ربّت على يدها مطمئنــاً : في القلب أسرار كثيرة لاتغضب الله ..!

عندما عاد مطر إليها لم تبال بــه ..بــل كرهــت إقبالــه عليها..و لم ترتح إلا حينما تزوج للمرة الثالثة فامتنعت عليــه ، ورفضت العــهر المقــدس باســم الــزواج الــذي يمارســه معها..وتفرغت لحبها الذي ملأ حياتها..وجعــل لهــا طعمــاً ومعنى..!

وتنتظر وضحة دائماً ، أن يأتي الليل الحالك السواد كحبــة البركة ، تنتظره بفرح ، ليأتي الجسد الخشن، والقلب الحنــون ليملأ قلبها بجنون الفرح ، وجنــون العشــق ، فيتلابســان ، يتداخلان ويرحلان معاً إلى جنة الأجداد ، فالجنة هي أن تجــد المكتوب لك ، والحب الحنون هو العبادة ، والعبــادة ســلام الروح وطمأنينتها ، تظل وضحة ، في لياليها الطويلــة تلــج الجنة..هذا مغتسل بارد ، وهذا شراب طهور ..!

أيام كالنار ..أيام كالرماد..!

نداء حار كالجسد

عاد ذياب السعالوا في اليوم العاشر من الأمطار ! عاد بعد أن غاب خمس سنوات في البراري في صحبة جنيته ، كـــانت زوجه هدلة المشكو قد يئست من عودته إلا أنها آمنت بالشـيخ إبراهيم و بقدرته على رد الغياب منذ نزل إليها من الســـماء ، بالرغم من رائحته العطنة ، لكن الشيخ إبراهيم الذي غـــرق في حرب شمس الدين و الشجرة ، كان قد نسي المرأة التي أعطتــه مفاتيح شمس الدين ، و قادها إليه ، والتي جاء إلى شمس الديـــن تلبية لندائها الحار !

اعترضته المرأة ذات يوم وهو يسير تحت المطر غارقـــاً في صمته القدسي ، وقالت : لقد نسيتني يا شيخي ..!

تطلع إليها الشيخ وكأنما هي شبح ، أو حلم من أحلامـــه ، ثم هلل وجهه ، وقد تذكرها : كيف ينساكِ من جـــاء مـــن أجلك..!

ـ : ولكن زوجي لم يعد يا شيخ ..!

ـ: قلت لك سأعيده إليك كالكلب الذليل ..!

ـ: ومتى ؟

ـ: لقد آن الأوان .. انتظريني الليلة لتحدثيني عنه ..!

ابتعد الشيخ إبراهيم ، لكنه كان قد ملأ عينيه بها ، وحملـها فيهما ندية من أثر حبات المطر التي تتقاطر على وجهها السمح المثقل بالانتظار الذي لا نهاية له . وفكر : إنها ثمرة ناضجة ،لقد استوت على نار البعاد ، ولن تمانع في أن تتوسـد أي صـدر حنون تجده أمامها ..! وما دام قد خسر معركة السيطرة علـى شمس الدين فليربح قلباً يمنحه المسرة .

انتظرت هدلة أن يأتي الشيخ أول الليل ، تركت نـار موقدها مشتعلة لتميز القادم عند قدومه ، وعندما نام أولادها ، وبدأ الليل يوغل في دربه المظلم يئست من مجيئه فأطفأت النار ، وأوت إلى فراشها البارد، واعتذرت عن الشيخ فلا بد أنه شغل بأمرما ، بل ربما هو يطارد الآن زوجها وجنيتـه ، ويبحـث عنهما ..! وطاردت هي نفسها أحلاماً مستحيلة ، وعندما بـدأ النعاس اللذيذ يداعب الأجفان القلقة أحست بحركة قادم يتسلل إلى خيمتها ، أيكون حيواناً ؟ كلباً ؟ دابـة ؟إلا أن الرائحـة العطنة كالارض الآسنة لفحتها .. فأدركت أنه هو القادم وللتو عبرت فكرة خاطفة في ذهنها ، إنه يجئ في الوقت الذي يجئ فيه العاشق لا الشيخ ، وأكد تخمينها صياح ديك الحردانة ..!

قالت : من..؟!

قال بصوت خشن وهامس :أنا .. اوصياح ديـــك الحردانــة علامة خير !

قالت : ما كان يجب أن تأتي الآن..!

قال: لكنك انتظرتني طويلاً ..!

وفكر في نفسه :إن انتظارها الطويل الذي طبخها علـــى نـــار القلق لم يترك فيها قوة على دفعه ، أو إخراجه من الخيمة ، حتى لو شاءت أن تفعل ، ستتمسك به الآن ، ولو أبدت خـــلاف ذلك ..!

ـ : ظننت أنك ستأتي في المساء ..!

ـ :الآن هو الوقت الأنسب ،فسر زوجك الذي ستحدثيني عنه يحتاج إلى الهدوء ..وإعادته تحتاج إلى الهدوء و الخلوة أيضاً ..!

اقترب منها ، كان الظلام شاملاً ، لم تفكر أن تشعل النار ، لكنها خرجت من فراشها لاستقباله ، واصطدمت يداهمـــا في الظلمة ،كانت يدها حارة ، ويده باردة ، ولفحـــت حـــرارة جسمها وجهه المبلل بقطرات مطر ، سحبت يدها من يـــده ، وجلسا حيث التقيا ..!

قال لها : حدثيني غن زوجك .. وكيف ذهـــب .. لا بـــد أن أعرف كل شيء .

ديابه يلحق الجنية

هدلة الذكية التي تحس بدبيب النملة علـــىالأرض ، وتقـــرأ نظرات العيون ولو تخفّت ، وتعرف ما تحت الأرض ، كمـــــا تقول ،أحست أن زوجها ينأى عنها ويبتعد . كانت خلواتـــه تطول ، وخروجه ليلاً ، يكثر دون سبب ، حتى وهي إلى جانبه كانت تحس أنه ليس معها ، فهو يتسربل بصمت مظلم ودامس كالصقيع ، ويدخل أنفاقاً من الظلمة وأودية من البعد ، حـــتى أنها كانت ، أحياناً، تمرر يدها أمام عينيه لتتأكد ما إذا كـــــان نائماً أو ميتاً وهو مفتح العينين ..!

إنه يتلاشى في غياباته ويذوب، تلكزه تتحرش به ، تســـمعه طرفة ترشح بالشبق ،ترميه بكلمة فاجرة لعله يحس بها مع أنـــه هو الذي كان دائم التحرش بها ، إذ لم تذكر من قبل أنها هـــي التي جاءته ، كان هو الذي يأتي دائماً فتغيّب شوقها الكـــامن الذي لاتفصح عنه أبداً تحت مكر موروث من جدتها حـــواء ،

إلا أن شوقه العارم كان يجرف سد التمنع الواهـــي كحجــة الذئب الذي نوى أكل العنز التي تثير الغبار وهي في السفينة .

ما باله لايحس بها هذه الأيام، لا يدرك وجودها وهي الـــتي حين تعطي لاتتوقف عند حد ، فما أن تزول قشرة الحياء الـــتي يحطمها إلحاحه ، حتى تتحول هدلة إلى امرأة من نار ، تدلـــل ذكره ، ترطّل خصيانه ، وتتفوه بفجور ما كانت تظن أنه يمكن أن يخطر لها على بال ..! لذلك يظل شوقه ملتهباً دائماً، يطارد تلك اللذة التي يريدها أن تدوم أبداً لكنها تتفلت منه ، وكأنمـــا هي تحدث للمرة الأولى ..!

لماذا إذاً ينأى عنها زوجها الآن .. لا يدانيها .. لا يحس بهـــا .. لا يستطيبها ؟ حتى وإن عانقها فكأنما يعانق أخرى ، وإن غازلها فكأنما يغازل أخرى..

هدلة التي تسمع دبيب النملة كانت تريد أن تسمع ضجيـــج الأفكار في ذهنه، نبضات قلبه لمن تخفق ؟ تريد أن ترى المـــرأة التي سقطت في عينيه ، فحجبتها عنه ، والتي استحسنها دونها ، وهو الذي إذا استحسنت واحدة أمامه ، قال لها : أنت أحسن منها ..! وإن ذكرت الجميلات أمامه ، قال لها: أنت الأجمل..! وحتى إن اشتهى امرأة ، قال لها : لعلها شهية ..ولكنك أنـــت

الأشهى ..! أنت الأنثى ! أنت حواء ! كل النســـاء اجتمعـــن فيك..!

لم يكن يتصور أن امرأة أخرىتعمل لزوجها في الفراش مـــا تعمله هدلة له..! فكان يقول لها :لا يمكن أن تدلـــــل امـــرأة زوجها هذا الدلال ، ولا أن تعطيه هذا العطاء .. وحين تصـــل بك النشوة إلى حدودها القصوى ، تقولين لي : خذ ما تشــاء ، من أينما تشاء ..!

ما الذي حدث له إذن ..؟ أحست ، وهي التي تسمع دبيـب النملة ، أن شيئاً ما يحول بينها و بينه، تحتك بجسده فتحـس أن جسداً آخر خشناً يصطدم بها ، وتمتد يده لتداعبها فتحـــس أن يداً أخرى خشنة كشعر الماعز تتلمسها ،وأما انتصابه فهو رخو كلسان الكلب ، وحركته ، على غير العادة ،بليدةبليدة .. بـــل لقد استيقظت في إحدى الليالي على أنـــــات أنثـــى شـــبقة ، وأنصتت للصوت ، نادت :ذياب ..؟

لم يجبها أحد ، لكن التأوهات توقفت ، لامـــت نفســـها ، واعتقدت أنها كانت تحلم ، فاحتضنته وبحثت عن عصفـــوره ، كما تسميه إذ تدلـــله ،وعندما استقر في يدها حاراً نابضـــاً في ارتخاء ..نامت!

لكن ما ظنته حلماً تكرر ، فتأوهات المرأة التي تأتي في الظلام عادت تقض مضجعها ،وتقتحم خلوتها، ونارها المشتعلة بـــين فخديها لم يعد يطفئها ذياب ، فيدها تقع على عصفوره نائمـــاً وادعاً تعابثه ، تلاطفه إلاّ أنه يظل منكمشاً كجلد عجوز ، مـع أنه كان ينتظر حركتها من قبل ، وما أن تلامسه حتى يتفتـح في يدها كالوردة ..!

قررت أن تقتحمه ذات ليلة ، أقسمت أنها ستعتليه بنفسها ، وتركبه كما يركب الفارس فرسه ، وليكن ما يكون ، وليقـــل ما يقول ..! وعندما نفذت قرارها اصطدمت بجســـد خشـــن فارتدت مروعة ، وهي ترى فوق زوجها كفش الجنية واضحـاً كشجرة الحرمل ، أنشبت مخالبها في الكفش ، فانقلبت الأخرى عليها ، كان الظلام دامساً فلم تر وجهها ، لم تر عينيها ، لكن رائحتها كانت كرائحة المعزاة ، وكانت تمسكها من خوانيقها، وقالت لها : سأقتلك أخيراً ..! ولن أصبر عليك أكـــثر مـــن ذلك..! بل سأقتل أولادك أيضاً .. إنـــه لي وحـــدي ، ولـــن يشاركني فيه أحد بعد الآن ..!

كان ذياب هامداً هاجعاً ، كأنمـــا هـــو جثـــة يتصـــارعن لانتزاعها، وعندما ازداد ضغط الجنية على رقبة هدلة فـــأغمي

عليها، تحرك ذياب، وجرها من فوقها ، وقال لها : اتركيها هي وأولادها وسأكون لك ..!

انفكت الكلاّبات عن عنقها ، ولبثت طويلاً فاقدة الوعـــي ، وعندما قامت وكأنما من قبر ، تفقدت الأولاد فوجدتهـــــم في فراشهم ، وكادت تعتقد أنه كابوس لو لم يكن فراش ذيـــاب بارداً وخاوياً .. ويومها هبّت مذعورة ، وصاحت من قحـوف رأسها .. و لم يعد ذياب ..!

عودة الغائب

هدلة التي كانت تتحدث كانت شبه غائبـــة ، مذهولـــة ، وكأنها ما زالت تعيش في تلك الأحاديث البعيدة ولا تملـــك أن تغادرها ، تحدثت بصراحة كأنما الشيخ لم يكن حاضراً،أو كأنما هو ضاربة الفأل أو ساحرها الذي لا يجب أن تخجل منه ..

وكانا قد تمددا على الأرض وجهاً لوجه ، وصدره المشـــعر يفوح برائحة الطين التي لم تعد تنفّرها ، و لم تصده عن نفســـها حين غمرها بحضنه ، وقال لها : قلبي عليك ..كم تعذبت !

ونشجت باكية على الصدر الحنون الحار ، فقال لها : إذا كنت تريدينه أن يعود سأعيده إليك ..!

قالت : ليته يعود لأولاده ..!

قال : سأربط غريمتك ربطاً محكماً ، وسأقودها إليك صاغرة لتفعلي بها ما تشائين ..!

وقبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وتبدأ شمس الدين حركتها الصباحية ، انسل الشيخ إبراهيم وتوارى حتى أنها لم تشعر بذهابه ، فرائحته ظلت عالقة بأنفها .. ثم لم تلبث أن غفت مستسلمة للنعاس والأحلام الواعدة ..!

وفي الأيام التالية أصبح الشيخ يأتي في أواخر الليالي متستراً بظلمة السماء الماطرة ، وظلمة الخيمة ، تأتيها رائحته قبل ان يلج الخيمة ، ثم يتمدد إلى جانبها ، وقد عرف طريقه ، فتأوي إلى الصدر المشعر ، وتنصت إلى إيقاع قطرات المطر ، ونبضات قلب الشيخ الذي يعمل عمله وهو يضمها إلى صدره ، ويتمسح بها ، ويقول لها : إن لم يستشعر الخوف عليك.. إن لم تحركه الغيرة فلن يخرج من مخبئه حتى نعرف مكانه .. لقد خبأته في مكان لم تتوصل عيناي بعد إلى اختراق بعده

وظلمته،لأنه مرصود لكن لا بد أن يظهر ، وعندها ســـــأقوده إليك صاغراً هو وعاهرته الجنية ..!

وتغوص هدلة في الجسد المشعر الذي يــــهصرها هصـــراً ، جسد الشيخ الواصل الذي لا خوف منه ، الـــذي إن اقـــترف الخطيئة ، لايقترفها ، وأدركت حقاً أن لا خطر عليها منـــــه ، فالشيخ عارم الرغبة ، مشبوب العاطفة لكنه كالملائكـــــة : لا حمامة له ..!

وفي مساء اليوم العاشر من هطول الأمطار ، خرج ذيـــــاب السعالوا ، أخرجته غيرته ، وقادته إلى بيته صاغراً !

دخل ذياب شمس الدين متسللاً كلص ، كان رث الهيئـــة ، طويل اللحية والشوارب ، عيناه تحتفظان بكتلتي قذى جـلمد في طرفيهما ، وكأنه يعاني من رمد أو حساسية دائمـــة ، تجنـــب الخيام كلها ، وساعدته خيمة المطر التي لا يخرج تحتها أحد كي لا يتبلل على التسلل إلى خيمته دون أن يراه أحد ، وحين رأتـــه هدلة المشكو نفسها اعتقدت أنه" مسلمّي" أو " مغـــربي" ، أو عابر ســــبيل بـــائس ..! إلا أن وجهـــها تفتـــح كـــالوردة فجأة،وصرخـــت :ذيـــاب..؟!واحتضنتـــه باكيـــة ،نـــادت

الأولاد،فوقفوا مذهولين أمام الرجل الغريب قالت لهم : هـــذا أبوكم ..!

حملهم واحداً واحداً وقبلهم ، واستغربوا أن يكون لهـم أب ، إنهم يعرفون أن أباهم تركهم من أجل جنية ..!ففتش كبـيرهم ما بين ثيابه ، وأحس بخيبة الأمل حين لم يجد شيئاً ، قال لـــه : أين الجنية ..؟!

ضحك الأب و قال له : إنها عند أهلها..!

ـ : لماذا لم تأت بها ..؟

وقال الصغير : نريد أن نراها ...

قال لهم:إنها لا تظهر للصغار ..!

ـ : لماذا ..؟

ـ : لأن لاغرض لها عندهم...

ـ : عندما نكبر سنرى الجنية ..؟!

ـ : سترون جنيات كثيرات..!

ـ : كم أحب أن أرى جنية..!

قال لهم تعالوا لألاعبكم:وضع يده على يد ابنه الكبـير ، وراح يحرك أصابعه قائلاً :قارة قرميدة /رحلنا نزلنا بدار جديدة /عمي

شويخ لويخ /اليطعم بنته شحمة لحمة /ديد الكركي والكرنكي /أصوب يركي/يدكش دكش بالمدكاش ..

وحين وصل إلى نهاية الأهزوجة وصلت أصابعه إلى خاصرة الصبي ، فدغدغه فضحك الولد! ثم كرر ذلك مع ولديه الآخرين..

زغردت هدلة لتعلم شمس الدين بعودة رجل البيت ، جاءت شمس الدين تحت المطر ، وكل من يراه لأول وهلة يقول في نفسه : كأنما الرجل عائد من قبر ..! إلا أنه حين يستقبله يقول له : لم تتغير ..أنت كما أنت ..!

ويسألونه أسئلتهم المعتادة المكرورة كحياتهم :

ـ : أين ديارك ..؟

ـ : ما يغيب إلا يجيب ..!

ـ : من كثر الغيبات جاب الفوايد..!

الشيخ إبراهيم وحده لم يرحب بعودة ذياب في دخيلة نفسه، مع أن عودته اعتبرت من كراماته ،إذ قالت له زوجه : الشيخ إبراهيم أسر جنيتك لتطلق سراحك ..!

حدق ذياب ببلاهة في الشيخ إبراهيم ، كأنما لم يفهم ما تقول ، لكن الشيخ ، الذي يتستر عادة خلف أقوال الآخرين ، و لا

يتبجح أبداً بذكر كراماته ، بل يترك للآخرين أمر الحديث بها تواضعاً منه ، كان ميالاً للتبجح هذه المرة ، قال : بكلمة واحدة قيدتها ، وقلت لها لن تنقلي قدمك من مكانك هذا إلا إذا عاد ذياب إلى أهله..!

وتساءل أحدهم : وهل ستطلقها ياشيخ ..؟

وقال آخر : قد تعود إليه..!

قال الشيخ : لا خوف منها بعد الآن ، فقد أخذت عليها عهداً ألا تتعرض له !

وانسل النهار والليل في أسئلة تريد أن تكتشف غيبة ذياب ، وسببها ، وأين ذهب ؟ وكيف عاد ؟ لكن الأسئلة اصطدمت بتحفظ ذياب وصمته ، كان دائم الابتسام ، يرد غالباً بابتسامة تبدو بلهاء ، ولا تتناسب مع السؤال ، أو بابتسامة متسامحة ، وإن تحدث قال قليلاً ..! لم يرو عطشهم إلى الحديث ..! وحين تقدم الليل راحوا ينسلون ويتسربون من البيت ، حتى لم يبق أحد إلا ذياب وهدلة ، وقد نام الأطفال قالت له : لقد سخنت لك ماءً لتغتسل ..!

قال : اتركيها إلى الغد ..!

ـــ : لن ترتاح إن لم تغتسل .

ـ : إنني مهدود من التعب كحمار البيدر ، فقد جئت من مكان بعيد بعيد..

تمدد ذياب ، وتمددت هدلة مقابله ليضمها إلى صدره ، ليحدثها هي ، فما دام لم يتحدث أمام الآخرين ، سيحدثها هي بكل مامر معه ..لكن ذياب أعطاها قفاه ، فلفته في حضنها ، وبحثت بيدها عن عصفوره ، مترددة، لن تترك ليلتهم الأولى تمر دون أن يستعيدا تاريخ اللذة الحافل الذي حرمت منه منذ زمن طويل ، لكنه حمل يدها دون قسوة ، بل بهدوء ، وأبعدها عن فرجه ...وأدركت هدلة أن ذياباً الذي عاد ليس هو ذياب الذي ذهب ..وأن وردته لن تتفتح بين يديها أبداً..!

طار العصفور وبقي الجسد

قبل أن يغادر ذياب السعالوا أسرته للمرة الثانية بأيام كثيرة ، أدركت هدلة أنه سيغادرهم ، وما عودته ، مادامت قد حدثت، إلا صحوة عابرة لندم لم يكتمل ، لقد عاد بجسمه فقط ، أما روحه التي ربما تحولت إلى حمامة ، أو عصفورة ، أو حتى قملة تركها وديعة بين يدي جنيته ، تلهو بها وتعبث

متأكدة أن إهاب الرجل سيعود ليلبس الروح التي تملكها هـــي وحدها انظرته كانت غائبة كروحه ، فعيناه زجاجيتان كعيـون الكلاب الميتة ، كئيبتان لا تلونهما فرحة ، ولا تحركهما دهشة، والتصقت به رائحة الجنية كالصّنان ..وحتى حين كان ينـلم إلى جانب زوجته على فراش واحد يبدوان ككوكبين كل يغــوص في ظلمة وحدته ، تفصل بينهما بحارٌ وبرارٍ موحشة..ولا ينقلب إليها أبداً كأن سيفاً يفصل بينهما ..!

افتقدته هدلة ذات ليلة ، ظنت أنه ذهب ليقضي حاجـــة في الخلاء البهيم ، ولما طال غيابه ، تأكدت أن ما أدركته من قبـل قد وقع ..!

خرجت هدلة يتناهبها القلق ، وتلوي بها الريح ، فـــهي لا تملك أن تسلم بأمر لا تريده ، وإن كان يحدث بالرغم منـــها ، لا نجمة في السماء ، ولا نار على الأرض تضيئ الظلمة الشـاملة والصمت العميق كجوف بئر..ارأت ما يشبه الزول فركضــت خلفه ، قالت بهمس ممطوط دون أن تصرخ :ذياب ..؟!

لم يرد عليها أحد، وابتعد الزول دون وقع خطوات مسموعة كأنما هو شبح ..! لم تملك نفسها ، والـــزول يكـــاد يختفــي مسرعاً،فصرخت من بين دموعها بحرقة : ذياب ..ذياب ..؟!

وسمعت حفيف الريح وحده ، لم يكن قوياً مصفراً، بل كان حفيفاً أقرب إلى الهمس ، إلى خرير نهر دائم الجريان : ذياب ليس لك ..اغسلي يديك منه ..!

أهو ما حملته الريح إليها ، أم أنها هجست به في داخلها ..؟

غاب الزول تماماً، وأقعت في الخلاء وحيدة تعوي كالكلبة..!

ولما علمت شمس الدين في اليوم التالي بغياب ذياب ، تمسكت بحكايته كمنقذ من متاهات زمن لا معالم له ..

ـــ : عيناه ميتتان ..!

ـــ : كأنه عائد من قبر ..!

ـــ : عاد ليرى أولاده ..

ـــ : ربما حلف يميناً لجنيته أنه لن يمس زوجه ..!

ـــ : لا تعتبوا على من ليس أمره بيده ..!

ـــ : روحه بيد الجنية..!

- : فأين أرصاد شيخنا المتبجح ؟

ـــ : أعجبتها بضاعته ..ولن يتمكن كل شيوخ الأرض من انتزاعه منها ..!

ـــ : ليت ما يحدث لذياب يحدث لي ..!

ـــ : أتحسد الناس حتى على مصائبهم ..؟

ـــ : أهذه مصيبة ..؟ ليت جنية تختطفني ..!

في الليلة التالية تسلل الشيخ إبراهيم إلى فراش هدلة لتسكب دموعها الحارة على صدره قال لها : ابكي فالبكاء سيريحك .. أخرجي عبرتك ولا تكتميها ، حتى لا تقتلك ..!

قالت : لقد وعدتني ..!

ـــ : اسكني إلي .!

ـــ : أردتني لنفسك فأبعدته ..!

ـــ : أبعده قدره ..

ـــ : أنت السبب .. لقد أطلقت سراحها ..! أما وعدتني أن تقيدها ؟ ألم تقل إنك أخذت عليها عهداً ألا تتعرض له ..؟

ـــ : العلة في زوجك .. لقد ذهب بنفسه دون أن تناديه ..!

ـــ : كنت قادراً على منعه ..

ـــ : لقد سكنت في دمه .. ولن يستطيع أحد منعه من العودةإليها ..!

تقلب الشيخ إبراهيم في لياليه الأخيرة ، كمن ينام على جمر الغضا ، وتخبّط كالحيّة العمياء لايعرف إلى أين يتجه ، أيذهب أم يبقى ..؟ ما الذي يبقيه إذا كان حلم مملكته الصغيرة قد تبدد كالرماد ؟ ماذا يفعل إذا كان يحس أنه يدخل مرحلة القفول

كعمر بدأ عده العكسي ؟ أيستطيع أن يتجاهل الحظ المعـــاند والمعارك الخاسرة التي يأخذ بعضها برقاب بعض كأسراب الـوز المهاجر فيبدأ من جديد ؟ ولِمَ لا ؟ أيتخلى عن أحلام القـــوة والسيطرة لأنه خسر جولة ؟ إن معارك السيطرة كر وفر ، ومـا دامت دماؤك في قارورة جسدك يمكنك أن تبدأ مـــن جديـــد خارج شمس الدين أو حتى داخلها فالناس سيحتاجون إلى شـيخ ينفض تراب المزارات فيعري أحلامهم كما تتعرى الريح مـــن أثقالها .

وهو غارق في قلقه القدسي ، اعترضته هدلـــة لتذكـــره بنفسها ، ولأن لقلق الروح تبدلات جلد الحرباء فقد اكتفى بها عن السلطان والوفرة ، فالحب وحده يصلح أن يكون بديـــلاً حقيقياً عن الرغبات المستحيلة.!

وعندما ضاعت هدلة بعودة زوجها عاوده قلقه ، وخبــط في تيه أفكاره كحاطبْ ليل ناقضا في النهار ماأبرمه في الليـــل منتظرا أملا غامضا ينقذه من مخالب الحيرة ومقام الـتردد ؛ و لم يطل انتظاره فجلد الحرباء وجد لونه برحيل ذياب مع جنيته..! وعلى الرغم من أنه تلقى طعنة جديدة لأن الجنية لم تحترم العهد الذي قطعته له ، وأنهم سخروا من أرصاده الخائبـــة كتمتمـــة

خرساء ، إلا أن روحه عادت إليه ، إذ لم يعد مضطراً للمغادرة حالاً.. وحين دب في الظلمة إلى خيمة هدلة ، وفتح صـــدره رحباً لعتاها وآلامها كان يدرك أن العتاب سيغسل قلبها ، وأن صدره أصبح ملجأها الوحيد ، فقال لها ، وهي تدفن وجهها في صدره : كل الإناث يأكلن ذكورهن ، وليست النحلة وحدها التي تفعل ذلك .. فكليني ..!

أحس أنها ابتسمت ابتسامة رضا ، بالرغم من آلامها ، وأنهـا لن تبحث عن حمامته المفقودة ، فالجسد كله أصبح بديلاً عـــن الحمامة وحين يكون الحب شاملاً وعميقاً كالحنـــان يصبـــح الجسد كله حمامة ..!

دست هدلة رأسها في الصدر القوي المشعر فهاجمتها الرائحة الآسنة، تذكرت تلك الرائحة، وأدركت أنها تعرفها من زمن لا تذكره ، وأنها تحبها .. فغفت بوداعة علـــى هديـــل دافـــئ ، وملمس حنون ..!

أيام الغزالة والصياد

عابرا السبيل الأبديان

مر على شمس الدين عابراسبيل ،قبيل هذه الأحداث بنحـــو حمل ذئبة ، حطا فجأة دون مقدمات ، وكانا غامضين ومغلقين كسفط البخيل ، منفرين كوجه بومة ، سارا في القرية ملثمـــين كمن يشم رائحة كريهة ، تصفحا الوجوه بعجلة .. وحينمــــا سألهما الشيخ حمد : من أين جاءا ؟

قالا : من مشرق ..!

لم يزيدا عن ذلك ، تلفعا بصمتـــهما الحجـــري ، ومــــادام الضيف قد أخفى سره فعلى المضيف أن يعرف السر بذاتـه ، أو يخمن السبب الوجيه الذي دعاه إلى التخفي كأرنب مذعـور في أعرق قاعدة ذهبية للبادية: الصمت الحجري ..! إلا أن بعـــض الفضوليين الذين لا يسعفهم التخمين بطمأنينة أكيدة ، تشاطروا على الضيفين فلم يحصلوا على أكثر من همهمات غامضة زادت من لعب الفيران بأعباهم .!

قال أحدهم : إن واحدهم مثل طير النهر يقهر وما ينقهر ..!

ولأن الذي ببطنه واوي يعوّ ص ، فإن الغزالة التي سمعت عن الغريبين المتكتمين المتطابقين كحجر الرحى ،والمغلقين كمترا س الباب ، عادت إلى عينيها طبيعتهما القلقة المذعورة ، عينا الغزالة .. لم تستطع النوم ، ندست صالح غير مرة ، وقالت له : هل تعتقد أنهما هما ؟

قال ليقضي على قلقه وقلقها : لا أظن .. ما فكرهما بنا بعد كل هذه السنين ؟!

ـ :لن ينسيا أبداً ..! وقلبي يحدثني بشر !

ـ :إنهما لا يعرفاني ..! أما أنت فلا تظهري نفسك لحين رحيلهم

ـ :وهل أنا ذرة تبن ؟ إن القرية مفتوحة كراحة الكف لا يخفى فيها شيئ ..!

قال بعد صمت : المطلوب يخاف من خياله ..

ـ :من لا يخاف لا يسلم .. عيني اليسرى ترف منذ أيام ..!

ـ: صفيهما لي .. وغداً سأكشف أمرهما ..!

في اليوم التالي اختفيا كما جاءا ، و لم تفلح أسئلة صالح في إماطة اللثام عن أوصافهما ، فلم يرهما أحد إلا متلثمين ، و لم

يتركا من أثر خلفهما إلا عيونهما القلقة التي تتلاقــط كعيــني ثعلب ماكر يبحث عن دجاجة متوارية..

قالت له غزالة : لنترك القرية ..!

ـ : وأين نذهب ..؟

ـ : أنت تقول هذا ..؟ أرض الله واسعة ..!

ـ : سيلحقاننا .. نحن هنا بين أهلنا ..

ـ : ما بحثا كل هذا الوقت ليتراجعا لأننا بين أهلنا .. لن يغـني عنا أحد شيئاً .!

ـ : بقاؤنا هنا أفضل من ذهابنا .. لم نعد وحدنا لنضيــــع في الأحراش والبراري ، الأطفال يكسرون الظهر ..!

ـ : لن نهنأ بعد الآن ..!

ـ :سنجد حلاً ..! فاصبري !

ـ :قد يقودنا الصبر إلى ما نخشى منه ..!

استنجدت غزالة بمزار الشيخ شمس الدين ونذرت له ذبيحــة لتطفئ دماؤها الندية العيون المتربصة بها كالجمرات ؛ وحـــين سقط الشيخ إبراهيم على شمس الدين استعانت به ليسد الثغـــر الذي تأتي منه رياح الخوف فسلحها بالحجب والتعاويذ ، وقال

لها : لاتخافي فلن يخترق بشري الحجب التي أحطتك بها ، ولن يفك مخلوق أرصاد سرّك..!

اطمأنت غزالة ، ولولا رفة العين ، وخوف سحيق يخالط دمها لاهجّعه الكرامات ولا المعجزات ، لظلت أمام مترصديها أعرى من حيّة .

الغزالة الأنثى

للبراري الوحشية منح صالح الخماش نفسه ، لم يكن ذلك مصادفة ، ولا فعلاً إرادياً مسكونا بالحكمة والزهد ، بل كان جوعاً كهفياً لأجداده المشعرين شبيهي القرود ، توضع في الطقوس والأساطير والخرافات ، واستوطن القلب والذاكرة حلماً ذاتياً في شوق لاغب ، كشوق الأرض العطشى للماء ، للبراري الوحشية المسفوحة جسداً إلهياً لا حدود له .. لقمر نيّر، لبدر ابن أربع عشرة ليلة يضوئ ظلمة دامسة كالمجهول . شوق لا يحد إلى أنثى أسطورية مجبولة بشبق الحيوان ، معجونة في براريه ، مطبوخة في الرحم السري للأرض الآلهة العطشى ، أنثى لا تماسك أبداً ،لا تنفد أبداً ، لا ترتوي أبداً ، نبع فياض لا يتوقف ،بئر لا قرار لها ، وسر إن كشف ظل له طعم السر ،

ونكهة التخفي الجليل في رغبة لأن يعود الإنسان إلى الأصـــل ، المنبع ، فم الأنهار ، إلى الرحم الدامس الندي كالليلة المظلمة..!

كما الحيوانات عاش صالح ، لم يلتفت إلى توسلات الأهـل ، وتضرعاتهم ، وخرافتهم في حاجتهم إليه ، وضرورتهم له ، لقـد أدرك ، وهو يجوب البراري أنها عالمه الوحيد .. وحين عجـــزوا عن إعادته إلى قيد القبيلة قالوا : لقد سلبت جنية عقله ، إنـــــه مسلوب ، مأسور ، مأخوذ ..!

وركبه اللقب كما يركب النير الفدان ..!

لم يبال بهم ، ليقولوا ما شاؤوا ، ففي براريه لاشيء يخجله ، لا شيء يخيفه ، لا شيء يراعيه ، لا عساكر ، و لا غـزوات ، و لا شيوخ .. بل لا أكاذيب و لا أضـــاليل ، لا تقـــاليد و لا أعراف ، لا ضرورات و لا قيود .. يـــأكل حـــين يجـــوع ، ويشرب حين يعطش ، يتعرّى تحت السماء ، يفـــترش الأرض ويلتحف السماء و يتوسد يـــده ، ســـيفه .. لا رقيـــب و لا حسيب .. لا حلال و لا حرام اكل ما تفعله حلال ! لا قيمـة أخلاقية للأشياء ، كل ما تريده و ترغبه هولك إن اسـتطعته .. وللأشياء و الكائنات ، في هذه الوحدة المختارة ، طعم آخـــر ، ونكهة فريدة ، السماء والأرض ، الخضرة واليبـــاس ، الليـــل

والنهر ، الشمس والقمر ، الحيوانات والطيور .. لو أنه يعـرف لغة الحيوان والطيور ! فيما مضى كان الإنسان يعرف لغتـها ، يتفاهم معها، يغرد بتغريدها ، يناجيها ، ينابذهـا ، تعينـه ، تساعده ، تنافره ، لكن ذلك الزمن الخرافة مضى ، لعله سيعود إن واظب على مخالطة هذا العالم ،وسترد له كل امتيازاتـه إذ كان سلفه قادراً على تقييد الحيوانـات بسـرعته ، فرجـلاه الطليقتان ، كانتا مطواعتين ، لاركبة لهما ، فهما تلخان ظـهره وبطنه عند الجري ، ولا يفوتـه أي حيـوان .. فـاجتمعت الحيوانات مما تلقى منه ، وتوجهت إلى الله متضرعة : يا رب ألا ترى ما أصابنا من ابن آدم ..؟ يقتلنا لأنه قادر علينا ، يمثّل بنـا ويلقي بأشلائنا طعاماً للنسور ، يذبحنا ولا يحتاجنا لعشـاء أو غداء ، يسلخنا وهو متخم ، يعادينا ولا ضرورة لعداوتنـا ..! يارب قصّره عن إدراكنا ، أو امنحنا تفوقاً عليه ..!

استجاب الله لدعاء الحيوانات فأنزل صابونتي ركبتيـه في الغدير ، وعندما شرب منه انسربتا إلى موضعهما ، وحين رأى سرب غزلان أراد أن يجري فلم تسعفه قدماه ، لم تنطويا كمـا كانتا تنطويان من قبل ، فعرف أنه قيد عن إدراك الحيوانـات عدواً ..فأقعى يبكي عجزه وقهره ، فتجرأت الحيوانات عليـه ،

وسخرت منه .. شمتت به .. واقتربت منـــه غـــير خائفـــة أو مبالية.. فانتقم منها باكتشافه للفخاخ والشراك والحيل ، لكـــن ذلك لم يبرد قلبه ، فأين هذه الوسائط من قدرته بنفسه ؟!

ليته يستعيد قدرة أسلافه ، بل ربما استعادها حقاً إن طـــالت مخالطته للحيوانات ، وعندها سيقبض عدواً علـــى أي غزالـــة يريد، يكلمها ، يناجيها ، يستظل بحنانها ، فما الـــبراري دون غزلان ؟ فهي أنثاها ، وأجمل مخلوق فيها بعينيـــها الواســـعتين المذعورتين القلقتين دائماً .. لو أنه كان من قبل ، يوم خلق الله الخلق ، وقبل أن يحول الله الأنثى القلقة إلى غزالة مذعـــورة ..! فالغزالة كانت أنثى حقيقية ، رقيقة ، رشيقة ، واسعة العينين ، وحين سمعت أكاذيب الناس ومكرهم ، وتجرؤهم على اقتحـــام خفرها ، عادت إلى ربها وقالت : يا ربي .. اجعلني حيواناً مـــن حيوانات البرية ..!

قال الرب : ولماذا يا غزالة .:.؟ في أجمل صورة صورنـــاك .. لا مثيل لك في الكون ..!

قالت : ياربي أبعدني عن ابن آدم ، فإنه يكـــذب ، ويمكـــر .. وعيناه تقتحمان خفري وحيائي .. فيتجلل وجهي كله بـــالدم ، ويشتعل جسدي بالنار .. يطاردني طويلاً فإن اصطادني تركـــني

ومضى إلى غيري ..! تبسم الخالق : أنت لاتصلحين لحياة البراري الوحشية ، جلدك رقيق ، وقواك خائرة ، وعينك دون قسوة، ستكونين طعاماً سهلاً لحيوانات البراري ..!

ارتجفت الغزالة وقالت : القتل أهون من أكاذيب الناس ونظراتهم الوقحة !

ـ :أنت الأجمل ، لذا لاترتوي العين منك ..!

ـ :امنحني جلداً وحشياً ، وقدمين سريعتين لأظل أجري فأحمي نفسي ، وأظل عذراء بتولاً ..!

حول الرب الأنثى إلى غزالة تظل تجري مذعورة، لاتقارب أحداً ، لا تمازج أحداً ،ولا تأكل إلا العشب ، وهي أجمل مخلوق في البراري ..!

ربما وجدت الآن بين الغزلان غزالة تحبني وتأمن لي،وتنسى اعتداء ابن آدم الأول،فترغب في التحول من جديد إلى أنثى...!

شغله الحصول على غزالة عن كل شيء غيره ، تحتّل لها ، طاردها ، وضع الأشراك والفخاخ في طريقها ، وقبض أخيراً على غزالته فربطها ربطاً رفيقاً بحبل ، وأصبح يقودها معه أينما ذهب ،يداعبها ، يناجيها ، يحتضنها بحنان ، فإن نام ربطها إلى

شجرة ،أما في الليالي الباردة فكان يحتضنها وينامان معاً، وهـــو يتوقع أن يستيقظ فيجدها قد تحولت إلى أنثى ..!كمـــا تمطـــر السماء ، وكما يجري ماء النهر ، وكما تتوالـــد الحيوانـــات ، كذلك ستلد أنثاه من جلد الغزالة .. ألم تتحول الحمامـــات إلى إناث ؟ ألم تتحول السلوقية العرجاء إلى أنثى ؟ من كان أصلـــه إنساناً لا بد أن يخلع جلده الوحشي ويعود إلى حالته الطبيعيـة ، سترمي الغزالة جلدها الوحشي ذات يوم ، وســـيفاجأ بـــأنثى بيضاء كالحورية ، واسعة العينين ، نافرة النهدين ، ستلد كمـــا يلد كل مخلوق عارية كالفجر ، وعندها ســـيحرق الجلـــد ، ويذريه في الهواء حتى لاتستعيده إن غضبت منه ، أو ســـاءها سلوك البشر ..!

متى سيحدث ذلك ؟ في هذه الليلة أم تلك ؟ في هذه اللحظة أم تلك ..؟ يحس أحياناً أن ذلك على وشك الحدوث الآن وفي التو ، حركة ما من الغزالة ..! علامة ما من السماء ، تغريـــد عصفور ، بغام الغزالة ..! حقاً سيتم ذلك تحت عينيه،سيحدث الآن .. بعد قليل .. ويمر الوقت ، ويصلب على خشبة الانتظار والترقب ولا يحدث ما يتمناه ..!

وما لم يحدث في الحال والتو حدث بعد حين ! فعند نبـــع عين عيسى الذي يرتاده الناس والحيوانات رآها ..! عيناها عينا غزالة، قامتها ممشوقة كشجرة حور فراتية ..! لمحـــة واحـــدة واستقرت في القلب ، ومضت بحملها من الماء دون أن تنظـــر خلفها ، أو تكترث للعينين اللتين فضحتا نفسيهما ، باشتعالهما بالوجد الذي كاد يلهب ماء العين ..!

أصبحت العين محطة استراحة وانتظار .وجاءت وحيـــدة ، ذات يوم ، لم تصحب أحداً و كأنها ذاهبة إلى موعد ، لاتريـــد أن يشهده أحد .. اقترب صالح من العين يقود غزالته ، فرشقته بعينيها الواسعتين ، فارتبك ، سلّم عليـــها ، وقـــدم الغزالـــة لتشرب.. قالت له :

ـ : حرام عليك أن تقيد غزالة ..!

ـ : إن لم أقيدها سأفقدها ..

ـ : لا تعود الغزالة غزالة إن فقدت حريتها ..

ـ : وإن فقدتها سأموت ..

ـ : قيدها بالحب إذن ..

ـ : سأطلق سراحها .. كما ترغبين

فك الحبل من عنق الغزالة ، وأطلقها ، إلا أن الغزالة التي انطلقت راكضة في البداية ، عادت من جديد إلى العين ترتوي من مائه ، دون أن تنفر منهما ، ضحكا معاً ، قالت : ألم أقل لك الحب أقوى قيد ؟!

ثم طاشت سهام الكلام هرباً من حرج البوح ، فباحت العيون بالمعاصي فأصبح اللقاء عند العين واحتهما ، مرآة لقلبيهما إذ يقطفان كلمات الغزل كثمار أشجار شهية ، وأدرك صالح أن حياته كلها كانت بحثاً عنها ، وسعياً إليها ، وانتماء لعالمها ..!

قيدهما الحب إلى بعضهما ، ولكن أهلها لن يفهموا أبداً ما فهمته العيون ، وما استقر في القلوب ، فلن يعطوا ابنتهم لعابر سبيل مهنته مطاردة الغزلان ، وحسبه ونسبه البراري الموحشة.. فمن يمنح امرأةً للهدوفة ؟! وغزالة لأبناء عمها ، عرف لا يخرقه أحد إلا بدمه ..!

ولما لم يعودا قادرين على الكتمان ، و لم تعد لغة العيون تشبع شوقاً لاهباً يتجدد باللقاء ، هربا بليل ..اركبا الوعر وتجنبا الطرق المطروقة ،مر ليل دامس إثر ليل دامس ، وتنفس صبح إثر صبح .. وقادهم ليل مظلم وماطر وبارد إلى كهف يستذرون به .. من شدة تعبه نام كالقتيل ..!

ولما كان لغزالة نشاط النملة ، ودأب الريفيات اللواتي لايعرفن اليأس ، فقد حومت في المغارة فعثرت على روث ، وبعض أعواد الحطب ، وجلبت من خارج الكهف شجيرات شوك وحضناً من الحطب ..! أشعلت النار ، ونضت ثيابها لتجففها ، وفكت جدائلها .. لفحه الدفء فاستيقظ ، فرأى شجرة من الشعر ، الشعر يغطيها حتى قدميها ، شلال من الظلمة ، والنار تلقي على الجسد الأنثوي الرشيق ضوءً يشب ويخبو ، فيتوهج تارة بالعري والحرارة ، ويغيب أخرى في ظلال العتمة والشعر الجليل .أهكذا كانت حواء الأولى ،حين خلقها ربه عارية ؟ من يصمد أمامها ؟ من يتمالك نفسه ؟ من يلوم آدم إذ انصاع لها ؟ الغريب ألا ينصاع ، لو حدث ذلك لما كان بشراً أبداً ، وكما انصاع هو استمر نسله في الانصياع لها..!

تحرك صالح .. فندت عنها حركة مذعورة ، وظهرت عيناها عينا غزالة واسعتان نفورتان ...!قال : يا ربي لم تخلق أجمل من الغزالة إلا الأنثى إن ملكت عيني غزالة ..!

وكما فعلت سلفتها الغزالة،التي توارت في جلدها الوحشي لتهرب بعذريتها المقدسة، ونقائها الدائم ، فقد توارت الأنثى

خلف شعرها ، ويديها المتصالبتين على صدرها تحميـــها مـــن العيون المقتحمة ..! قال لنفسه : إنها الصيد الأجمل والأبقـى .. لم أرد غيرها .. و لم أسع إلاّ إليها .. وهاهي ذي بـــين يـــدي وملء عيني ..!

وفي تلك الليلة الشتوية في الكهف ، كما الأجداد ، التقـــى جسدان عذريان في رغبة عارمة وشوق أبدي ..!

عاشا في البراري ، كأنهما آدم و حواء جديـــدان ســـيملأان الأرض نسلاً .. لكن الغزالة قادته إلى مجتمع الناس ، فعـــاد إلى شمس الدين على كره منه ، واستقرا فيها ..! إلا أن أهلـــه لم يغفروا لها ، فالخطيفة تمنح أولادها دماً ملوثاً ووباء لايعـدي إلا نسلها ، فالعار المتوارث يتسلسل كالأنساب .

المجزرة

عندما نسيت شمس الدين في غمرة أحداثها وحربها الزائرين الغريبين المتطابقين كحجري الرحى عادا خيّـــالين ملثمـــين،في صباح ، لم يتنفس بعد ، ولا شمس فيه ، والأمطـــار مـــازالت

خيمة فسيحة الأرجاء تخيم على شمس الدين ، كان وقع حوافر خيلهما المكتومة تخب في الوحل والماء ..!

المطر يهطل بهدوء شديد ، نقاط متباعدة ، والفارسان الملثمان اللذان تحولا إلى عابري سبيل أبديين أدركا أن نهاية رحلتهما قد اقتربت ، منذ نحو عشر سنوات وهما يروداں الأرض ، ويبحثان بين الوجوه عن وجه غزالة ، وكانا حذرين وموصيين كفرخ الزاغ . لم يتركا في أي مكان مرا به سوى انطباع غامض ، وعيون قلقة ، بحثا في قرى جيس والبو عساف والمشهور والجميلة .. تحولا شرقاً حتى وصلا إلى جبل كوكب وقرى الجبور والزبيد وطي وشمر ... تسلقا جبل سنجار ، وأوعار قرى الكرد .. ونزلا مع نهر الفرات حتى خوضا في أهواره ، ثم عادا مع مجرى النهر ومرا على قرى البكارة والبوليل والبوسرايا وشمر والعفادلة والولدة ، كان تكتمهما يعرقل عملهما ، لكنه كان ضرورياً ، كانا شابين لم يتزوجا ، فمن يزوجهما والعار يلطخ جبهتيهما ، طالت لحاهما، وظهر فيها الكثير من الشعرات الشائبة .. وعادا مرة إلى القرية ليتنسما الأخبار ، فوجدا من كان جنيناً في بطن أمه قد أصبح

جذعاً ، ومن كان ولدا عابثاً صار شاباً، ومن كــان عجــوزاً ذبلت ورقته وسقطت من شجرة العرش .

الصمت العابس الذي واجههما ،جعلهما ينسلاّن من القريــة بسرعة وهما أكثر تصميماً، لم ينس أحد .. ولن ينسى أحــد .. لن تهدأ القرية الملوثة بالعار ، ولن تستريح قلوب أهلها ، ولــن يطبهّا الأمان ، لن تأمن امرأة على بنتها ، ولا رجل على ابنتــه ولا أخ على أخته إن لم يسفح دم غزالــة، إن لم يــرو دمــها الأرض كدم القربان سيظلون يعتقدون أن ما حدث ســيحدث مرة أخرى ..! وإن قتلاها بعيداً ، فلن يصدقهما أحد ، لابــد من إعادتها إلى القرية ، وذبحها كالشاة .. نذراً ، قرباناً ، ضحية حتى لايحدث ما حدث مرة أخرى ...! وعندما رأياها في شمس الدين تهللا كصائدين وجدا فريستهما ، فرحا كأنما وجدا نبــع الخلود ، ماء الحياة ..! وانسحبا سريعاً من القريــة ليعــودا في الوقت المناسب ، حين تنساهما القرية التي بدت لهما كأنما كلها تناصبهم العداء .وأي وقت أنسب من هذا الوقت ؟ ففي الأيـلم الماطرة لايتنفس الصبح ، ولا ينسل الخيط الأبيض من الخيــط الأسود ، وقدوم الصبح يظل مسألة إحساس ، أو تنبّوء حــين

تحظى بعلامة من علاماته الشهيرة : صمت صرار الليل ، صياح ديك ، شقشقة عصفور مبكر ...

قبل أن تبدأ أصوات الصباح المميزة دخلا القرية ، وا تجـهـا رأساً إلى هدفهما ... قبل الوصول إلى الخيمة المتطرفة ترجـل أحدهما ، استقبلهما كلب ، لما ينم بعد ، بنباح نعس ، تصاعد مع اقترابهما ، فرمى له المترجل منهما أرنباً أعد لهـذه الغاية انشغل قليلاً .. ثم عاود النباح .. لكنهما بسرعة البرق كانا قد دخلا الخيمة ، عاد الكلب إلى فريسته وهو يهر ، غزالة النائمـة مع أبنائها أحست بالخطر حين سمعت نباح الكلب ، لكنـها لم تستيقظ لأنها سمعت النباح في كابوس ، وحينما تمكنا من فمـها ويديها ، فتحت عينيها مدهوشة مذعورة ، فلم تتمكن حتى من الرفس ، عرفتهم من رائحتهم ، وعيونهم الصارمة ، وأدركـت للتو أن كوابيسها كلها كانت حقيقيـة .. وأن رفـة عينـها اليسرى ما كذبت قط ..! وأن سياجات الشيخ أوهى من بيت العنكبوت .

تساءلا : أين ابن الكلب ؟

ــ لم أجده ..!

ندساها : أليس هنا ؟

رفعت رأسها علامة النفي ، أحسا بالخيبة ، لكنهما لم يضيعا الوقت ، قال أحدهما للآخر : اقتل الأولاد ..!

_ :لنتركهم ..!

_ :لن نترك أحداً ..! ولن نتيح لابن زين أن يطاردنا في أحلامنا ..!

_ :المهم هو الأب ...

_ :سنجده حتماً في مرة أخرى ..! لن نحلّ عنه وقد خرّب حياتنا ..! أما الآن فاقتل الأولاد ، لابد أن نمحو كل أثر لها ، سيشك حتى من رأوها أنها وجدت ، وسيظنون أنها حلم فقط..!

بيده كمم أفواه الأطفال واحداً واحداً ، وقطف بخنجره رؤوسهم كما يقطف ورودا حمراء ، ولم تصدر عنهم إلاحشرجة حبيسة ..اطاش صواب غزالة ، رفست بيديها ورجليها دون صوت ، لكن الجموع التي تلقتها على رأسها أفقدها الوعي ..!

حملاها على ظهر الفرس ، ولأن بيت صالح شرقي النزل ، فقد أنسلا دون أن يحس هما أحد ، إلا الكلب الذي دار حولهما ، نبحهما ، ركض وراءهما وحيداً ..

وعندما خرجت وضحة لتزور قبر خود وتستسمحها ، كـان الكلب قد عاد إلى فريسته ، والخيّالان سوادتان بعيدتان تغيبـان خلف هضبة الدوغانية ..!

الكابوس

ماصه القلق كما يُماص الثوب الخلق ، فجعله أشـــلاء ..! لملم أشلاءه وصاح بغضب على قطيعه ، ســاطه ، فركضـت النعاج والخراف وركض قلبه .. ركض قلبه إلى غزالته ، فرآهـا كما في الكابوس الذي كان تكراره يؤكد حقيقته ..! رآهــا عارية ، كما ولدتها أمها ، كان هو معها وكان عارياً أيضـاً ، وهما معاً يخوضان في ماء موحل ، تلفلف حولها ، حــاول أن يخفيها عن العيون بجسده ، ولما لم يتمكن جسده من الالتفـاف حولها كحية تلفها وتقيها من العيون ، دفعها في الماء الموحـل ، دسها فيه ، قال : المهم أن أسترها هي ..اعيناها وحدهما ظلتـا

فوق الماء الموحل مذعورتين ..تناديانه على الرغم من أنه يقـف إلى جانبها..اقال لنفسه : غزالة في خطر ..غزالة في خطر ..ا

الطريق لا ينتهي ، وعر يعقبه وعر، سهل يعقبه سهل ، تـل يخفي تلاً وراءه..تشابه البراري وقلقه جعلاه يوقن أنه لا يتقـدم أبداً ..إنه يراوح في مكانه، هذا التل هو الذي قطعه منذ قليـل، هذا الوادي هو نفسه الذي مر به أول الليل..اوالنعاج اللعينـة أهكت ..ما نفع الأغنام لو فقد سر الحياة ؟ مـانفع أوشـحة الكلام ، وحديث الفروسية إن فقد الغزالة ؟ليـترك الأغنـام ويذهب لامزاً فرسه ، طائراً به ..اماكان يجـب أن يتركـها ويذهب ليتفوّد ..اولكنها ليست المرة الأولى، فمنذ أن تـرك مهنة الصيد امتهن مهنة " العدو " ،أصبح حنشلاً ، لصاً مـن لصوص الأيام المظلمة، ماذا يمكن أن يكون مادام لم يعد صيـاداً وهو لا يعرف كيف يداري الأرض ويزرعها ؟افمهنة الصيـد علمته الوحدة ، وقد خرج وحيداً كعادته منذ ثلاثـة أيـام ، طوى الأرض والقرى ، وتوغل في البراري وأبعد ، ثم عاد بجزلة أغنام ... لكن الخوف على غزالته جعله نافد الصبر .. لقـد قالت له : لا تذهب ..ا وقالت له : عيني اليسرى ترف منـذ

أيام ..! قالت رأيت جنية تقود الأولاد إلى مغارها ، وتشـــرب دماءهم ..!

سخر من مخاوفها،وقال : إنهـــا تحـــاول إخافتـــه حـــتى لا يذهب..! رجته ،كادت تقبل أقدامه ، لكنه ركب رأســـه .. رأسه الذي يكاد يسقط الآن على صدره إعياءً ..! لم ينم أبـــداً في لياليه الثلاثة ، كلما حاول النوم هاجمه الكابوس الذي تظهر فيه غزالة عارية معه تخوض في ماء موحل ! وكلما غطّـــها في الماء ليخفيها عن الأنظار ، رآها أمامه من جديـــد عاريـــة .. وكأنما هي ألف غزالة ، تفقت ، أو توالدت ، كلمـــا غطّـــى واحدة ظهرت الأخرى بعينيها المذعورتـــين الصـــارختين .. الضارعتين ..

ها هما عيناها تلمعان في الظلام تناديانه فيدفع الإعياء الـــذي يثقل جفونه وكاهله كأنه حمل ثقيل ، يلقيه أرضاً فيتخلص منه، وينشط من جديد ، يحث نعاجه .. يسوطها ..! والليلة الثالثـــة لاتكاد تنقضي .. والتلال لاتكاد تنتهي ، والأودية تتوالـــــد ، لكنه منذ بعض الوقت أحس بوقع قطرات مطر حوله ، وفوقه ، منعشة ، ترطب وجهه برذاذ مستمر لكنه هادئ .. لقد دخـــل في الأرض الممطورة ..! اقترب مـــن شمـــس الديـــن إذن ..!

واستغرب كيف تكون الأرض متصلة ، والمطر يسقط هنا دون هناك ، بقفزة واحدة تصبح خارج المطر .. من يومين حين اجتاز الأرض الممطورة شغل بذلك وعده أعجوبة ..! وعاد ليحدد الأرض الممطورة .. وقف هناك تحت المطر ، ثم دفع حصانه بحركة واحدة فإذا هو خارج المطر .. ونظر باتجاهه كأنما بينهما جدار ..! لا يحدث هذا إن كانت الرياح ترحل معك فالمطر يظل يطاردك حتى يفترق دربك عن دروب الرياح..!

تقدم حاثاً قطيعه للتوغل تحت المطر والظلمة .. بدأت الظلمة تتكشف ، تتكشف فقط ، فهو الصباح دون شك ، ولكن في الليالي المظلمة يظهر الصباح خجولاً ، بطيئاً ، حيياً كامرأة تمشي على استحياء .. تدركه وتحسه أكثر مما تراه ..!

ورأى قطيعه الهزيل بوضوح .. كم نعجة سقطت في طريقه إعياءً ولا وقت لديه لإنقاذها ، أو للتريث والاستراحة ..؟! ما هم لو فقد القطيع كله .. كله منذور للشيخ شمس الدين إن رأى غزالة حية لم يمسها أذى ..!

مازال الرذاذ يهطل ، ولكن وضوح الرؤية الذي أصبح كاملاً أكد له أن النهار يدرج الآن في الروابي والبطاح ،

وبيوت شمس الدين ..لا بد أن أولاده استيقظوا الآن ، وسـألوا أمهم ربما للمرة الألف : عن أبيهم .! ستقول غزالة : سيأتي .. لابد أن يأتي قريباً ، فهو يعرف كم نحن في حاجة إليه ..!

وسيركض الأولاد تحت المطر ، يلعبون أم الغيث غيثينـــا ، وستناديهم أمهم ليعمقوا النؤي حـــتى لاتدخـــل الميـــاه إلى الخيمة..! وسيتوقفون دهشة أمام منظر السماء البهيج ، أمـــام قوس القزح الذي يراه الآن ، وكما كانوا يلعبون هم في زمـــن طفولتهم .. سيندفع الولدان وسيقولان : سيف أبوي الأحمر..! أما البنت الرقيقة التي لها عينا أمها ســـتقول : ســـيف أبـــوي الأخضر ..!

وستخبرهم أمهم أن قوس قزح هو بشارة على أن الأمطـــار ستتوقف ، وأن الله يرسلها لتحجب الأمطار حـــتى لا تغـــرق الأرض والبشر والحيوانات ...!

إنه يكاد يسمع نباح كلب .. ثغاء أغنام .. رائحـــة الأرض المسكونة ، رائحة دخان الحطب المشتعل ، والروث البليـــل .. وظهرت له الخيام السوداء المنتشرة من ضريح الشـــيخ شمـــس الدين حتى سفوح هضبة سن ..!

لو يستطيع أن يطير ..! ترك النعاج وعدا بفرسـه .. رأى خيالاً قادماً باتجاهه .. ساط فرسه ، وتقدم ، أوجس خيفـة .. صرخ :

ــ : ماذا حدث ..؟

ــ : إننا ننتظرك منذ الصباح ..!

ــ : لماذا ..؟ أهلي بخير ..؟!

ــ : اذهب إلى خيمة الشيخ حمد ..!

ــ : لقد أوقعت قلبي .. قل لي ماذا حدث ..؟

و لم يعد يسمع ما قاله الفارس ، كان يحث جواده نحو بيتـه الذي يقع في الجهة الشمالية الشرقية من القرية ، ساط حصانه ، وقلبه يدفر بصدره ..!

تلقته القرية عند البيت ، اندفع ، لم يعد يرى أحداً، أمسـكه الرجال تخلص منهم وولج الخيمة ، كانت الجثـث مغطـاة ، كشف عن الوجوه ، وعانق الرؤوس المقطوعة ، وهو يصـرخ كحيوان جريح ..

تمكنوا من السيطرة عليه ، وتسكينه ، وعينـاه الحمـراوان اللائجتان تسألان :أين هي ؟

ــ :لقد اختفت .. ربما أخذوها معهم ..!

ـ :من فعل ذلك ؟

ـ :رأت وضحة المرار خيالين يغيبان خلف هضبة الدوغانية ..!

ـ :كيف .. ألم تلحقوا بهم .؟!

ـ : لم يصدقها أحد فلم نكن نعرف ما حدث ؟

ركب فرسه واندفع ، لحق به خيالان بكت النسوة ، وضججن بصراخهن الذي يصل إلى السماء ، وقال الرجال :

ـ : لا حول ولا قوة إلا بالله ..

ـ : إنا لله وإنا إليه راجعون ..

ـ : صبر جميل ..

توجه باتجاه هضبة الدوغانية ،والسماء ما زالت تهمي رذاذاً متباعداً ..! لا حاجة به إلى تقصي الآثار ، إنه يعرف إلى أين يتجهون ، لابد أن يدركهم ..! مال فرسه إلى أحد جانبيه ضالعاً، وهو متعب ومكدود ..لحقه الخيالان قالا له : ستقتل فرسك دون جدوى .. فهم بعيدون الآن ..! بعيدون جداً ..!

ـ :ولكنني سألحقهم .. لن تبلعهم الأرض ، ولن تشهلهم السماء إليها ..!

ـ :ولكنك الآن لن تلحق بهم بفرسك هذا ..

حاولوا إعادته ، ليؤجل ذلك إلى وقت آخـــــر مناســـب ، وسيخرجون معه ، لكنه قال لهما : ارجعا .. وادفنا الأولاد ..! أما أنا فلن أرجع قبل أن أجدهم ..!

أبدل فرسه بفرس أحدهما ..احتجا : سنلحق بك ..!

ـ : ما خرجت يوماً إلا وحدي ..! أ نا ســـيد الـــبراري ، ووحدي سأعرف كيف أتصرف ..! لاتخشوا علي فأنا كـالقط بسبع أرواح ..! الصيد هو مهنتي ، وسأصطادهم ..!

عادا أخيراً وتركاه يتقدم في البراري الواسعة المتشابهة وحيداً، ظل يعدوخبباً إلى أن سقط الظلام ، فلـــم يتوقــف ، وازداد هطول الأمطار ، وأعيـــا الفـــرس، وبـــدأ يقطـــف قطفـــاً، أويسيررهواً،أويتقدم بطيئاً ... وكاد غير مرة أن يسقط مـــن فوق فرسه وقد هده الإعياء والتعب والسهر ..اعندما يوشـــك على السقوط يشعل جذوة الحقد في قلبــــه ، فيشـــتعل مـــن جديد..الكن الفرس نفسه كادأن يتوقف علـــى الرغـــم مـــن لســـعات ســـوطه المتتابعـــة..لاجـــدوى..!الـــيريح فرســـه ويستريح..بحث عن ذروة يلتجئ إليها،وما إن حط جسده على الأرض اليابسة حتى أحس بدوخة فالأرض تلف به وتـــدور ، ثم نام كفاقد وعيه كان نومه خطفاً، فالأشـــباح الـــتي هاجمتـــه

بضراوة: وحوش وبشر وحيوانات،دخلت في نومه،وخرجـــت لتعود مـــــن جديـــد وهـــو يكافحـــها ويصارعـــها حـــتى الصباح..اوعندما استيقظ كان مصدوعاً، لكنه شـــب فـــوق فرسه..وتوجه نحو الشرق الشمالي..وقال في نفسه : لابـــد أن أسبقهم..سأظهر أمامهم ، وأكمن لهم عند العـــين نفســـها ، وسأصطادهم واحداً واحداً ولو كانوا ألف رجل.

أحزان غزالة

حين خرج أخوا غزالة من شمس الدين دون أن يراهمـــاأحد، أدركا أن الجزء الأصعب من مهمتهما قد انتـــهى ، ولكنـــهما استعجلا فرسيهما ، فربما لحقهما أحد ، مع أنهما كانا يتمنيـــان أن يلحقهما غريمهما ..

قال أحدهما للآخر : قد يتعقبنا ..!

ــ : ليته يفعل ..!

ــ : سنعود إليه إن لم يتعقبنا ..!

لم يتوقفا بالرغم من الأمطار، لابد أن يبعدا بعداً كافياً يعجـز عن قطعه كل متعقب لهما . هبط الليل وازداد هطول الأمطار ،

وأصبحت فرواهما وكوفياهما كأنما غطست في نهـــر عكـــر، وحين خرجا من الأرض المطورة ، وقد كاد الليل ينتصـــف ، نزلا ليرتاحا ، وتناوبا حراسة الغزالة التي لم يغمض لها جفـــــن والتي أدركت أن أوان اللوم قد فات ، وأن حياتها انتهت ..بـل إنها انتهت منذ اللحظة التي أدركت فيها أنهم ما زالوا يبحثـــون عنها ..لقد عاشت حياتها السعيدة في ظل زوجها وهي علـــى شفا هاوية ..الأيام السعيدة كانت منغصة بخوف بعيد لكنــــه أكيد وقادم وحتمي كالموت ، فكأنها تنام في عيني حنفيش..! لم يكن يعنيها أن تعيش عمراً مديداً متطاولاً فارغـــاً ، لاتلونــه لحظات السعادة ولا وهجها الساطع فليس الخلود عمراً فانيـــاً ولو امتد ..لقدراهنت على حياة أطفالها ، ولدان وبنت ، مــــا ضحكوا كل ضحكات الأطفال بعد ..!ما أقســـى عقـــابك ياربي!اجتمع حقد الأهل ومرارتهم وغضبك علي ..لكن عقابك كان قاسياً وظالماً فعندما أقتل لن يبقى شيء مني ..!إنها تفـــهم غضب الأهل وغيرتهم ، ولكنها لا تفهم غضب الله وانتقامـــه منها ، فهو الذي منحها القدرة على التمرد ، فلماذا يجازيـــها على أنها استجابت لأعمق ما فيها ، استجابت لنــــداء قلبـــها لحريتها ، لاختيارها ..!

الموت هو الأرحم ، لكن موت أولادها كان أقسى من عقوبة موتها ..!

وتذكرت أغنيتها التي كانت ترددها :

لأرقى على الله العالي / وأعاتبه وأقله / شلون فراق الغالي !

وبكت ، لا جدوى من الشكوى ، فأحبتها غادروا إلى الأبد وستلحق بهم ..ولن يدركها صالح ، فالله اتخذ قراره ، وقال كلمته النهائية في سفر حياتها ، لقد سقطت ورقتها بعد أن ذبلت ..اولن يستطيع أحد أن يعيد إليها اخضرارها .. لقد ماتت منذ مات أطفالها..اولن يجرؤ شاعر أن يكتب فجيعتها ، ويخلدها ، وينثرها على أفواه العشاق والطرقية والشعار ، وعابري السبيل..؟!

ظلت غزالة تدور في أفكارها التي ترددها يميناً وشمالاً حتى طلع الصبح ، فقام الأخ الذي كان يحرسهم ، وأيقظ أخاه الآخر فأخرجا من عليقتهما رغيف خبز توزعاه وأكلاه ، وشربا جرعة من الماء، وتمضمضا بجرعة أخرى ، ثم ركبا فرسيهما ، وواصلا السير ..فارتقيا تلالاً، ونزلا أودية ، وقطعا سهولاً ، وبعد أن سارا حذفة مقلاع ترجّل أحدهما وارتقى رجماً عالياً ، ثم نزل وقال : ثمة خيّال خلفنا..!

ـــ :لابد أنه هو..!

ـــ :لنكمن له خلف الرجم ..!

عقلا فرسيهما وكمما غزالة ، ودقا ســــكة لهـــا في الأرض وربطاها ، وانتظرا فوق الرجم حتى توضح الفارس الذي كـــان يستحث فرسه ..

ـــ : قد نقتل بريئاً..!

ـــ : أفضل من أن يقتلنا ..ثم إنه لا يفعل ذلك إلا من يطلـــب أحداً!

سددا معاً ، الطلقة الأولى جعلت الفرس يشب ، والثانيـــة رمت الفارس دون حراك ..ركضا معاً،انثنى أحدهما إلى غزالـــة وقادها إلى الجثة ..سألاها : أهو صاحبك.؟!

لم تتكلم ، كانت مجرد عينين باكيتين ، وسددا مرة أخـــرى إلى قلبه ، وأطلقا عدة مرات ..ثم ركبا خيلهما ، واتجـــها إلى قريتهم..!

القربان.

وصلوا إلى القرية ركباً مزهواً دون مستقبلين ، فقد خلـــت القرية تماماً، وانجحر الناس في البيوت ..وتناقلت الأفواه عبـــارة واحدة : عادت غزالة ..!

تناقلتها القرية ، وانجلى الهم والقلق والعار ، وقيل حتى للحيوانات عادت غزالة. وانغلق الباب خلف غزالة ، ولم يعديذكرها أحد ..! ولم يعد يخاف أحد ، فما حدث لن يتكرر أبداً !

سقطت غزالة اسماً ووجوداً من تاريخ الأهل والقرية كأنما رفعت إلى السماء ، أو سرت في دماء الغزلان ، لم يكن لها وجود ولا قبر ولا حكاية ، كأنما لم تكن أبداً ..!

ولا أحد يعرف من شيع الأغنيات عنها ، ولما لم يكونوا قادرين على منع الأغنيات التي كالآهات من أن تشيع وتنتشر اعتبروا أن غزالة التي تتحدث عنها تلك الأغنيات امرأة غريبة ، بعيدة ، وجدت في مكان ما من براري الله الواسعة.

المزارات تنبت كالفطر

أما صالح الخماش الذي توسد البراري التي أحبها ، فلم يجد باكيات ولا نائحات ولا نادبات ، وإن لم يمت في أرض غريبة لأن البراري كلها ملكه ! وعلمت شمس الدين بموته بعيد يومين حين عبر نسر ما في سماء القرية وسقطت منه في وسطها كف

آدمي..!وحين تراكضوا ليعرفوا ما هي رمية النسر..خمن بعض أهله من الخاتم الذهبي بإصبعه الوسطى أنها كف صالح ..!

وصل إليه الخيالة فعثروا على هيكله العظمي رطباً و منشوراً على مساحة واسعة ، فالطيور وحيوانات البراري ، لم تترك إلا العظام .وفي رأس الرجم دفنوه قبراً وحيداً والقبر الوحيد لابد أن يتحول يوماً إلى مزار ما..! وإلى قرية ما ، مادام ثمن الأرض قد دفع دماً بشرياً وما دام المزار الذي يجمعهم قد قام ..!

أيام تتقصف كالأغصان اليابسة !

خليفة يعاشر سكان السماء

كانت شمس الدين قد تبللت حتى العظام بعد خمسة عشر يوماً من القصف المطري ، فالرعود والصواعق كأنما هي قطع من الجبال ستنقض عليها بثقلها ، والبروق ومضت كمناجل ستحصد الأخضر واليابس ..ووقفت شمس الدين ترتجف من الرطوبة والبلل ككلب وقع في النهر في الشتاء البارد !

فصلت السيول بين خيامها بمستنقعات من المياه ، ورجمتها بحجارة وصخور هشة تناثرت في آخر المسيلات ،وكونت الأمطار كتلة عميقة من الطين ، في زور النهر،تغوص فيها الدواب والكلاب والبشر كجواميس تستحم في مستنقع عطن!

وعندما كانت زخات المطر تقصفهم قصفاً ، شعروا برفيف أجنحة الملائكة الموكلة بقطرات المطر ، وهي تغرسها أبعد فأبعد في الأرض حتى تنفذ إلى عظام الأموات ، وبدا لهم للحظة، أن المطر ليس رحمة يتلقونها بوجوههم العطشى ، وقلوبهم الظامئة أبداً ، ودوابهم الملوعة إنما هي انتقام أكيد لشرور ربما اقترفتها أيديهم أو قلوبهم ولما يكتشفوها بعد ..!

الأطفال الذين كانوا قبيل المطر يخاطبون الغيوم التي لا تمطر :

يا مطر يا عاصي /طول شعر راسي

أصبحوا يصرخون بفزع ، وقد طال أمد المطر : عرعر يا ربي عرعر !

شمس الدين التي سمعت الاستغاثة من أفـــواه طيـــور الجنـــة أصبحت قطرات المطر أحجاراً تتســاقط فـــوق رؤوســـهم ، وأوشكت ، وقد أهاجها الخوف من شرور سرية ، أن تـــأخذ بلحية الشيخ إبراهيم ، وتجره منها ، وتودّســــه في الوحـــل ، وتموصه فيه كجزة صوف ، ولو استمرت الأمطار يوماً واحــداً أكثر لما حمت الشيخ لحيته الكثة ،ولا ســيديته الخضــراء ،ولا حتى رفيف أجنحة الملائكة الذي تسمعه كخفق أجنحة الطيــور !

قال أحدهم للشيخ : أليس للأمطار من نهاية يا شيخ ..؟!

قال آخر : لقد سوّت علينا أم الغيث ..!

قال الشيخ : لا تكفروا بنعمة الله ..!

قال أحدهم : قد تنقلب النعمة إلى نقمة ..!

ـــ : لابأس عليكم ، فلست نوحاً ، ولستم قومه ..! وأضـــاف ليبذر الشك في النفوس : ربما لم تصف قلوب شيوخنا بعد .

قال أحدهم ساخرا : أنت من سفر بينهم فهل صفت قلوبهم أم لا ؟! وإذ أدرك أن إلقاء اللوم على الشيوخ لـــن يحميــه مـــن نقمتهم قال: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

في وحدته لم يخف الشيخ قلقه ، خاطب الغيوم الســـوداء المدلهمة ، الصواعق ، البروق ، الملائكة التي تحمل المطـــر : لا تفضحونا .. فأين سأذهب مـــن هـــؤلاء الذيـــن لايقـــرؤون الممحي..؟ نقطة مطر زائدة تفصل بين النعمة و النقمة ،فتجعـل الطارد مطروداً ، والهازج بحمد ربه ورحمته كافراً بنقمته ..!

عندما توقفت الأمطار، سكن قلب الشيخ إبراهيم ، وانقلبت شمس الدين كلها إلى العراء ، كأنما هي أفعى فسرت جلدهـــا ، وقذفت أحشاءها ، وفرشها وألحفتها وســـوحها وحصرهـــا وبسطها وحيواناتها وبشرها فوق الصخور ، ومواقـــع الأرض الجافة ، وعلى حبال الخيام لتجففها شمس ما زالـــت تفـــوح الرطوبة من أشعتها الكليلة المريضة ..

في ذلك اليوم ، وشمس الدين تتقلب كأفعى أو ضب تحـــت شمس هزيلة ، كان خليف البدر يشعل النار أمام خيمة الشـــيخ حمد ، ثم يلهبها بأعواد جافة يدسها بين حين وآخـــر ، وقـــد تقاطر الناس واجتمعوا عند الشيخ حمد ليجففوا أنفسهم بالنـــار

والأحاديث وليتخلصوا من رائحة الرطوبة والعفن العالق بأذيال ثيابهم ..! كان خليف مستغرقاً في عمله ، منكباً على النـــار ، باهتمام ناسك يتعبد وحيداً ، وضع عدة أعواد جافة في النـار ، ثم نفض يديه ، والتفت إلى الشيخ حمد ، وقـــال : ســألتحق بإبراهيم باشا يا شيخ ..!

ظن الشيخ أن خليف يحدث نفسه ، فسأله : هل قلت شيئاً ؟

ـ :سألتحق بإبراهيم باشا ..!

قال أحدهم هازئاً : أنت؟! وماذا يفعل بك إبراهيم باشا ؟!

قال آخر : لعله سيضعه ساري عسكر ..!

ـ : أو في حرسه الخاص ..!

قال الشيخ حمد : أفكرت فيما تقول يا خليف ..؟!

ـ : فكرت طويلاً .. وقررت ..!

قال الشيخ في نفسه ، إن خليفاً الصامت الذي لاينطـــق إلا نادراً ما قال قوله ليتراجع عنه ، إنه يملك عناد بغـــل ، لكـــن الشيخ قال : بل إنك لم تفكر جيداً يا خليف .. فأنت المتوحـد مثل ذئب تريد أن تكون عسكرياً ..؟ أنت لا تداني أحداً مـــن البشر ..؟!

قال خليف : من عاش بين سبع سموات وسبع أرضين لا يعيش وحيداً يا شيخ ! وجم الشيخ حمد من المفاجأة، ثم استرجع نفسه قائلاً : هكذا إذن ؟! هرب منا لتخالط الجن والشياطين والملائكة ؟!

ـ :أرأيت رؤيا يا خليف ..؟

ـ :أكشف لك المستور ..؟

ـ :أوعدوك بشيء ..؟

ـ :ومن اخترت ..! الشياطين أم الملائكة لتتبعهم ..؟

ـ :أفي الرؤيا كنز ..؟ لاتنسنا ..!

ـ:ليست كل الكنوز ذهباً .. إذا لم أذهب سأموت كنعجة ضالة ، أو كبش أجرب .. لم ير شيئاً ، ولم يعرف شيئاً ، ولم يجرب شيئاً .

ـ :في العسكرية قد لا يتاح لك الوقت لترى شيئاً ، أو تجرب شيئاً ..

ـ:أتريد أن تقصف عمري من أول جولة ..؟

قال الشيخ إبراهيم : الأعمار بيد الله..!

قال الشيخ حمد : أرأيت يا شيخ إبراهيم ، هذا رجل تسرقه منا شياطينكم أو ملائكتكم لا فرق ..!

ــ :من يرى النور لايستطيع إلا أن يتبعه ..!

ــ :أي نور ؟! كيف سيعيش بين الآلاف المؤلفة ..؟

ــ :من يرى الحق لا تشغله التفاصيل ..!

ــ :أفي التحاقه بعسكر إبراهيم باشا ، كشف وحق يا شيخ ..؟

ــ :الحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، وربما هي إرادة الله ..

ــ :أهذا هو رأيك ؟

ــ :خليف رجل عاقل ، وما دام قد اختار فليتبع هواه ..! ومن يملك ألاّ يتبع هواه ..؟

شعر خليف بالمودة تجاه الشيخ الذي أعرض عنه في أول لقاء لهما لكن الشيخ بدا دائماً رقيق القلب متفهماً ، لا يعارض رغبات أحد ، وكأنما كل الرغبات من عند الله ، وليس فيها شيء من الشيطان .. إنه متسامح حقا ، يصلح أن يكون موضع سر ، ورفيق نجوى ، لكن خليفاً سيظل مخاصما لهم : ماداموا ينزلون موائد من السماء ، ولا ينزلون حوريته لترتعش بين يديه كالثريا ..!

قال الشيخ حمد بعد لأي:حسنا يا خليف، افعل ما تشاء ، ورعيتك ستظل محفوظة عندي إلى أن تعود .!

وفكر خليف بأن موافقة الشيخ حمد لاتقدم ولا تؤخر ، فما دام قد قرر فإن أحداً لن يوقفه ، وهو إنما أخبره بما نوى أن يفعل لا ليأذن له ..

وأضاف الشيخ حمد : تذكر أننا ههنا مقيمون لن نبرح ..!

قال آخر ساخراً : من يرافق إبراهيم باشا لن يرضى برفقتنا ..!

قال خليف : لا خير فيمن ينسى أهله ..! كل ما هنالك أنني لا أريد أن أفطس ذات يوم كنعجة ويدب الدود في جسدي ، وأنا لم أر شيئاً مما أود رؤيته ..

قال الشيخ حمد : لو أعرف ما تريد يا خليف ..؟

قال الشيخ إبراهيم : وهل يعرف من يريد ما يريد ..؟

و لم يجب خليف ، أو ينبس ببنت شفة ..! وفكر الشيخ حمد بأن ما يقوله الشيخ إبراهيم صحيح ، ألم تحيّره أقوال خليف غير المتوقعة ..؟ فمتى تعلمها ؟ لقد كان خليف دائماً تحت نظره ، لم يرافق إلا الحيوانات ووحوش البراري ، لم ينم تحت سقف إلى جوار آدمي ! فهو يهجر فراشه وينام في العراء ..! وقد تعاملوا معه دائماً على أن لا قلب له ، ولا خيال ، ولا حاجات ، ولا رغبات ، إنه شيء من الأشياء ، هرس ، حيوان في أفضل الأحيان ، إن النساء أنفسهن قد يقلن أمامه ، أحياناً ،

ما يخجلن من البوح به أمام رجال آخريـــن ، أو حـــتى أولاد بالغين ..!

يكتشف الشيخ حمد فجأة أن خليفاً الذي يعرفه قد ســـاكن أهالي السموات السبع،والأرضين السبعة وأنـــه يعـــرف مـــا لايعرفون ويفهم ما لا يفهمون.. يجالس الأشباح غير المرئيـــة المحجوبين الذين يعجز حتى السياد من الحديث عنهم..فمن علم هذا الجاهل حديث الســـموات والأرض؟مـــن عرفـــه علـــى سكانها..؟

حقاً إن الناس مكفنون بثيابهم ، وما في داخلهم لا يعرفـــه إلا الله..! لا يمكنك أن تحزر على إنسان ، فابن آدم يظل لغـــزاً لا يمكن حله ، وسراً لايمكن اكتشافه كما تكتشف قملك في ثنايا ثوبك ..! كم تخفي في قلبك من أ سرار يا خليف ؟!

الهارب من الموت

كان خليف ولداً صغيراً دامع العينين،موسخ الأنف يمســك شليل رجل عجوز في العقد السادس ، اثنان لا ثـــالث لهمـــا

يتقدمان في برية فقيرة خاليان كموسى وصاحبه ، لا يحملان إلا جلدهما ورحمة الله ..!

لو كانا يملكان سلاحاً أو حتى حماراً لكانا صيداً ثميناً ، ثيابهما وحدها ، لو كانت في حال جيدة ، كافية لتجعل جلدهما ثميناً ،كنزاً في بادية فقيرة تعودت الحصول على حاجاتها بالتشليح ، وأنبتت أعرافها وتقاليدها أن الأقوى يجبّ الأضعف ، وكل حي في البرية من حيوان أو طير أو بشر هو صيد للقادر ، إن قوتهما في ضعفهما ، ضعفهما هو سلاحهما الوحيد فضمور أعضائهما سيجعل حتى الحيوانات تنصرف عنهما ..!

مثل حيوان مذعور يتبعه جروه تبع خليف بدراً ، كان يمسك ثوبه أحياناً ، يعرّت به حتى لا يبتعد عنه ، أو يختفي في الخلاء كالسحالي ، أو يمسك الرجل بيده وكأنما يجره جراً ، ويسحله سحلاً ، والولد منهك يكاد يموت من التعب..!وأحياناً تمتد بينهما مسافة قصيرة تظل تضخمها قدرة بدر على الحركة دون توقف ..وحين يخور الولد ويمسك الأرض يردعه بدر على ظهره ، أو يحمله على رقبته ، ويتقدم به والبراري تنفتح أمامهما متسعة كالسماء التي تظلها ..!

سارا من الجنوب وتقدما مع النهر شمالاً ، ثم انحرفا مع النــهر غرباً تاركين مسافة أمان بينهما وبين النهر ، وحيدين لا يبــدد وحدهما إلا عواء الذئاب والضباع وبنات آوى ..اقتاتا بلحم الأرض من كمأة وفطر ، وبنباتاتها وفاكهتها وأعشــابها مــن شفلّح وعشب بري ، وخبّاز وبختري وشــويخ ...في الربيــع يكون الخير كثيراً لذلك يتجنبان القرى ومضارب الخيام ..أمــا في الصيف فإن الشمس التي تدوّخ العصفور تحـــرق العشــب والنباتات ، ولا يبقى ما يقتاتان به ، فاصطياد أرنب ما ، غـزال ما بأيديهم العارية مصادفة والجوع لا يقتات بالمصادفات ، ولا يعترف بها لذلك يضطران إلى دخول القرى ومضارب الخيــام التي لا يرغبان في دخولها ، لأن البدوي الـــذي يكرمــك في خيمته، سينتظرك بعد قليل في البرية ولن تجدي توسلاتك عنده، أنت آمن مادمت في خيمته فإن خرجت أصبحت زرعاً حــلالاً له ، صيداً كما لحيوانات البراري والحناشل واللصوص ..!

لم ينتظرهما أحد خارج النّــزل لأهما لا يحملان ما يجعـــل الإنتظار مفيداً ، فقرهما حماهما من القتل والتشليح ، وصمتــهما حماهما من ألسنة الفضوليين ..! كان صمت الولد إجبارياً فــهو لا يعرف شيئاً أما العجوز فكان كقمقم مسحور مغلـــق ، لا

يمكن أن يفتح فمه إلا حين يتناول ربابته ويدغـدغ الغربـاء الحاضرين ، الذين يستسميهم ، بمدائح ثمنها الخبز الحافي الـذي يأكلونه ..!

وفي البراري الموحشة التي تحيلهم إلى برار موحشـة يرفـع العجوز صوته بفراقيات معبأة بالشجن والبعد والهجر وخيانـة الخلان والأحباب ترشح بكاءً ، لكنهما يأنسان بها ، وأحيانـاً ربما تذكر العجوز يوم كان بنص عقل ، كما يقول ، محاولاً أن يقبض على الزمن المتسلل كاللص ، والذي لا يعود ، بأبيـات نايل عذبة تطفح بالوجد والحب الجريح :

أسأل عليك القمر / كلما يريد يغيب / وجرحك بقلبي مضى / هيهات أبد ما يطيب .

ما احسد غير النجم / الفوقنا عالي / مسـعد يجـار القمـر / مشرف على الغالي .

ينتهي الغناء بعبرة تكتمل بدمعة تنفر من العين قسراً حـارة كاوية كجمرة،وينغلق القلب على أحزانه ، ويصبـح المكـان حولهما خالياً هامداً يدبّان فيه كالمطاردين ، ووقع خطواتهمـا وحده يخمش الصمت العميق كالمخالب...

يحاول الولد أن يكوّن صورة عما حدث فلا تسعفه الذاكـرة بشيء مفيد ، بل تتزاحم الصور في مخيلته دماءً وصرخة حـادة مفجوعة تمزق الكون ، وكأنما الصرخة التي تسكن مخيلته هـي سماء مشقوقة ، كهف مشروخ الجدار ! ليس في قاع الذكريات أقدم من تلك الصرخة التي خرج منها ، التي يعتقد أنها ليست مرسومة في مخيلته بل هي حدث فعلي فالسماء تنشـق فعـلاً والدماء تخرج منها وتلون كل شيء :البشـر والحيوانـات ، البراري والسماء ، الحجارة والعشب ، لاشـيء إلا الدمـاء المهدورة التي تبيح دماءً أخرى في دورة لاتنتـهي ..اوكأنمـا الأشياء والزمن يتجمد في لحظة واحدة تدور حول نفسها !

حقاً إن خليفاً وليد تلك الصرخة ، من رحمها ، كمـا لـو كانت كهفاً مظلماً رطباً ، خرج فتلقفته يدا بدر للتو ودفعـت به حالاً إلى البرية الخالية حيواناً ككل الحيوانات التي تعجّ بها !

لا يذكر شيئاً قبل الصرخة المعجونة بدمائه ، وكل ما تحفـل به ذاكرته هو ذلك النبت الذي غرسه فيها بدر في مسـيرهما الطويلة ..المجنونة ..الهاربة من الموت كأنما ثمة أرض لامـوت فيها..! توقف الولد ، قال: لقد تعبت ، لن أخطو خطوة أخرى إلا إلى قبري ..!

قال بدر بغموض : ما زال الطريق طويلاً ..طويلاً إلى القبر ..!

ـــ:ألن نصل أبداً..؟

ـــ:لانسير لكي نصل ..!

ـــ:لامكان يحتملنا ، كل الأمكنة ليست لنا ..

ـــ:حتى الحيوانات لها مساكن تأوي إليها ..!

ـــ:مساكننا تركناها خلفنا ..

ـــ:فلنعد إليها..!

ـــ:ما دمنا قد هربنا فالعودة مستحيلة ..!

ـــ:ولماذا نهرب ..؟

ـــ:كي لايلطخك الدم ، ولا تقطع رقبتك على عشاء ، على غداء ، من أجل مجد فارغ ، أو سلطة لايمسكها أحد ، إذ ما إن يمسكها حتى تهرب منه ..أو يحل عليه القتل ..

ـــ:أنت تخيفني ..!

ـــ: فماذا لو رأيت ..؟!اسمك وحده كاف لقتلك حتى لو لم تملك شيئاً، ولايشفع لك صغر سنك ، ستكبر وستنذر غيرك للموت الذي لاحقوك به ..وسيلاحقك غيرك بالموت الذي ستوقعه على مطارديك..كأنما كل شيء تكرار فاجع لاينتهي..!

ـــ: لي أهل ..؟

ـــ:أتظن أنك ولدت من الحجر؟!

ـــ:ليتني ولدت من الحجر ..!

ـــ: الأماني حصة الضعيف ..

ـــ:حدثني عن أهلي .

ـــ:تلك حكاية الكل وليست حكايتك وحدك،إنها طويلة..أنت الشريدة الآن..اوفي الوقت المناسب سأحملك دم أهلك ..!

ـــ:لاأفهمك..

ـــ:ستفهمني يوماً..ولن تهرب من قدرك !

ـــ:أنا ميت من التعب والجوع فالنبات لايغذي أحشائي ، ولن استغرب إذا ما تحولت إلى نبتة خضراء ، أوأصبحت أخضر كالضفدع ..!

ـــ:نهرب من السيوف ليأتينا الموت بهيئة الجوع ..؟ يخسا الجوع..! سنغافل الموت فما زال أمامنا عمل ننجزه ..!

ـــ:فأين الطعام ؟

ـــ:القرى تغص بالطعام ..

ويمران على أول نزل ، وككل الغرباء وعابري السبيل يجذبان الكلاب والأطفال والفضوليين ، وكعادته يجيب بدر عن

كل الأسئلة بغموض وغمغمة لايظنها الولد ضرورية ..! لكـــن ربابة بدر تخرس الألسنة ،فما أن يروها حتى يتوقف عن طـــرح الأسئلة ، فهي جواب لكل الأسئلة ، وهي طقس خالد فالربابـة للشاعر الجوال كالشبّرية للسيد المتن، إنها عنوانـــه وعلامتـــه الفارقة ، وكما يبيع السيد المتن الأحلام يبيع الشاعر البـــائس الأمجاد المصنّعة في كلمات لاتبلى ..فيترك مدائح لأناس يعرفـهم أو لايعرفهم ، وكل مجد بقدر ما يجود به الجواد ، قطعة الخـــبز الحافية لها ثمن ، والعشاء الدسم له ثمن ، والذبيحة لها ثمن..ومن لا يحتفل بالشاعر وهو صوت البراري وضميرهـــا وســفرها الخالد؟! إنه ينثر المدائح والأهاجي كنيص يقــــذف أشــواكه فتنغرس في القلوب ولا تمحى من الذاكرة ، والنــــدم المتـأخر للمهجو يطلب الشاعر ليملأ فمه كي ينسخ قصائد الهجـــاء ، فإن كابر الشاعر محتمياً بحصانته ، واستنفد المـــهجو ترغيبـــه وترهيبه ثأر لدمه المراق بالقصائد بدم الشاعر الأعزل فيكتســب بذلك ذماً آخر، يلتصق به كالرائحة العطنة فالشاعر مقـــدس كالشيخ لايقتل ..! أما إن لم يعثر على الشاعر فأنه يموت كمداً على ما فرطت به يداه..!

يقيمان في النزل يأكلان ويشربان وينامـــان نومــاً عميقــاً لاتغتاله المخاوف ، ثم يمضيان دون أن يشعرا مضيفـــهما ، أو يسلما عليه، بل يتسللان خفية من النزل ، و لم يعرف خليـــف الحكمة من تسللهما كاللصوص دائماً ..!

ويمر النزل إثر النزل ، والقرية إثر القرية ، والبرية إثر البريـــة، ولاشاطئ للأمان ، أقدامهما أدمنت التعب، وكسيت بطبقـــة غليظة من الوسخ واللحم الميت فأصبحت نعالاً لهما ، يدوسـان فيها فوق الأشواك والحجارة فلا يحسان بها ..والقمل عشّش في ثيابهما ، وأصبحت رائحتهما منتنة عطنة كرائحة السيّاد !

وفي ليلة مقمرة طاردهم ذئب متوحد جائع ،رافقهما طويلاً، ألح عليهما ، عوى عواءً منكراً رددته الجبال والأودية ، وتصورا ـــ والفزع ذئب جائع ـــ رأسيهما كـــرؤوس الطليـــان بـــين أشداقه! يركضان والأرض تمتد أمامهما ، تتوالد فسيحة كراحة اليد ولا ملجأ ، لانزل ، لاقرية ، لاكهف ..والجوع يلح علــى الحيوان ..اقترب منهما حتى أصبحا يسمعان صـــوت لهاثـــه ، نبض قلبه ، جريان الدم في عروقه ، أم لعلها نبضات قلبيـــهما ، وصوت دمائهما ، ولهاثهما ..!

رمى بدر كوفيته ، لفّها على يده اليسرى عـــدة لفّـــات ، ووقف للذئب عندما لم تعد الحركة ممكنة ، خطـــوة واحـــدة وسينشب الذئب مخالبه في رقبته ..حين توقف بدر ولا جـــدار خلفه أصبح صدره هو الجدار ..وثب الذئب فوقه فوقعا علـــى الأرض ، وألقمه بدر يده الملفعة بالكوفية وبحجر صواني انهـال على رأسه ..انفكا والتحما عدة مرات ..تدحرجا ..ثم همـــد الرجل والذئب .

وحين دنا الولد منهما والرعب يكاد يشله ، والصرخـــة آن تكونت في حنجرته ظهرت كشق في السماء ..إلا أن بدراً قـال له : لقد نجونا ..!

كبح الولد الصرخة وانداحت فرحة في القلـــب ، تحســـس الصدر النازف ، قال له :صدرك كالأرض المحروثة ..!

قال بدر : كله بالجلد ..!

في اليوم التالي اشتدت آلام الجراح على بـــدر ، والتـــهبت بشمس لاهبة حارقة ، وقد احتذت الأشياء ظلها فغرز بدر عدة عيدان ، ونشر فوقها كوفيته الممزقة ، وهـــدأا قليـــلاً تحـــت خيمتهما تلك فهي ظلهما حيث لاظل إلا الهجير ، ولا صـــوت إلا صوت الذباب الأخضر على جراح بدر وكأنـــه جيفـــة أو

ميت .. من أين جاء هذا الذباب كله ..؟بل إن نملتين متطفلتين ضالتين من النمال السوداء الكبـــيرة ارتقتـــا صـــدر بـــدر ، فأمسكهما الولد ، ومعسهما بيديه ، ثم دقهما بالحجارة دقـــاً ، فصرخ فيه بدر : لا تقتلهما ..!

ـــ:ولكنني فعلت..

ـــ: لقد ارتكبت إثماً كبيراً ، إن صرخة النملة القتيل حادة تصل إلى أسماع الملائكة جنود الله ..

ـــ:أنا لم أسمعها فكيف تصل إلى أسماع الملائكة ؟

ـــ:تلك حكمة الله ..فالنملة المقتولة تقول :إن ابن آدم قتلـــني ظلماً فاقتله ياربي كما قتلني ..أو اشوه في نار جهنم ليصـــرخ كصراخي ..!

فتح الولد فمه مبهوراً مما يسمع ، فبدر لا يمزح وهو يعـــرف الأسرار كلها ،وخيل إلى خليف كأنما النملة قد صرخت حقـــاً، وأنه يرى أثر صرختها شقاً واسعاً في السماء !

بعد أيام من زحفهما وسيرهما وآلام بدر ، بدأت الجـــراح تندمل ، وتجف مجدولة بالدم المتجمد كخيوط العدل !

وحين ألجأهما العطش إلى النهر صادفا رجلاً يساري النهر وهويفتش فيه بنظراته ، ويقلب وجهه فيه .. قال له بدر : عمّ تبحث ..؟

قال :ماشأنك ؟

ـ:لأدلك عليه ..

ـ:أنت لاتراه ..

ـ:فما هو ..؟

ـ: عصا سيدنا موسى ..

ـ: أنت يهودي إذاً..

ـ:نعم

ـ:ومنذ متى تبحث عنها ..؟

ـ:منذقرون ..

ـ:هل تظن أنك ستجدها ؟

ـ:قد يجدها أحفادي..

وضحك بدر من خرافة اليهودي الذي يظن أن عصا موسى وقعت في النهر ، وهم منذ ذلك الوقت يبحثون عنها فيه !

قال له بدر : فماذا ترى لنا ؟

قال اليهودي : أمامكم ظلمة كالموجة الحـــاقدة ، وأشـــواك كالأشجار ، ودرب لا نهاية له ، ولا يعود منه أحد ..!

ـــ : لعنك الله إنك ترى لنا ما تراه لنفسك ..!

وذات يوم تعثر بهما بدويان ، ما كان ممكناً تجنبـــهما فلـــم يكونا قريبين من مغارة ، ولا بطن واد ، ولا حـــرش ..كانـــا مكشوفين في البرية فالتقاهما الخيّالان البدويان ، صرخا بهمـــا: مكانكما ..افتوقفا كأنما قيدتهمـــا الصرخـــة ، دار حولهمـــا البدويان ، قال أحدهما : هاتا ماتحملان ..

قال بدر : لانحمل شيئاً ..

ـــ:وهذه الربابة ..؟

ـــ:أنت شاعر إذاً يالسوء الحظ ..!

ـــ:مار أيك أن تمدحنا ..؟

ـــ:سأفعل حالاً..

قال الآخر المتجهم :لامزاج لدي للأقوال الفارغة ..!

سأل الأول : أين تقصدان ؟

قال بدر :إلى أرض الله الواسعة ..

قال البدوي المتجهم : لاتحمل شيئاً وتريد أن تتشاطر..اسكت وإلا جعلت فصوصك تتلاحق ..!

لاذ بدر بالصمت إلا أن البدوي حقد عليهما لأنهما لايحملان شيئاً ، وضرب بدراً بسوطه عدة مرات قائلاً: لماذا لم تحمل معك شيئاً ينقذك ..؟أما فكرت أنني قد ألتقيك في الطريق..؟!

تشاور البدويان :صيد سهل لكن لافائدة منه كلحم الحصيني، وما كانا يتصوران أن سوء حظهما وطالعهما سيصلان إلى هذه الدرجة من الانحطاط، فقالا :لنعذبهما جزاء سوء الحظ ..!

قال الأول : اشلحا ثيابكما..

قال بدر : لانفع فيها لكما ..

قال البدوي الآخر : افعل ما يقال لك وأنت صامت ..لابد أن تدفعا ثمن فقركما ..!

قال بدر : ولكن ما كل صيدة حبارى ..!

قال البدوي الأول : ألن تكف عن التشاطر ..؟نحن نجعل كل صيدة حبارى ..سترى كيف تتحولون إلى حبارى ..!

نزع بدر والولد ثيابهما وأصبحا عاريين تماماً، ضحك البدوي المتجهم لأول مرة ، وقال : سنتسابق وإياكم ..

ـــ : سباق الأرنب والسلحفاة ..

ـــ : لاصبر لك يا عجوز النحس ..استبدؤون سباقكم حـــالاً وثيابكم المقملة تحت آباطكم لتصلوا إلى تلك التلة..وسنترككم حتى ترعى خيلنا وتشبع ثم نلحق بكم ، فإن وصلتــــم إلى رأس التلة قبلنا منحناكم حريتكم ، أمّا إن وصلنا قبلكم جعلنــــاكم عبيداً لنا تخدمون في بيوتنا ..

قال البدوي الآخر : لن تخسروا في كل الأحـــــوال ، فـــهناك ستشبعون بطونكم الخاوية على الأقل .

ركض بدر وخليف دون أن يضيّعا الوقت ، ظلاّ يركضـــان حتى التهبت أجسادهما ، وسبحا بعرقهما وأصبحـــــا يلـــهثان ككلبين عطشين ، ثم تقاصرت خطواهما ، وأصبحت أقدامهما تضرب بعضها بعضا ، تعثّرا غير مرة ، ثم سقطا علـــى الأرض إعياء عند سفح التل وقد تدلّت ألســــــنتهما مـــن أفواهـــهما كحطبتين جافتين ، فنظرا خلفهما ، وبعينيهما المجهدتين شـاهدا عجاجة الخيل فزحفا على مرفقيهما ، على ركبتيهما ، علـــى بطنيهما كالحيّات ، جرّحتهما الحجارة وخدشتهما ، وانغرزت الأشواك والحصّيات الناعمة في لحم جسديهما ، ووصلا أخيراً، وانطرحا فوق التلة فاقدي الوعي ، وإذ وصل البدويـــان قـــال أحدهما : لقد خسرنا وفازت الرمم ..!

قال الآخر : لم نخسر ..فهذان المعروقان كالخارجين من بطـــن حيّة لافائدة منهما حتى في الخدمة ..!

حين أدرك البدويان ثأرهما من حظهما النحس بأن حولاهمـا إلى جثتين لا تقويان حتى على الوقـــوف أو الحركـــة ، تابعـــا طريقهما راضيين عن نفسيهما ..!

ويومها حدثه بدر عن قساوة البدو ، فالله خلق الرحمة عشرة مقادير تسعة منها للحضر ،وواحد لأهل القرى ، ولا شـــــيء للبدوي..!

وحكى له عن القروي الذي نذر نفسه لاصطياد كل بـــدوي ينزل إلى النهر ..لقد باع الرجل نفسه لهذه المهمة التي لايعـرف أحد أسبابها الشخصية.كان يكمن عند النهر فإن جاء بـــدوي وحفن الماء بيديه شارباً تركه يمضي لحال سبيله ، فـــإن تمـــدد البدوي على بطنه وكرع في الماء كرعاً مد عليه بندقيته ، ومـــع أن الحية لم تنغض ابن آدم وهو يشرب ، فإنه كان يطلق عليـــه النار تاركاً رأسه يسقط في الماء كحجر .

قال الولد : فأين ذهب مقدار الرحمة من قلبه ؟

قال بدر : هذا كلام نسلّي أنفسنا به ، ونغسل قلوبنـــا بـــه ، فليس القرويون ولا البدو قساة ، بل هي البراري القاحلة الفقيرة التي تجعل الصيد يشمل حتى البشر ....

خليف يحمل الجفاف في قلبه

ليس البدوي هو العدو الوحيدالذي يطاردك في الـــبراري ، ويدلع لسانك ككلب عطش ، وليس الوحيد الذي يسلبك كل ما تملك ، ويتركك بآخر رمق تحوم فوقك طيور السماء منتظرة أن تنفق لتحط عليك ، وتمزقك..! الجفاف يفعل ذلك أيضـــاً ، وعلى نطاق واسع ، تنحبس الأمطار ، وتحترق الأرض فتصبـــح خالية حتى من الأشواك ، وتبدو كرغيف الخبز المحروق ..!

شاهد خليف وبدر الناس يهربون بقطعانهم قاصدين النـــهر المنقذ ، قطعوا البراري والفلوات مع أن أملهم بـــالوصول إلى النهر كان كأمل الغريق المتعلق بقشة ، فعلى طـــول الطـــرق والبراري تخطفت الأغنام الضواري الجائعة والبـــدو القســـاة، وتساقطت الأغنام النافقة منتفخة بحرارة الشـــمس ، منفجـــرة

بروائح كريهة ..اقطعان بكاملها سقطت علـــى الــدروب ، وقريباً من النهر الذي ماتزال تظنه بعيداً ، وقطعـــان بكلابهـــا وحميرها ورعاتها خبزت على الأرض ، وجمدت كأنما أخذتهـــا الصيحة ..!

رأيا بعض الناجين من الناس والدواب والكلاب وهم يصلــون إلى النهر مشققي الشفاه ، ألسنتهم ميتة لاتتحرك ولا تـــدور وكأنما دقت أخلّة فيها ثبتتها إلى سقف حلوقهم ..اوعندمـــا يصلون إلى النهر وكأنما وصلوا إلى نبع الحياة والخلود ، يرتمــون فيه بحميرهم ودوابهم وكلابهم وخيلهم ، وكثيراً ما نفقوا مـــن كثرة ما يشربون ..احدثهم بعض الناجين عن الجفاف فقـــالوا مر بهم طائر أخضر صغير ، حوم فوق منـــازلهم وخيامـــهم ، وصرخ بهم : قربنوا ..! فذبحوا الكباش وعلقوا رؤوسها علـــى أوتاد الخيام لتحميهم من الجفاف القادم كزوبعة غبار تلف كل ما تصل إليه يدها الباغية الكن الجفاف أتى مكشراً عن أنيابـــه دون أن يحفل بالقرابين المقدمة له ، وبذيله الجـــاف والصلـــب كالصخرة قتل كل ما لمسه ..! وحدها أسراب الطيور وجيوش الضواري التي رافقت الرحلة الطويلة إلى النهر المنقـــذ كـــانت ترتوي بدماء الضحايا ..!

مارآه خليف كان مرعباً ، فسكن في تلافيـــف الذاكـــرة ، واستقر في القلب ، وأصبح جزءً من ذاته ، حمله في دمه منــــذ ذلك الوقت !

وفي مسيره الطويل ذاك عرف خليف كل ما يعرفـــه عـــن البراري والناس والحيوانات والطيور ، وظل ما يعرفه من تلـــك الفترة واضحاً في ذهنه ، لاصقاً به كرائحة جسده ..!

خليف لايركب الرؤوس ، ولا يقطعها

بعد سنوات من الجري المتواصل حط العجـــوز في شمـــس الدين، و لم يكن ليتوقف فيها لولا أن قلبه توقف عن الخفقان..!

وقبل أن يموت بدر حدثه عن أهله الذين ذبحوا كالنعاج فـوق مناسف الطعام ، وتكومت رؤوسهم فوق المناسف إلى جـــانب رؤوس الأغنام المطبوخة لوليمتهم ..الأنهم كانوا رؤوس قومهم فقدوا رؤوسهم ، لم يسلم أحد لارجل ولاطفـــل ولاامـــرأة ، وخليف هو الشريدة التي هرب بها بدر ،عبد أبيه المخلـــص.. وعرف خليف سر السماء المشقوقة بصرخة مفجوعة ..اوأنه لم يولد من صخرة ، لكن ذلك لايحمل له عزاءً فللصخرة أخوات،

وليس له أحد ..! وعليه أن يعود على آثاره قصصا إلى ذلــــك الماضي ليعيد تركيبه ، ويرسم مصائر جديدة للمشاركين فيـــه أعداء وأقرباء ..! فلا بد أن يشـــعل النـــار في مواقدعشـــيرته وخيامها ، لأن المتصرين فرضوا عليها أن تعيش في حلكة الليل وحلكة الظلم ، وعليه أن يمتشق سيف العدل ويلاحق الأجنة في بطون أمهاتهم ، كي يقضي على أعدائه كما يقضي على قريــة نمل ، لن تسمع الملائكة صراخ البشر ، مع أنها تسمع صـــراخ النملة القتيل..!

ياللمهمة المستحيلة التي نذر لها..اليت بدرا لم ينقـــذه مـــن الموت ..!كيف يستطيع تحقيق مالا تستطيعه عشـــيرة ، وهـــو الوحيد الصغير الخلي من كل أسباب القوة ..؟وما لم يســـتطع تحقيق ما نذر له سيأكل الحقد قلبه ، لن يهنأ أبدا ، وهو الأمـــل الغامض الموعودة به العشيرة ...ماأصعب أن تكون أملا وأنــت لاتملك أي أمل ..!

ولأن بدرا تركه في بيت الشيخ حمد ، فإن هذا ســـرحه في غنمه ، فانشغل بها عن أحقاد لم يستوعبهابعد ..لكنها لم تتركه ينعم بالهدوء أبدا..!

وتصطل الأحلام كالحجارة !

كبر خليف وكبرت الأسئلة وكبرت الحاجات الغامضة التي تولد مع الكائن ، وتنمو مستترة في غفلة منه، إلا أنها كالآهات لايلقنه إياها أحد ، تستقر في القلب ، في بحر دمه فتخضّه كخضيض الشكوة ..!

تحاصره الحاجات والرغبات المستحيلة فيصبح رحب الأرض كجوف أفعى ويلح عليه الوجد والشبق فيصعد تلالاً ، ينزل أودية ، يلوب كالدائخ ، كالأثول ، وحين لايلفه برد الهدوء يفتح فمه مغنياً فتردد السهول والتلال والاودية غناءه الحزين المجروح الأشبه بالبكاء ، أو الأشبه بصراخ الحيوانات من ألم خفي..اويفتح الغناء الجروح ولا يبلسمها ، يفتح مسام الجسد كلها فتذرف دمعاً وألماً :

بالقلب رسمك / خلك بعيد بلاد / بالقلب رسمك

كلمن عاسمك /القلب له يفتاج / كلمن عاسمك

لكن الغناء لا يفك كربة خليف ، لاشيء يفك كربة رجل لايستطيع الوفاء بواجباته ،ولا تحقيق أحلامه ..اوجزء من عذابه يعود إلى ما علمه إياه بدر مخزن الحكايات والأساطير

والأسرار ، فما زال خليف متوهج الذاكرة يشده إلى الأمـــس البعيد والقريب عجوز يبيع المدائح بخبز لايشبعهما ، ومع هـــذا يظن العجوز أن الإنسان ، وإن ضعف أحيانا ، هو الأقـــوى ، فكل شيء خلق من أجله الكون والنساء ، الحيوانات والطيور ، الأشجار والماء...وكان موعودا بكل المسرات التي لم تعـــرف حتى الآن .. وإذا كان قد خسر ذلك كله بحماقة جدته الكبرى ذات العقل الناقص ، وبتدبير من إبليس اللعين ، فإنه إن أخلص النية يستطيع أن يستعيد ذلك كله ..!

لقد نقل له بدر إرثيه الشخصي والجمعي ،لكن إرثه الجمعـي المتعلق بالجنة التي فقدها ، والمسرات التي لم يطلع عليها ،يظـــل أقرب إليه ،واضحا وساطعا كالثريا في ظلمة الليل الدامســـة ، قريبا ودانيا لو شاء أن يمد يده إليها لوقعت علـــى جمـــع مـــن الحوريات الصاخبات المتلألئات بالفرح، الشفافات الهائمـــات كالأطياف ..!

أحقا يستطيع أن يعود إلى الجنة التي طرد منها جده الأكـبر ؟ ذلك ماأكده العابرون من شيوخ بسيديات ودون سـيديات إذ فتحوا له أبواب السماء والأرض والجنة ، وأملوه بالحوريـــات وهو الساكن الراضي بحمارته البيضاء التي صنعت على عينه ..!

تعلق خليف بهم وقد منحوا أحلام بدر قدسية ، أراد الرحيل معهم إلى السماء السابعة ، إلى الأرض السابعة ، لكنهم عادة ما يحملونه غموض تصوراتهم ، ويخلفون له كمشة من أحلام لاتزهر كالرماد ..! يمضون في غفلة منه دون أن يدلوه على الطريق ، ويحتجون بأن الطريق لن تظهر له ، ولن يستطيع أحد أن يدله عليها إلا إذا تخلى عن ذاته وعن رغباته ..؟فما نفع الطريق له إن تخلى عن رغباته ..؟

تنكر خليف للشيوخ لكنه احتفظ بأحلامهم وجعلها مطيته ، يركبها ويمضي لياليه منتظرا أن تمر به حورية أو جنية ، لافرق عنده ، أن تأتيه إحداهن وتختطفه ، وإذ يطول الانتظار ولا يختطف ، يناديهن ، يتوسل إليهن أن يأتين ليمضيا معا دون اتجاه ، لايتوقفان ، ليظلهما كهف ، مغارة ، حرش ، خيمة ، طوف يركبانه معا ويعودان إلى فم الأنهار ، إلى بداية العماء في رحلة الأجداد الغامضة..الأحد يأتي ومع هذا لايبقى له إلا الأحلام تمطره باخضرارها كالسراب ، ومع أن الأحلام لاتخضر إلا أنها تظل تساقط عليه كالمطر ، كالحجارة دون توقف ، فيسقط معها لأنه لا منفذ له سواها من أحقاد لايعرفها ، وحاجات لايملك أن يرويها ، فينفذ بنفسه إلى بئر قديمة ،

وينتظر أن يأتيه ثوران أسود وأبيض ليقول عامدا : أسـود دوك أبيض ! لينزل إلى الأرض السابعة ، ويقتل الأفعى المؤلفـة ذات القرون التي تمنع الماء عنهم منقذا ابنة ملك الجن ليتزوجها...فلا يأتي الثوران ، ولا ينزل إلى الأرض السابعة ..!

وتسقط الأحلام كالمطر فالحورية التي لم يرها أبدا جزء مـن الكون الذي يعيشه ، أكثر حيوية من كل ما حولـه ، أشـد صلابة من الحجر ، أكثر نداوة من الأشجار ، باردة كماء النهر في الليالي القائظة ..!

في كل مرة يدخل أحراش النهر يتملكه شعور بأنه سـيراها ولشدة التوقع يشعر أنه يراها حقا ، وأنه بالكاد يمنع يده مـن لمس ذلك الجسد الحليبي العاري المتمدد على بساط أخضـر ، حتى لايفزعه ..!

ولأنه لم يجد الدرب الذي يبحث عنه ، ولج الدرب الوحيـد المفتوح أمامه ، درب إبراهيم باشا ..! سيلتحق به ..وفي المدينة سيجد آلاف الحوريات ، وسيعثر على حوريته بينهن ، فهو لـن ينتقل وحيدا،فحياته كانت مكتظة ومزدحمة ومتخمة كبطـن شيخ ملهم ، بل سيأخذ سكان السموات السـبع والأرضـين السبع معه ، فهو لايملك أن يتركهم وقد أصبحوا جزء منه ..!

حقيقة كالحلم ، وحية كالماء

تريث خليف البدر طويلا .. مر الشتاء ، وهجر خليف قطيعه نهائيا ، وبدلا من أن يلتحق فورا بإبراهيم باشا ظل يتجول بين الأحراش والحوائج الملتهبة بحريق الشمس ، ورطوبتها الخانقة اللزجة ، بين طنين البعوض ، وصليل الزل ، وجعير الخنازير البرية التي لا ترى ، والهمهمة الخفية لحيوانات الأحراش التي تفاجئك في أي لحظة .

كان يظهر ويغيب كالأشباح ، يلمحه أهل شمس الدين بين أشجار الغرب والطرفاء ، على ضفاف الحويجة متوسدا نبات السوس ، ثم يضيعونه في لجتها الكثيفة الغامضة كلجة أفكاره وأحلامه .

قال بعضهم : إنه مخاو ..!

قال آخرون : إن صاحب الملائكة والجن عرف طريق الجنة ، وإنه سيذهب إليها ..!

سخر آخر : فماذا ينتظر ليذهب ..؟!

وقال ثان : أأرض النعيم يمكن السير إليها بملء الإرادة ..؟

وقال ثالث : لو الأمر بيدنا لرأيت الناس ينتظرون دورهم في طوابير ..!

وقال رابع : ما كان سيبقى أحد ، وستخلو الأرض إلا من الحيوانات التي لا تعقل ..!

وقال الشيخ إبراهيم : درب النعيم لا يظهر للفانين جميعا ، فكما تختاره يختارك ..!

خليف الذي يظن أنه تحرر من كل ما يربط الفانين بالدنيا،وحقق وحدته الكاملة كالرب يبحث عن يقينه، عن جنته، عن حوريته، لكن الدرب لا يظهر أمام بصيرته كعمود من النور ليتسلقه دون تأخير ..!

الذين جعلوا الحلم أقرب إليه من حبل الوريد لم يمنحوه بركة إبصاره في عماء النور أو وهج الظلمة ، وكل ما يملكه خليف أوصافهم الغامضة ، وهمهماتهم اليقينية الغارقة في ضباب ما لا يعرفون ..! لم يتركوا له إلا الكلمات ، الكلمات التي تزدهر كما الأغنيات في زمن العشق والصبوة ، وفي أرض المواجع والأحزان ، تتفتح كالأحلام ، وتلوح كمناديل من ورود نضرة..! إلا أنها لا تتحول إلى درب له ثبات اليقين ، وصلابة الحقيقة . يرتحل خليف في الكلمات ـــ الأحلام ، يطوي أوقاته

مفتشا بين هواجسها وظنونها و وعودها لكـــن الكلمـــات لا تسعفه ، ففي الكلمات ما لا يراه ، مالا يصله ، ما لا يضع يده عليه . لا تخضر الكلمات ، ولا تمتد طريقا لاحبـــا متوهجـــا كجسد أفعى مؤلفة ..!

سيجن خليف إن لم ير ، إن لم يتحقق من صلابة أحلامـــه ، إن لم تتحول الكلمات إلى واقع ، فلا شيء حقيقـــي إذن ، ولا شيء ممكن ، ولا سبب يدعوه للاستمرار بحياة لا تتحقق فيـــها الأحلام ..! ما الذي يبقى إن مـــاتت الأحـــلام ، وذبلـــت كالورود؟!

وفجأة ، وهو في غيبوبة أفكاره ، وزوبعة احتجاجاته تحولت الكلمات الى واقع ، إلى يقين ..! فما رآه لم يكن حلما طلع في ظلمة دامسة ، ولا تميؤات هاجمته في غبش المساء كالضبـــاب ، والمرأة لم تكن شبحا اخترق الأشياء ، ثم غادرها دون أن يـــترك رائحة أوطعما أو ملمسا ..!

لقد كانت رؤية يقينيه كنجم وحيد في ظلمة ساطعة ، لمسها كما يلمس ماء باردا ، شم رائحتها كما يشـــم رائحـــة وردة ندية، سمع صوتها كهمسة قرط في أذن الحسناء ..! هـــاهي ذي أمامه حية ، تنبض دافئة كجرح حدث للتو ..!

ومع أنه كان شديد التوقع لزيارتها ، وكأنهما على موعد ، إلا أنه أصيب بالذهول حقا إذ رآها تخرج من النهر عارية كما ولدتها أمها ، بيضاء تلصف كاللجين ، تتقاطر من جسدها حبات الماء ، أو تتدحرج على سيف نحرها ، أو تتوقف مترشة على النهدين كما على أوراق وردة ..!

قال : أنت ؟!

قالت: تحقق الوعد ..!

ـ : كاد يقتلني الانتظار ..

ـ : كنت قريبة منك ، لو مددت يدك للمستني ..!

ـ : لقد مددتها .. !

ـ : لو همست لأجبتك ..!

ـ : لقد همست .

ـ : لو صمت لسمعت صوت أنفاسي ، ورفة أهدابي ..!

ـ : لقد صمت .

ـ : لو أصغيت لسمعت نبض قلبي في عروقك .

ـ : لقد سمعته .

ـ : فانعم بما انتظرت !

ـ : سنأخذ وقتنا ..!

ـ : لا وقت نضيعه ..!

ـ : لن تذهبي ..!

ـ : من يأتي لا بد أن يذهب .

ـ : لن أفقدك ..

ـ : ما دمت تريدني ستجدني .

ـ : دليني على الطريق .

ـ : أنا الطريق .

اقترب منها فبهره الضوء الساطع وأعشاه ، تقـــدم تقـــود أقدامه حرارة جسدها المتوهجة ، اقترب أكثر فسمع خرير الدم في عروقها ، نبض قلبها ، فمد يدا ارتعشت كغصن فاجأتـــــه الريح ..! وآن لمسها هاجمته ارتعاشة قوية كطلقة صياد طائشـة أصابت طائرا وحيدا بالذهول ، فتناثر ريشه ، وانتفض ، ظـــن ألها تسحبه إلى الماء ، وحين استعاد رؤيته كانت قد اختفـــت ، إلا أن رائحتها كانت في أنفه ، ونعومة ملمسها ما زالت علـــى أنامله ..!

صرخ خليف : أي عدل يا رب ..؟ أيفقدها في اللحظة الـتي يجدها فيها ؟ حار كيف يمسك شيئا منها ، ذهب راكضـــا ، ثم عاد آيبا .. هاهنا آثار جسدها الندي علـــى العشـــب النـــائم

كالوسادة الخالية ، هاهوذا أثر خطوها ، هاهنا قطرات مـــاء رشحت من جسمها ، ملمسها ما زال على أنامله ، ورائحتـها ما زالت في أنفه ، وركض كالمجنون : أين أنت ؟!

وردد الصدى صوته ، ثم ساد السكون فسمع خريـــر المـــاء ، وصليل نبات الزل كالنواح ..!

زامل خليف النـــهر والأحـــراش ، خـــاطب الأشـــجار ، الحيوانات، النهر ، ساءلها عن الحورية ، ناشدها أن تدله علـــى الدرب ..!

وذات يوم عادت إليه ، لم يصدق ، فرك عينيه ، دعكـــهما بشدة ، أيتحقق الحلم مرة أخرى ..؟! لكن الخيبـــة كـــانت كبيرة، فهي لا تشبهها أبدا ، أين الثرى من الثريـــا ؟ توقـــف مبهوتا خائبا ..

قالت : ماذا تنتظر لتأخذني ؟!

قال : لست أنت ..!

ـ : أأضعتني بهذه السرعة ؟

ـ : أنت سوداء كالفحمة ..!

ـ : نظرك أصبح ضعيفا وانيا !

ـ : جسدك خشن ..!

ـ : أناملك فقدت حساسيتها ..!

ـ : شعرك كشجرة الحرمل .

ـ : جدلته بيدي !

ـ : عيناك ضيقتان .

ـ : لم تعد رغبتك كاملة في ..!

ـ لا يتوه قلب العاشق عمن يعشق ..

ـ فخذني بديلا عنها ..!

ـ ليس البديل كالأصيل .

ـ ما حدث لن يتكرر ..!

ـ دليني عليها ..

ـ ابحث عنها بنفسك ..

وكما جاءت من الماء عادت الى الماء ، وقالت وهي تغـوص في اللجة : ستندم لأنك لم تأخذ ما اتيح لك ..! وما يتاح مـرة لا يتاح كل مرة ..!

لكن خليف لن يندم ، لن يبدل الثريا بمسخ شـــوهاء ، لـــن يبدل الحنان بالغيرة ، الحب بالشهوة ، السلام بالحرب ، الفـرح بالانتقام ! فما الفائدة من انتظاره ، من بحثه لو فعل ؟!

لن يفقد اليقين مع أن من لا يعرف الطريق الى يقينه مضيع، سيتمسك بيقينه الى أن تزول الغشاوة عن عينيه ويظهر الدرب له مرة أخرى ، فما دام الحلم قد أزهر مرة ، فلا بد أن يزهر مرات أخرى ..! لكنه لن يتلكأ هنا طويلا ، فإبراهيم باشا ينتظره ، والدرب إليه مفتوحة وواضحة ، وهو يدرك أنه يسير إليه منذ قر قراره بالذهاب إليه .. ليذهب ، من يغير الأرض يغير الحظ ، فليبحث عنها في المدن البعيدة الغارقة في ظلال الرغبات الجامحة ، وما دام يحملها في قلبه ودمه سيجدها أينما ذهب .

على فريوة رام

سار خليف البدر إلى إبراهيم باشا على الدرب الطويل المتعرج كمسحال الحية ، في طابور طويل كالأسارى ، تحممهم شمس لاهبة ، فينحدر العرق في قطرات كبيرة باردة لا تلبث أن تتجمع في خيوط تمتص الغبار الجاف الدقيق الذي تثيره أقدامهم الحافية ، فتتحول خيوط العرق الى وحل أو ملح أبيض ينتشر فوق ثيابهم ، على الظهور والصدور وبين الأفخاذ .

يحف بالطابور الطويل جنود إبراهيم باشا وفرسانه ، وترافقهم عربات تجرها الجياد وهي تقرقع قرقعة مستمرة .

كان الطابور الطويل يضج بالحياة والحركة إلا أنه لم يلبث أن انتهى إلى الخمود والصمت ، فالمتطوعون الذين أرادوا أن يثبتوا لأنفسهم صواب اختيارهم ، وأنهم يذهبون بملء إرادتهم ، تعجبوا من كل ما رأوه وكأنهم لم يروه من قبل ، طاردوا ثعلبا يعبر الطريق ، وتحدثوا عن فصول أبي حسين وملاحمه ووقائعه في التهرب من الواجبات والالتزامات تساعده أوكاره المتعددة المنافذ ، تمليله للجاي ، وتعفيطه للرايح ، وقدرته على خداع ملك الغابات والبراري ، وهو لذلك قدوة أهل البراري ، وموضع اعجابهم وفخرهم ، ومثلهم الأعلى في تدبير النفس عندما تدلهم الخطوب ، وتعلق كل شاة بكرعوبها .

وحاصروا نيصا وقتلوه بالرغم من قذائفه الشائكة كالمخط ، وطاردوا قنافذ تلفلفت على نفسها ، وكلما نخسوها في موضع الرأس تدحرجت متكومة على نفسها ، وهكذا تصبح أمنع من عقاب الجو ، ومن ثعلب متعدد المنافذ ، والقنفذ من أمثلتهم العليا التي يتماهون بها ، ويتشبهون بها ، فعندما لا تعود الحلول ممكنة ولا الهروب متيسرا يتصاغرون وينطوون على أنفسهم ،

ولا يظهرون رؤوسهم إلا وقد مرت العاصفــــة . و لم تســـلم طعوس أبي عماية من عبثهم ، ولا غيران العقارب التي بـــالوا فيها فهربت من الطوفان إلى رؤوس أصابعــــهم ، وراحـــات أيديهم ، فحرشوا بينها ، وتعصب كل لعقربه فـــالتحمت في قتال مميت ضار !

كأنهم كانوا يمرحون في براريهم ، كـــأنهم لم يغادروهـــا ، وحين تعبوا من الحيوانات والزواحف ، عادوا إلى أنفســـهم ، تنافسوا ، تنابزوا بالألقاب ، تلاعنوا ، تســـابوا ، تشـــاتموا ، مازحين ، بالمحرمات والمقدسات ، كأنهم ينتقمون ، من كـــل مالا يمس ، من الرموز التي يخشون الحديـــث عنـــها علانيـــة باستهانة ، مستغلين تسامح المزاح ، وغطاءه الخفي الساتر ..!

طول الطريق والشمس الكاوية والقلق المستتر خلف الحيويـــة المضللة جعلتهم يهدؤون ويهمدون ، ويشـــحطون أرجلـــهم الحافية وكأنهم طابور أسارى ..!

وتساءل خليف فجأة : لماذا يذهب هؤلاء جميعا ، وإلى أين ؟ كيف يدندلون رؤوسهم كالمســـاطيل ، وينقلـــون أقدامـــهم كمساقيل الططوات لا يعرفون إلى أين يقادون ؟ مـــا الـــذي يؤجج قلوبهم بالحماسة ، وعقولهم بالآمال .؟

ربما الخوف من ثارات قديمة ، العجز عن تحقيق أمان لا سبيل إليه في أرض لا ثبات لها ، تنقض اليوم ما أبرمته بالأمس ، وربما الخوف من الجوع ، الوحشة في أرض لا جديد فيها ، الملل من معاشرة الحيوانات والحجارة التي لاتنبت إلا حجارة ، الطمع بالغنى ، بالمكاسب بالغزو المبرأ من الثأر الذي لاتعقبه مطاردة حتى الموت .

كل يخفي سره في قلبه ، يلفلفه بأقمطة لا ينزعها أبدا .. لا بد أن ينطوي القلب على حلم غامض ، أمل غامض ، خوف غامض ، يجعل الناس يدبون نحو أهدافهم ، وما لم يكن في القلب ما يحركه فإن الموت مصير الحي .

التفت خليف إلى جاره في الطابور فقال حماقة يعرف أنها حماقة لكنه يريد أن يتحدث ، يستكشف ما في القلوب : لن يحاسبنا أحد عما نفعل حين نصبح جنود ا ، وسيكون كل شيء مباحا لنا ..!

رماه جاره بنظرة ساخرة زاجرة : وهل حاسبك أحد في براريك ..؟ لا يحب خليف الأجوبة التي تنتهي بسؤال ، فهذه غالبا ما تقود إلى الاختلاف الذي يؤجج الحديث أو يقتله في مهده ..!

تجاوز اعتراض جاره وقال : سيستقبلنا إبراهيم باشا بنفسه !

قال الآخر باستهانة : ستستقبلك سياط العسكر ، ووجوههم الكالحة .

أزعجته إجابة الرجل الذي يصر على الاختلاف معه ، فقال : ماذا فعلنا لنستحق ذلك ؟

ـ : وهل يجب أن تفعل شيئا ؟

ـ : بالطبع ، كيف تحاسب على ما لم تفعل ؟

ـ : سيربونك على الطاعة ، فكيف تتربى عليها إلا بالضرب والركل والزجر ؟

ـ : انك تخرف يا رجل ، فأنت لا تعرف إبراهيم باشا ..!

ـ :وأنت كالدابة وعدت نفسك بما لن تراه ..!

كاد يخرج عن طوره ويمسك بخناق الرجل ، لكنه كظم غيظة وقال :

ـ : ما دام الأمر كما تقول ، فلماذا جئت أنت معهم ؟!

ـ : أتظن أنني جئت متطوعا ؟

ـ : أأجبروك ؟ ولماذا ؟ أبرأسك ريشة ؟

ـ : يختلف الأمر في المدينة عما هو عندكم في الريف ، فمنكم يأخذون المتطوعين بعد أن يرغبوهم بالطعام والجامكيات ، أما

في المدينة فإنهم يفرضون أن تقدم لهم المدينة كل سنة عددا من العسكر من شبابها ، وكنت أحد هؤلاء ، فهربت مع بعض أصحابي الذين تشتتوا في البلاد ، وقد قادني حظي الأسود إلى بعض الأعراب ، فشلحوني ما أملك ، ثم وشوا بي لجنود إبراهيم باشا ليقبضوا عن ذلك ، فهم لا يملكون أن يدفعوا إغراء الليرات الذهبية اللامعة كنجمة الصباح .

أراد خليف أن يخاصمه ويهينه فقال : ما كان يجب أن تهربوا فالجندية للرجال !

ـ :من يذهب لا يعود ..!

ـ :لن يعود من خلص خبزه من الدنيا !

ـ :من يدخل الجندية يخلص خبزه .

ـ :الخوف هو الذي يجعلك تقول ذلك.. أأكلت قلب فرخ ؟

ـ :لماذا أنت متحمس وكأنك تذهب الى دبكة ؟

ـ :وأنت تريد أن تحول الدبكة إلى جنازة !

ـ :أتعرف أنت أيها المتباهي كالديك من ستحارب ؟ولمصلحة من؟

ـ :سأحارب أعداء إبراهيم باشا ..

ـ :ومن أعداؤه ..؟

ـ :العصملي .. وهم أعداؤنا أيضا فــهم يكتمــون أنفاســنا بمأموريهم ، وعساكرهم وجباهم وبغالتهم ! إنهـــم يســـرقون اللقمة من أفواهنا .. يأخذون الضرائب عنا وعن الأغنام والجياد والحمير والبغال والكلاب ، مؤونتنا تتحول علفــا لدوابهــم ، وحميرنا وبغالنا لجر عربات جيشهم ، وخيولنا لفرسانهم ، إنهــم لا يتركون لنا شيئا ، فالقرية التي يمرون بها لابــد أن يفســروا جلدها ، ويتركوها عارية في عاصفة الحاجة ، وزوبعة الجوع..! إبراهيم باشا أرحم من العصملي ..!

ـ :لن يكون كذلك لو استتب له الأمر ..

ـ :هو كذلك الآن ..!

ـ :لا تنتفخ كروش الحكام إلا إذا جعلونا كالخراف الهزيلــة، ولا تعلو تخوتهم إلا إذا أرسلونا إلى الموت !

ـ :فما دام الأمر كذلك فلنمت من أجل إبراهيــم باشــا لا العصملي ..!

ـ :لن نفلح ما دام الغرباء يتحكمون فينا ، كلهم سواء ..!

ـ :فما العمل ..؟

ـ :نطرد العصملي وإبراهيم باشا ونضع رأسا منا .

ـ :وبمن نشد أزرنا ونحن حزمة حطب يابسة .؟!

ـ : لنشدها بأنفسنا ..!

ـ : إذن أنت تطلب الحاجات من غير أهلها ..!

على الرغم من أن الحضري أثار مخاوف عجـــت في قلـــب خليف كزوبعة غبار ، إلا أنه زهد في حديثه ، لأن الحضـري لا يحب إبراهيم باشا ، ولا الجندية ، ولا يرغب في رؤيـــة أرض جديدة لم تطأها قدماه ، فكيف يكون الرجـــل رجـــلا إن لم يرغب في معرفة ما لا يعرف ، وتجنب كشف المستور والمخبوء والمتواري في عماء الجهل والزمن ..؟!

إن هذا الرجل من شدة خوفه لايستطيع أن يبول نفسه لـــو جن عليه الليل ، وخليف يراهن على ذلك بجامكيتـــه الـــتي لم يقبضها بعد . ولو كان الأمر بيده لتركه يذهب في حال سبيله، فهو وصمة عار في جيش إبراهيم باشا الذي يطوي خليف إليـه الأرض ، بعد تريث طويل .

حين أشرفوا على حلب كانت الطريق قد أكلت أقدامـــهم ، وتشربت بعض دمائهم ، وكان خليف ينهض بعنقه ، كلمـــا قطعوا مرحلة ، ليرى حلب دون جدوى ،وفجأة ظهرت لهـــم المدينة ،وكأنها نبتت للتو أمامهم،وهم يشرفون عليها من عل..!

وبدت المدينة بيضاء كالحمامة ، ومآذنها تشق السماء الزرقاء كأعمدة من نور ، وقبابها تتكور كأرداف امــــرأة خرافيــــة ، وتضيع حدود المدينة في البساتين والأحراش .

وعندما دخلوا في جاداتها وأزقتها وأسواقها تبــــين لهـــم أن الأسواق محجوبة عن الشمس ، والبيوت متجاورة متدانية يزحم بعضها بعضا ، تفصلها أزقة ضيقة ومتداخلة ، وفيما بعـد أدرك خليف أن هذه وسيلة دفاعية ، فهم يتحصنـــون في بيوتهـــم ، ويغلقون الحارات في وجه مهاجميهم .

و لم تصافح عيناه أي امرأة ، وهــــو يـــدب في شـــوارعها وأسواقها ، فأصيب بخيبة مريرة كخيبة ثعلب سمع قوقأة و لم يجد صيصانا عندما اقتحم خم الدجاج .

برزخ بين مقامين

أيام التغريبة الحلبية

الخروج من جوف الأفعى

يقتل الرجال ، قبيل الغروب ، وقتـــهم الـــذي يكرهونـــه كعسكري عصملي في لعبة سمجة لالون لها ، يلعـــب اثنـــان ، وينتظر الآخرون بصبر النملة خسارة أحد اللاعبـــين لينزلوا إلى الميدان ، إلا أن اللاعبين اللذين ينقلان بين أيديهم وحفـــــر في الأرض حصى صغيرة صلبة الملمس إلى ما لانهاية يسأمان مـــن التكرار المقيت ، فيستغل المهزوم غضبه الجريح ليفـــرج عـــن نفسه، فيقوم خابطا الأرض بالحصى ، صارخا في وجه الآخر : وطاسة ويس إنك مخاو وإلا لما غلبتني ..!

قال المنتصر : ما هي بعلومك ، حجة الخسران ضعيفة .

رد الأول : أمي وأختي يصيرن لي نسوان إن لم أغلبك في المـــرة القادمة ، ولو لعب معك جن الأرض كلهم !

وفيما هم مشتبكون بأيمانهم الوثنية، وأدعيتهم التي لها نكهـــة الجنس المحرم أقبلت الفتيات من النهر حاملات قرب الماء علـــى حميرهن ، وفي أسماعهن ترن عبارات الغزل المخطوفة من أفـــواه محروسة بالعيب ، يتبعهن كلبهن الذي يركض لاهثا ، دالعـــا لسانه ، فكلب الورادات مثلهن ، يذهـــبن عطاشـــا ويعـــدن

عطاشا، إذ لا يشبعهن الهمس المخطوف كرعشة الرغبة المخمورة ، بل يثير شهيتهن إلى مزيد من كلام واشتباك حميم لا يكتملان أبدا إلا في خلوة ليل ..!

وإذ أقبلن انفض جمع النسوة اللواتي أجلن نمهن ودسائسهن المحبوكة في حكايات مخاوية إلى وقت آخر ؛ ولعن الشيطان الرجيم الذي ينطق بلسانهن ، مع أن نمائمهن تمنح الشيطان دروسا مبتكرة في المكيدة ، وانصرفت كل واحدة منهن إلى آخر أعمال النهار المؤجلة متعجلات ، قبل أن تعتم العين ! فأضرمن النار بأعواد الغرب والطرفاء وكراسي الجلة اليابسة ليخبزن ، أو ليطبخن عيش اللبن ..

نبحت بعض الكلاب ، فانتبه الرجال المتشاحنون الغارقون في حمأة الأيمان المغلظة ، التي تسمي الأعضاء المحرمة بأسمائها الفاجرة ، وبحماسة وضعوا أيديهم على حواجبهم يستكفون الشمس الغاربة ويرقبون القادمين ، وقد نسوا شجارهم الذي وصل إلى الشيطان الرجيم .

عبر القادمون من جهة الحويجة ، وخوضوا في النهر للوصول إلى شمس الدين ، وتساءل بعض الرجال : من يروح إلى شمس الدين مرواحا ؟

صاحوا بالكلاب ونهروها ، إلا أن إغراء النباح حملها على استقبال القادمين ، وحين قاربتهم كرت راجعة ، ثم عادت إليهم دون أن يكون في نباحها عنف الهجوم ..كان الأولاد قد وصلوا إلى القادمين ، و لم يلبثوا أن رجعوا راكضين بغنيمتهم من الملبس الذي حصلوا عليه بحفنات كريمة فبارتهم الكلاب وركضت أمامهم في زفة نباح ..!

تجاوز القادمان مخاضة النهر الأخيرة ، وتقدما في أرض الزور الطينية والشمس التي تتقفاهم تطرح ظلها طويلا أمام المنتظرين، وإذ تبينوا الملامح ، همهم بعض الرجال : أليس هذا خليف البدر ؟

قال آخر : أختي تصير لي مرة إن لم يكن هو خليف البدر !

قال ثالث : إنه هو بشحمه ولحمه ..

تقدم الرجال بصخب لاستقبال العائد الذي لم تخفه عليهم بدلته النظامية ، ولا شارباه المعقوفان .وصاح أحدهم مرحبا:حي الله أبا زهية ..!

ـــ: ما يغيب إلا يجيب .

ـــ : من طول الغيبات جاب الفوايد .

ـــ : إنه لا يخفي شيئا ، امرأة وفرس وبارودة .

ــ: وهل هذه قليلة؟

ــ:إنها كل ما يحتاجه الرجل .

عانق الرجال خليفاً عناقاً حاراً،وطـــار الأولاد كالشـــواهين ناقلين الخبر إلى كل بيت ، فتقاطر الرجال من البيوت وتركـــت النسوة عيش اللبن في قدوره،أو دلقنـــه في الصيـــاني ليـــبرد ، ولاحت أخريات أرغفتهن الأخـــيرة علـــى الصـــاج بعجلـــة فتشلوطت،وركضن ليرين ابن شمس الدين الحكومي الذي عـــاد بامرأة حضرية، فلا يعود خليف إلى شمس الدين كل يوم.

يُطمر الغائب بالزمن كما يطمر الميت بالتراب ، لكنـــهما لا ينسيان أبداً في قرية صغيرة منكفئة على نفســـها كشـــمس الدين التفاصيل الصغيرة المستحيلة النسيان كطعنة في الشـــرف زادها اليومي ضد النسيان والكينونة الضيقة كجوف الأفعـــى ، لذلك تلقفت شمس الدين خليفاً واستعادته من ذاكرها ســـلاحاً ماضياً ، حكته كما يحك الزناد على الحجر ليقـــدح ، وكمـــا تحك خنجراً صدئاً ليلمع في الشمس نظيفاً ماضياً نابضاً بالحيـــاة كأنما لم يغب قط لتملأ زمناً فارغاً يتوالد بلا نهاية كســـراب في الصحراء .

وصلت النسوة فأحطن بالمرأة ، وقدها معهن ، وتلقّى الشيخ حمد والسيد إبراهيم خليفاً ، واحتضناه في عناق حميم ، وقـــال السيد إبراهيم وهم يجلسون : لقد غيّرك السفر يا خليف ...

قال مواس المحيمد : قل غير هذا الكلام يا سيد إبراهيم ، عليـــم الله كأنه ذهب البارحة ، لولا شارباه المعقوفان اللذان يقـــــف النسر عليهما .

تجاهل خليف تعليق مواس الذي يحمل مســـحة ســـخرية ، وقال: الذي بالبال مازال بالبال يا سيد إبراهيم .

فقال الشيخ حمد : لاتقل لي أنك سترجع إلى صحبــــة الجـــن والملائكة !

قال خليف : ومن يستطيع أن يفارقهم ..؟

فرد الشيخ حمد : لقد فارقتهم وأصبحت ابن حكومة .

قال مواس : لا تؤاخذنا يا خليف ، فليس لدينا إلا هذه الأجلّـــة التي لاتليق بهدوم الحكومة .

رد خليف غاضباً : لم تتغير يا مواس اطول عمرك وأنت تقـــول الهايتة والبايتة ، أهذا وقت مزاحك ؟

قال الشيخ حمد : يمزح من فرحته بعودتك .

قال خليف مبتسماً : بلى إنه يرقص من الفرح ..!

قال مواس : بل سأطير من الفرح .

قال خليف :ماحنا خلصانين منك موكر فكيف إذا طرت ؟

غابت الشمس مخلفة شفقاً دامياً ، فاج أحد الرجال الرمـــاد بحثاً عن الجمرات المخزونة المورّثة في الموقد ، فظهرت باحمرارها الدافئ ، ووضع فوقها شيئاً من الحمري ونفخ عليـــــها عـــدة مرات، دخنت قليلاً ، ثم شبّت فأضاءت عتمة الخيمة .

سأل خليف عن القرية وأهلها فأجابه الشيخ حمد : نحـــن لا رحنا ولا جينا إلا من أراحه ربك من شقاء الدنيا ، وحالنا كما تعرفها مثل لحم الحصيني . . .

قال مواس : علومنا علوم باب حران إإن جاء مخـــاض الحـــوّا تفازعنا إليها ، فإن ولدت الدرعاء زغردنا ، فإن كان المولـــود توأماً لم تسعنا الأرض ، وأما إن ولدت امرأة ولداً ذبحنا الذبائح وكأنها ولدت أبا زيد ، أو كأننا كسرنا العصملي ، فإن ولدت المرأة بنتاً فالويل لها ، يصبح بوز الأب شـــبراً وكـــأن امرأتـــه خطفت . . .

قال الشيخ حمد مقاطعاً : حكاياتنا كلها تعرفها ، فاحملنا الليلـة على حكاياتك التي لا نعرفها.

وقال السيد إبراهيم : نعم حدثنا يا خليف ..فها أنتذا لم تمـــت كنعجة ضالة أو كبش أجرب .

ضحك الرجال ، وسأل مطر العلي : هل حاربت العصملي ..؟

ـــ:العصملي بس ؟!

ـــ:كفو خليف ومن أيضاً ؟

ـــ:الفرنجة .

ـــ:و هؤلاء من أين طلعوا لكم ؟

ـــ:من وراء البحر

ـــ:كنت أظن أنكم تحاربون العصملي ..؟!

ـــ:بعد أن كسرنا العصملي مرات أصبح جنودهـــم يروننـا ويرون عزرائيل ، يفرون أمامنا كقطيع غنم هاجمته الذئـــاب ، هم يفرون ونحن نقترب من الأستانة ، ولو لم يأت الفرنجة لكنـا الآن فيها وأنت نائم في فراشك يا مواس تشم رائحة آباطك ..

قال مواس بسرعة بديهة : كنت نائماً وقعدت عليك وأنـــت تزحر أمام أبواب الأستانة تريد الفزعة فشممت رائحة مخـــاض شهريتي ، فهل أفزع لك أم لشـــهريتي ؟ليتــك رأيــت مـــا وضعت..جحشاً صغيراً حافره برقبة السلطان وإبراهيم باشـــا معاً..!

قال خليف : لو لم أكن ضيفاً يا مواس لحرمتك أن تجلس بـــين الرجال ...

قال الشيخ حمد : اتركونا من نقاركم ، واخبرنا لمـــاذا جـــاء الفرنجة ..؟

ـــ: فزعة للعصملي

ـــ:أيحبون العصملي ؟

ـــ:بل إنهم يريدون رجلاً ضعيفاً كالخاتم بإصبعهم يظل سـلطاناً على الأستانة ، فلو دخلها إبراهيم باشا لما تركهم يرونها حتى في الأحلام ..

ـــ:وماذا فعل إبراهيم باشا ..؟

ـــ:الكثرة غلبت الشجاعة ، لقد عاد إلى مصر ، لكنه أقسم قبل أن يذهب بأنه سيعود بعسكر كالجراد ليطرد العصملي ويقيـــم سلطاناً للعرب من أنفسهم .

مضى أكثر الليل ، وتنفس الصبح وشمس الديـــن تتنفـــس حكايات خليف، وتعيش في حوادثها العجيبة التي لا تخطـــر في بال حكايات العجائز التي تُعاش في ظلمة الليـــل وتنســـى في الصباح ، ولبس الشمدينيون حكايات خليف فخرجـــوا مـــن الزمن الفارغ المر المذاق كالحنظل ، ومن براريـــهم الموحشـــة

المنسية ، ومن جلود بنات آوى المذعورة ..فطاردوا العصملي إلى أبواب الأستانة ودقوا الأبواب بغضب رجولي ، وارتعد السلطان خوفاً وفزعاً ...

وبالرغم من أنهم نفضوا خرج خليف في ليلة واحدة ، إلا أنهم سيظلون ينبشون في أخصامه طويلاً ليعثروا على حكايات جديدة يلبسونها في أيام راكدات أخر .وقبل أن ينسل الخيط الأبيض من الخيط الأسود خرجوا إلى خيامهم يدبون،فاستقبلهم إبراهيم باشا عائداً بعسكر كالجراد فالتحقوا به عن بكرة أبيهم..!

خليف عسكري نظامي

ساقوا المتطوعين كالقطيع ، سجلوا أسماءهم في سجلات كبيرة ، ودفعوهم إلى الإعلان عنها بأصوات وحشية عالية ، استفسروا عن الأماكن التي جاؤوا منها ، عن أعمارهم ، ولما لم يكن خليف يعرف سنة يعتمد عليها في تحديد مولده ، قال ساخراً :ولدت سنة طيّر الكعوب ..!

فسألوه : متى طيّر الكعوب ؟

قال : سنة باض الحمام على الوتد !

ـــ:ومتى باض الحمام على الوتد ؟

ـــ:سنة حلب التيس ..!

ولو تركوا له الحبل على غاربه لتحولت سنة ميلاده المجهولة إلى سلسلة لانهاية لها كحكاية البرغوث الذي وقع في قدر الشوربة ، إلا أن أحد الجنود أنهى استرساله بأن قذف إليه ببدلة نظامية وتاسومة ،و قال ساخراً : إنها لباسك إلى سنة تـاكل فيها(...!).

ثم قادوهم إلى الحلاق في طابور طويل فقصوا أظافرهم وشعرهم ،وجردوهم من ثيابهم وكوموها وأعطوها النار حتى لاينتقل من تلك الهروس القمل والمرض إلى الآخرين.وفي الحمامات المكتظة بالعريانين الذين يتفرجون على بعضهم بعضاً دون حشمة أزالوا سافات الوسخ المتراكمة على جلودهم كالوحل. خليف الذي كان يخشى من تلصص طيور السماء على عريه ، وهو يستحم في النهر ، فيغطي محاشمه بيديه ، تركها في سوق العري المتعدد القياس والأحجام ، فأثارت

الدهشة والتعجب ، ولاكت الألسن أفحش أقوال سمعها خليف منذ ولادته !

لقد ربوه كما يربّ المبيض النحاس ، فلمع ناصعاً كـالنجوم أو كالقمر البدر ، وتمنى أن تأتيه حوريته ، وجزم بأنها ماكـانت لتتركه لو رأته في حلته الجديدة ، وحار كيف تدس نفسها بـين هذه الخلائق المتلاطمة التي تحيط به والتي لاتترك المـرء يختلـي بنفسه ، ولا تتيح له أن يقبض على أحلامه .

يهجهجون بهم طوال النهار ، ويطاردونهم كثعالب عـدت على قن الدجاج ، وفي المساء يغفو الواحد منهم وهو يحمـل القصعة منتظراً طعامه ، أو وهو يأكل ، وفي الليل يرتمون فـوق وسائدهم كالخراف المذبوحـة لا تداعبـهم الأحـلام ، ولا تهدهدهم الحوريات ، وحتى حين تبلل الأفخاذ بلزوجة حـارة مربكة في الليلة الدامسة الظلمة ، تبلل دون زيارات ليلية ما..!

خليف يغني لوردة الصباح

يقتل المهجع وحدة خليف ، فكما يزدحم جسده بالآخرين ، تزدحم روحه بهم كغصة ماء لاعلاج لها فلا تنجو جنة عزلتـه

من الاستباحة كالفجر تستبيحه الديّكة الصخّابـــة ، فـــترتبك روحه ، وتضطرب حوريته ، وإذ تدخل الأصوات بينهما تخرج من حديث حميم لا يكتمل أبداً ، فلا يملك حتى فسحة لمراقبـــة الثوب الذي يرفرف خلفها كمنديل وداع ..

ـــ:عليهن يا خليف ..

ـــ: ما لي كيف ..

ـــ: لو كنت عاشقاً لغنيت ..

ـــ: ليس العاشق وحده الذي يغني ..

ـــ: لكن الراعي لاتقع عينه إلا على حمارته ..

ـــ: وهي خير أنثى في البراري القاحلة ..

قال خليف : إن فيها من العقل أكثر مما فيك ..!

ـــ: اسأل مجرب ولا تسأل حكيم .

ـــ: أحلف بالسبعة الحارمات إنك اكتفيت بالرائحة و لم تمـــص العظم ..

قال خليف : تركنا العظم لك..

ـــ: أتسخر ؟لقد ركبت نساءً بكثرة شعر رأسك ..

قال خليف : عليّ الحلال لم تركب إلا إيدك ..!وأنت مثـــل تيس الماعز قبل الإحناء يقول كل الماعز لي ، وحين يأتي الموسم،

يقول ماعزنا يكفينا !وإذا كان تيس الماعز يقفط عترته ويضـرط فأنت أعجز من أن تنط على واحدة ..!
يضج المهجع بالضحك والتعليقات المتناثرة كمطـــر حميـــم ، وتعود الرغبة بالغناء طاغية : اتركونا من الهـــذر ..وليمتعنـــا خليف بأغنية ..

وتتشارك الأصوات بالطلب المرغوب .وتصفو نفس خليف، يتنحنح استعداداً للغناء ، فيسكّت بعضـــهم بعضـــاً ، تهـــدأ الأصوات ويرين هدوء عميق يمنح سقوط الإبرة ضجة الروح في عزلتها ، ويغني خليف ، يغني غناءً عذباً حزيناً يمـــزق القلـــب ويلون الدنيا بالسواد ..ويترك خليف المهجع والجنود ويطـوف في براريه ، بين حيواناته ، حمارته البيضاء التي صنعت على عينه فيرى الحجارة تبكي ، والأشجار تبوح بسرها ، والنهر يغـــني أنشودته الخالدة ، ويقوم أهل القبور نافضين رائحة الموت عـــن أكتافهم حاملين أكفانهم على ظهورهم كأنما كانوا في زيارة لم تسرهم ، ليبنوا بالحديثات بيوت الحب التي تمطرهـــا الســـماء بالسحاب المبارك ، ويتوحد خليف في براريه كالرب في سمائـــه فيرى الدنيا (قمرا وربيع وموت مامن) ..وتخطر حوريته أمامه

متعرضة له بغنج حيي..ولا تكتمل اللمسة الدافئة فـــالأصوات تقتحم وحدته :

ـــ:أهذا هو الطرب ياخليف ؟

ـــ: لقد أغممتنا وأبكيتنا ..

ـــ: لم يبق إلا أن نفتح مناحة ..

ـــ: اصمتوا ياجماعة..من منكم يجيد الندب لندخله في السباق؟

ـــ: لقد صمتنا ولكن من يقنع خليفاً بالصمت ؟

ـــ: اعطوه ليرة ذهبية فيسكت ..

لايتوقف خليف عن الغناء ، تسكت الأصـــوات المحتجــة والمستنكرة ، تهمد أو تنسحب مطاردة أحلامها وأوهامـــها ، يصغي من شاء الإصغاء ، ويخفت صوت خليف رويداً رويداً ، يتسلل إلى قلبه ، يتخلل شراينه ، يفتح مســـام جلـــده ..ولا يسكت إلا حين تخنقه الدموع الصامتة المنحدرة كزخة مـزن .. ومن خلل دموعه يرى ، كما يرى دائماً ، أنثـــاه ، حوريتــه البيضاء الثلجية تتمدد على العشب برشاقة ، وتومئ بيدهـــا ، يقترب ..ويقترب ..ويمد يده المرتعشة بقدسية اللقاء فتكتمـــل اللمسة التي لها نداوةوردة الصباح ، وملمس الماء المنعش .

خليف يذوق طعم حواء

ذاق خليف طعم الأنثى ، بالرغم من حصار الجسد والروح ، فعرف أبجدية الجسد التي لا تحفظها الكلمات ، ولا تستوعبها الأوصاف ، بل تسري في الجسد نسغاً كالسحر ، تستوطن الدم عطشاً لما لانقبض عليه ، فنظل نركض لإروائه ، ويظل يفوتنا دائماً كالسراب.

خرج خليف مع صاحبين له إلى البساتين هاربين من ضجيج القطيع ليصطادوا الدرّاج والحجل والقطا ، و لم يدرك أنه سيصطاد الصيد الأجمل والأصعب ، وأنه سيمضغ كل مرارات الحياة ليستعيد طعماً يظل بكراً لا يحفظ .

ساروا في البساتين بصخب ساخرين من عدة الصياد الملفوفة بالحذر ، فأفزعوا الطيور والحيوانات التي فرت متوارية ، منكفئة على نفسها كرعشات وجلة ، ترقب مرور الوحوش التي لا ترحم ..!

وحين برق للحظة خاطفة جسد أبيض ، لمع كسيف يهوي ويغيب بين الأشجار تجمدوا ، اعتقدوا أن ما رأوه خيل إليهم ، برق في نفوسهم ، لمع في مخيلاتهم ، وإلا فمن أين تأتي المرأة ..؟

ردة فعلهم الثانية كانت مصافحة صامتة بالعيون المدهوشة المتسائلة : أرأيتم ما رأيت؟!

وعاودهم حذر الصياد الذي له حاسة الجوارح لالتقاط الجثث النافقة ..حبسوا أنفاسهم ، وقلوبهم تدفر صدورهم بصخب وضجيج ، تقدموا على حذر ، تقودهم أجراس الشهوة الخفية المتفتحة على خبز الجسد الأبيض ، دم الضحية ، فوقعوا على العري اللاصف كالسيف ، امرأة ورجل عاريان كأنما هما آدم وحواء ينبعثان في عريهما الذي يأكل شجرة المعرفة ، ولا يكتشف عورته ، فيتوهجان بالشبق الأثيث كشجرة الخلد .

طار صواب الرجال ، وركضت الدماء حارة في شرايينهم ، وتهيأ الباز ليخر على الطريدة المخمورة بنشوتها ..صرخوا جميعاً بصوت واحد : قف ..!

لم يستجب الرجل للصراخ الآمر ، لم يفهمه ، لم يستوعبه ، وربما لم يسمعه ، إلا عندما اصطدمت البنادق بلحم جسديهما، فتجمدا معاً ، خلصوهما من بعضهما ، سحبوا كل واحد على طرف لينهيا تداخلهما،وقالوا للرجل المدهوش:انصرف ..!

كرروا قولهم عدة مرات ، فقال الرجل : إنها زوجتي ..!

وبرقت عيناه بغضب عاجز ، حاص في مكانه يبحث عن شيء يسنده ، أم ليواري عريه ..؟لكن طلقة متعجلة نافذة الصبر أردته ، فارتجف ، عض أوراق الشجر ، وتدحرج فوقها متخبطاً بدمائه . فزعت المرأة ، وارتجفت وتلملت دون أن تتمكن من إخفاء عريها المجنون، توسلت : اتركوني أذهب ..! قال أحدهم : لن نتركك ..ولا جدوى من الصراخ ، وسنقتل الناس كلهم لو حالوا بيننا وبينك ..!

وقعت المرأة في أعراضهم ، رجت رجولتهم ، قالوا لها : لاتخافي لانريد بك شراً ، سنفعل ما كنتما تفعلانه منذ قليل ..

ـ: ليس هذا صعباً عليك .

ـ: سنعطيك أكثر مما أعطاك ..

استسلمت المرأة ، وتمددت على العشب فبانت نافرة البياض فوق العشب الأخضر ، وتراودوها ثلاثتهم ، فكان للحم الحي النابض الدافئ طعم الفريسة بين المخالب والأنياب التي تحاوشتها لتفوز بنتفة زائدة .

ظلوا يرتمون بين ساقيها سافحين غيظهم وضيقهم وشبقهم طالبين نشوة أخيرة حتى ارتمت ذكورهم كبراعم ذاوية..فأخرجوا ما في جيوبهم وتركوه عند رأسها ، وقالوا لها:

عودي في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم ..وستنالين أكثر..!

ويومها قال خليف قولته المأثورة : الجنة في فروج النساء ، وأوصى وصيته التي ظل يرددها دائماً : إذا مت فكفنوني بفروج النساء .

تضيء كالقمر

غضب خليف من جبل حوران كما غضب إبراهيم باشا لرفضهم أن يؤخذ منهم نظاماً، أو يدفعوا الفردة ، ولتكرر عصيانهم وتذبيحهم للعسكر، فركب خليف في ركاب إبراهيم باشا إلى الجبل ليستل أرواحهم ، أو يسوّد عيشتهم ويقودهم إلى بيت الطاعة .

أخلى أهل الجبل منازلهم ، وتركوها للرياح تصفّر فيها ، وتصفق أبوابها المخلّعة ،وتحرسها الضواري إذ تبادلوا المساكن معها فالتجأ الناس إلى الجبل وتلول اللجاة ، فيما التجأت الضواري إلى البيوت الخاوية .

عسكر الجيش خارج اللجاة فقسم إبراهيم باشا عسكره إلى أربع فرق كل فرقة تدخل الجبل من جهة بعد ضربه بالأطواب بحيث يهدم ويقوض ، وتفتت حجارته كقلعة محاصرة.

اقتحمت العساكر الجبل وهو يحترق كالجحيم المستعر ، تقدمت فيه تنظفه من الرجال والحيوانات على السواء ..وقد ردموا الآبار بجثث القتلى ..!

وبالرغم من أن العسكر قد قرضوهم وأفنوهم إلا أنهم كانوا يطلعون للعساكر بغتة من وراء حجر ، من وراء غمامة ، من وراء حجاب مستور آخذين شكل ضوار أو جوارح أحياناً ، فاعتقدوا أن جن الأرض يساندونهم ويمدونهم بالطعام والذخيرة، ويحجبونهم عن أنظارهم ..حتى اكتشف إبراهيم باشا أن عرب البادية الذين ودع أهل الجبل عندهم حلالهم وحريمهم وأولادهم هم الجن الذين يساندونهم ؛ فأرسل إليهم فرقة انقضت عليهم كالصاعقة فقتلتهم وشتتهم ، ونهبت بناتهم وأولادهم وثمانين ألفاً من ماشيتهم ، وباعوا مانهبوه في بر الشام برخص التراب .

وامتد تمرد الجبل إلى راشيا وحاصبيا ، فخف إبراهيم باشا إليهم وهزمهم هزيمة منكرة ، وأعطى يغما على راشيا فدخلت العساكر البلد ونهبت الدور والكنائس التي التجأ إليها من لم

يتمكن من الهرب إلى الجبال والفلوات ، فاستباحوا النســـاء ، واغتصبوا حتى الفتيات اللواتي لم يكس القمر أفخاذهن بالدم .

وتعثر خليف بحوريته على سفوح التلال الخضر ، فقــد رأى فتاة بدرية تقول للقمر قم لأقعد مطرحك ، تلتصق بصخـــرة وهي ترتعش كاليوم الوجل الذي يولي الأدبـــار هاربـــاً مـــن المذبحة.كانت الفتاة مذعورة كظبية انقطعت عـــن ســـربها ، فاقترب منها خليف مهدئاً : لا تفزعي ..لا تفزعي لاأريد بـك شراً .لكن الفريسة لاتـــأمن لمطاردهـــا فاســـتمرت ترتجـــف كالريبة.ابتعد عنها خليف ليفرخ روعها ، وفكر بأنهـــا هـــي الحورية التي يبحث عنها والتي كانت الســـبب في قدومـــه إلى إبراهيم باشا ..لقد وجدها أخيراً ولن يتركها تذهب هذه المرة، فما زالت رائحتها في أنفه وملمسها على أنامله ، لقد انتـــهت حربه ، فليصطحبها معه ويعود إلى شمس الدين .

أراد أن يكسب ثقتها ، فسألها عن أهلها ليلحقـــها بهـــم ، لكنها كانت عينـــين مذعورتـــين ووجـــهاً أصـــم أخـــرس كالحجارة.و لم يلبث أن أقبل بضعة عساكر فوجئوا بهما ، فقال أحدهم : أرأيتم أجمل من هذا الوجه ..؟

ــ: سبحان خالقها إنها تضيئ كالنجم ..!

ـــ: لقد حلمت بها مراراً وها هي ذي أمامي ..فماذا تظنون أني فاعل ..؟

ـــ: إنها لك ..!

اعترضهم خليف : لقد دخلت عليّ ..

قال أحدهم : لاتقبل اليوم دخالة ولا استرحام ..!

ـــ: لكنها في حمايتي ..

ـــ: لن يحميها منّا حتى إبراهيم باشا بنفسه ..

قال خليف : إنها محرمة عليكم كما حرمت عليكم أمهاتكم ..

صرخ أحدهم : أتحرم علينا ما أحله لنا إبراهيم باشا ؟!

قال خليف : اذهبوا قبل أن يفرغ صبري ..

وكان قد رفع بندقيته في وجوههم ، وتطاير الشرر من عينيه ؛ فحاولوا كسب الوقت أو تهدئته : شاركنا بها ، وسنتركها لك في النهاية تشبع منها ..

قال خليف : سأعد حتى الثلاثة فمن لم يغب عن ناظري فليسلم لي على أجداده في جهنم.

ناوروه ، قال أحدهم :أنت لاتدب ولا تعطي الجراب .

وقال آخر : خذها واشبع بها .

قال ثالثهم : على قد وجهك .

دار أحدهم حوله وضربه بعقب البندقية على مؤخرة رأســه فارتمى على الأرض ، فانهالوا عليه بأعقاب البنادق ، ثم تنــاولوا الفتاة وتخاطفتها أيديهم فصرخت بجنون وحشي ، سمع خليــف صرختها قبل أن يفقد وعيه ، صرخة النملة القتيل التي تشـــق وجه السماء وتصل إلى أسماع الملائكـــة.واتســعت عيناهـــا المذعورتان ، ولمعت آخر شعاعات الشمس الغاربة في العينـــين الشاسعتين كحقل يابس ، وركض الخوف في فلـــول الجســد الذي استسلم لقدره مرتعشاً كغزالة مذعورة أسلمت نفســـها للضواري بعد أن تشبثت عبثاً بحياة زائلة ، بأن ينجدها المســيح أو تغيّبها الملائكة ، أو تحملها على أجنحتها ، أو يمحق الـــرب العسكر والوحوش وكأنهم أشـــباح أو حلـــم ، أو يـــهدونهم كأعجاز نخل خاوية .

استرد خليف وعيه فرأى الجسد الحليبي الهـــامد وظـــلال الأجساد المتحركة ، فتناول بندقيته وانبطـــح علـــى بطنـــه ، واندفعت الطلقات تحصدهم .. لم يمكن أحداً من الهرب ، مـــن هرب تعثر بالخوف الذي قيده فاصطادته الطلقـــات كـــأرنب مذعور ، وانتثرت دماؤهم على الليل المنســكب كالمصيبـــة ،

وتجمد العسكري الأخيرفوق الفتاة فحمله خليف وأعطاه الأرض فصرخ صرخة مجنونة اختلطت بصياح عظامه المهشمة .

احتضن الفتاة المحللة بالدماء ، هزها فلم تستجب له ، كانت عيناها شاسعتين كحقل أخضر ، وجسدها مدمى كزهرة مسحوقة لا رائحة لها ..فانحنى فوقها ينشج بحرقة الفاقد.

خليف يرى ما لا عين رأت ، ويسمع ما لا أذن سمعت

شارك خليف في عرس إسماعيل بك ابن أخت إبراهيم باشا، حاكم حلب ، واستمر العرس سبعة أيام بلياليها ، انقلبت فيها الدنيا على حلب ، فجاء المتسلمون والأعيان والبكوات والأغوات والقناصل الأجانب وشيوخ العشائر يحملون هداياهم، ويستعرضون مواكبهم ، وينفشون ريشهم كالطواويس ، وقد أعجبتهم نفوسهم ، وأدركتهم هيبتهم الفارغة كطبل عالجه الثعلب ، وانصرف عنه لخواء داخله .

اجتمعت الخلائق من كل صنف ولون ، ومن كل ملة ونحلة، وأنيرت القلعة من الداخل والخارج فتحول الليل إلى نهار ، وأطلقت خمسمائة مدفع إبراهيمي ، في وقت واحد ، قذائفها

ليس على جيش العصملي ، وإنما على السماء في دفعتين يومياً ، فأمطرت السماء حمائم وإوزاً وعصافير وحساسين وغرباناً .. وتحول جيش إبراهيم باشا إلى جيش للقنص خلال ثلاثة أيام ، فخرج إلى البراري ، وعسكر فيها بأعلامه وراياته وآلاياته وقادته وجنوده ، وأطلقوا النار على كل ما يدب أو يطير أو يزحف من أرانب وثعالب وضباع وذئاب وغزلان وطيور ، وحمير وجمال وأغنام وكلاب وأوادم..! وقضوا على قفل قرباط بأطوابهم وهم يظنونه قطيعاً من حيوانات البراري .

وترك في العراء ، ما لم يكن صالحاً للمآدب ، كجثث الأوادم والحمير والذئاب والضباع مأدبة للطيور وحيوانات البرية التي نجت من المذبحة ، وعاد الجيش من ركبته المظفرة يجر غنائمه . ومدّت المآدب متلاحقة لاتنتهي كحكايات الحيّلت ، طويلة مديدة يجهد الخيّال فرسه ولا يبلغ آخرها ، تتكدس عليها الجمال والخراف والأرانب والغزلان والإوز والبط والدراج والقطا ..ويجلس الناس عليها أطوافاً أطوافاً ، ويصدرون عنها ، وهي تزيد ولا تنقص ..وقال بعض العارفين إن السماط الذي مدّ فدار في عدة شوارع هو هدية أم إسماعيل بك ، فقد أوصت عليه من المغرب حيث عمل فيه سبعون ساحراً مغربياً يعمل

تحت يد كل منهم سبعون ألف جني ..وقيل بل استعارته جدته لأمه من جني مؤمن طوله شبر وعرضه فتر وعمره يوم .

وفرغت حلب من أقواتها وحبوبها وخضرها وفواكهها ودجاجها وطيورها ولحومها لأنها كانت تشترى أو تصادر للعرس ،وأكل الجيش كله بعشرين ألفه على سماط إسماعيل بك المسحور ، في أيام العرس .لقد رأى خليف من الأقوات واللحوم مايكفي شمس الدين بناسها وكلابها وحميرها ومواشيها وديدانها وحشراتها ، وجنّها إلى يوم الدين..!

وفرشت السرايا بالسجاد والديباج والطنافس والكنبات ، وخصصت قاعة للرقص ، وأخرى للخيالاتي ، وثالثة لألعاب البهلوان ، وانتشرت الخمرةبين العساكر فطاش صواهم ، وأتوا بالأعاجيب ..وفتح الخلق آذانهم وعيونهم دهشة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وفي أحد أيام العرس ، وقع لخليف ما لم يتوقعه ، فقد صب له بعضهم الخمرة في الماء ، وحين شربها انتشى، وانتصبت رجله الثالثة ، فنزل عليه يقين كإشراق صوفي أن رجله الثالثة هي التي تحركه ، ما خطا خطوة إلاّ بإيعاز منها ، وما حلم حلماً إلا وهي وراءه ..واندفع خليف على وجهه في حواري

المدينة وأزقتها بحثاً عن حوريته ، وفجأة لاح له من آخر زقـاق نحيل كالإصبع نور أبيض ، لم يلبث أن تمثل له بشراً سوياً يلبس ثياباً بيضاء ، حاول خليف أن يتجنبه لكن الرجل سد عليه فـم الزقاق ..فقال له خليف: إنس أم جن ..؟قال الرجل الأبيـض : بل جني من خيار الجن ورؤوسهم..

ـــ: فلماذا تعترض طريقي ..؟

ـــ: لأقودك إلى حاجتك.

ـــ: أتعرف حاجتي ..؟

ـــ:لهذا جئت تاركاً عرشي ، فأنا ملك الجن ، وقـــد جئـــت لأزفك إلى عروسك المنذورة لك عندنا ، فهي تنتظرك منذ خلق الخلق ، وقد حان أوان دخولك عليها..

ـــ: فماذا تنتظر ..؟

ـــ:أن تدفع مهرها ..

ـــ: وما مهرها ..؟

ـــ: كل ما تملكه من مصرورومذخور ..

ومد خليف يده إلى جيوبه وأخرج كل ما يملك ودفعـــه إلى الجني ، وقال له : لقد انتظرت طويلاً..فلنعجل إليها .

قاده الجني في أزقة ضيقة كالمصارين و خليف يتبعه خطوة بخطوة ، ممسكاً شليل ثوبه الأبيض ، حتى أوقفه الجني أمام باب كبير وقال له : لقد وصلنا ..فانتظرني هنا لأبشرها بقدومك وأستأذن لك عليها ، ولتشعل لك الضوء في بيتها الذي حرم عليه الضوء إلى حين وصولك.

وانتظره خليف ومارد شهوته ، يفتح مرمر الأفخاذ ، بعد أن يغتسل بماء الورد ، ويتمرغ على الطنافس الحريرية ، ويرشف ريقاً كالعسل ، ولصفت المرأة المنذورة المشتهاة في مخيلته ، وصهلت ضحكتها في أسماعه ، ثم عدت في روابي جسده ، فلم يعد يطيق صبراً ، فدفع الباب بقوة فارتطم بالجدار منفتحاً على شجرة أزقة كالمتاهة لايبرق فيها جسد ، ولا تصهل فيها ضحكة ، ولا يعدو فيها جني كالشبق المصهور .

خليف ينشغل بما انشغلت به خود الماجود

قدم إبراهيم باشا من إنطاكية فخرجت المدينة كلها لتستقبله وتتفرّج على موكبه ، خرج الأعيان والوجهاء ورجال الدين ،

وشيوخ البدو،وخرجت العساكر ،كل آلاي منها على نظامه ولباسه الخاص،آلاي الطوبجية،وآلاي الخيّالة، وآلاي المشاة ...

تطوع خليف وهو يظن أن إبراهيم باشا سيستقبله بنفسه ، وما كان ليتطوع لولاه ، لكن خليفاً لم ير إبراهيم باشا إلا في هذه اللحظة عندما خرج مع نظامه لاستقباله خارج المدينة .

ظهر إبراهيم باشا على فرسه المزينة كالعروس ، فضربت الأطواب ، وترددت هتافات الجموع له بالنصر وطول العمر ، فأحس خليف بالزهو لأنه في جيشه ، وكاد أن يترك نظامه ، ويمسك رسن فرسه ، يتمسح بركبتيه ، يقبل ركابه ، ويقول له: إنه جاء ليراه هو بالذات ، لينتصر بانتصاره ، ليتجمرّ على أمجاده ، فخليف عاجز عن الإمساك بحوريته ، عاجز عن معرفة أعدائه الذين استباحوا دم أهله ، عاجز عن إشعال ضوء أهله المطفأ ، يتلخلخ بين الدروب ولا يتمكن من توجيه روحه ، فيأتي مع من لا يجئ معه ، ويقبّل اليد التي لا يستطيع كسرها ، ويقول للكلب إن كانت حاجته عنده : يا عمي ..!أما إبراهيم باشا فيشعل الأضواء المطفأة كلها ، يقود الخلائق ، يزن المصائر، يتصرف بحياتهم كأنه الرب القادر على كل شيء ، يوجه العساكر ، يفتح البلدان ، يحقق الأحلام المستحيلة ،

فتنحني له القامات ، وتقبل أقدامه الجموع ...خليف صغير وضئيل كثعلب ، وإبراهيم باشا كبير كالرب فليكبر به ، وليعش بظله ، وليتمجّد بمجده .

كان إبراهيم باشا قد مر ، وغاب ، ولم يجرؤ خليف على الخروج من نظامه ، ففاتته فرصة البوح ، لكنه ، مع ذلك شعر بالزهو ، لأن إبراهيم باشا مرّ بالقرب منه حتى كاد أن يلامسه، فمن ابن امرأة من شمس الدين رأى إبراهيم باشا ، أو حتى سمع وقع حوافر جواده ..؟

وفي تلك اللحظة ، في تلك اللحظة بالذات انشغل خليف البدر بما انشغلت به خود الماخوذ من قبل حين ظنت أن غائط الشيخ حمد لا يشبه غائط بقية خلق الله ..!

خليف يجمع العساكر

غضب خليف البدر كقائده إبراهيم باشا من تهرب أهل حلب من الجندية كما يغضب والد من ولد عاق منحه كل رعاية ، فشن عليهم حملة تمسيك .

داری إبراهيم باشا الحلبيين كما تداری العين الرمدانة ، لأنه مقيم بينهم ، فطلب عشر عساكر نظامية عن كل مائة رأس منهم ، في حين طلب خمسة عشر عسكرياً عن كل مائة رأس من الشام !

هرب الحلبيون من الجندية ، دون أن يقدروا دوافع إبراهيم باشا ، وفي صباح باكر هاجم العساكر البيوت ، اقتحموا الأبواب ، انتزعوا الناس من فرشهم ، فتصايحت النسوة ، ومعطن شعورهن ، لكن ذلك لم يمنع العسكر من شد أرجلهن بالفلق ليدللن على أزواجهن ، أو أبنائهن أو إخوتهن الفارين المتوارين ..فرأى خليف سيقاناً وأفخاذاً وأذرعاً ناصعة العري : بيضاء كالحليب ، طرية الملمس كالزبدة ..!

ولما كانت الهجمة مأجورة ، فقد تسابق العسكر كل يريد الفوز بأكبرعدد ، فلم يوفروا يهودياً ولا نصرانياً ولا مسلماً ، ومن يدفع يطلقون سراحه ، فيمضي إلى بيته آمناً ، فيفرّخون برأسه هم أو غيرهم ، فإما أن يدفع من جديد أو يساق إلى مكتب الإجبارية ، وبعضهم دفع ثلاث مرات ، أو أربع مرات..حتى عافوا الهدير ومية الغدير ..!

في الهجمة التي لم يسلم منها حلبي ، لم يستطع خليف إغماض عينيه : فما دام الله قد خلق لنا عيوناً فلننظر بها حيث ترغب.

ومنذ ذلك الوقت أصبح لأحلام خليف تلك التفاصيل من الأفخاذ والأذرع والسيقان الأصفى من عين الديك ، والأشف من غدير الحجر.

خليفه يهاجم الجراد

ساق خليف حلب بكل مللها لجمع الجراد ، وسار بهم في حملة لم تستثن سوى النساء والصبيان ، في مقدمة الحملة كان الأكابر والأعيان والشيوخ والبطاركة والمطارنة والقسوس والشيوخ القدوة المباركة.

في أثرهم خرج العسكر النظامي كله بقادته وجنوده وعسكر في جبرين ، كانوا يقضون الليل خارج المدينة نائمين في العراء أو الخيام . وينزل رجلان أو ثلاثة ، من كل حارة ، بتصاريح موقعّة من إسماعيل بك نفسه ، يدورون على بيوت الحي ليحملوا الطعام إلى حملة الجراد .

يقومون من عفطة الذئب يخبطون الجراد الأصفـــر اللـــزج بالعصي والمخابط وأغصان الأشجار ، ثم يكنســـونه كنســاً ويبيدرونه بيادر ، ثم يحفرون له خنادق يطمرونه بها .وعلى كل ملة أن تجمع عدداًمحدداً من شنابل الجراد ، لا تغــادر قبــل أن تنفذ حصتها .

لم يكن الهروب ممكناً فالعسس يتفقدون الحملة ، ومن يهرب يعيدونه بعد كربجته ، أو يلصونه ويعيدونه على أنه هـــارب ، وقد يلصونه ويهرّبونه ، فإن عاد إلى المدينة متخفياً، ربما صادفه العسس الذين يطوفون في المدينة الخالية ، وسواءأكان متخلفاً أم هارباً ، يقودونه إلى السرايا ويكربجونه ، ثم يرسلونه إلى الحملة.

استمرت الحملة المباركة المعزّزة بالقدوة الحسنة اســبوعين ، فجمعت آلاف شنابل الجراد الميت بعد أن جرد الأرض مـــن نباتها الأخضر واليابس ، وقضم حتى جذوع الأشجار .

اليهودي يتنبأ ، والمسلمة تتكلم سرياني

تنبأ يهودي بسقوط الزلازل ، فانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم ، وهرب الناس من منازلهم ، حملوا فرشهم وطناجرهم ومواقدهم إلى البساتين المحيطة بالمدينة، وتركوا المدينة خاوية على عروشها ليخسفها الزلزال الذي لم يأت مكذباً اليهودي .

لكن اليهودي المزعوم ، أو من نسبوا إليه الخبر فسروا انصراف الزلازل عن حلب بأن الملائكة حين جاءت تحملها رأت المدينة خالية ، ليس فيها نفاخ نار ، فأعادت الزلازل إلى هاويتها في سقر ، ولم ترض أن تهبط بيوت العبادة وجدران المنازل دون أن تزهق الأرواح الضالة المذنبة ، لقد عفت عن الجدران حين فاتها البشر ، إلا أن القدرة الإلهية لا تعجزها الوسائل لتنفيذ مشيئتها ، فقد عدا في المدينة خبر وصل إلى ضواحيها وقراها بأن امرأة مسلمة خرساء استيقظت صباحاً وهي ترطن بالسرياني متنبئة بالهواء الأصفر ، فسقط الناس في الشوارع والأسواق والحارات والبيوت ، فأغلق الناس متاجرهم وهربوا إلى بيوتهم ، وأحكموا إغلاقها ، لكن الهواء الأصفر

بجنوده اللا مرئيين تسربوا مع نسمات الهواء من النوافذ وشقوق الأبواب والمشربيات والكوى ..وحين غادر الهـــواء الأصفـــر المدينة تركها صفراء كجيفة منتنة .

نبأ يأتي به ثعلب

وصلت الأوامر إلى أضنة ومرعش وعينتـــــاب وطرســـوس وحلب بانسحاب الجيش الإبراهيمـــــي والتجمـــع في حلـــب للإنطلاق نحو الشام .الأوامر الصادرة صبت ماءً بـــارداً علـــى حماسة خليف البدر الذي كان يرى الدولـــــة العصمليـــة قـــد انقصفت كما ينقصف عود يابس لاسبيل لجبره .

آخر موقعة خاضها خليف عندما عبرت الجيوش العثمانية نهر الفرات لتفاجئ إبراهيم باشا الذي كان لهم بالمرصاد ، فشـــتت شمل جيوشهم وأسر نصفها واستولى على ذخائرهم ومدافعهم ، وانكسر قلب السلطان محمود قبل موته ..وأصبح الطريـــق إلى الأستانة مفتوحاً واللقمة في الفم ..!

وبدت الوعود التي ملأت أصابعهم خواتم وحولت فراهم إلى سمن وعسل على وشك التحقق ، مع أنها كانت مستحيلة كنبأ

يأتي به ثعلب . لام خليف البدر إبراهيم باشا لتركه الفرصة الأخيرة تتسرب من يديه بعد أن أصبحت اللقمة في الفم فتركها كما ترك السبع المريض الحمار الذي لاقلب له يفر من بين مخالبه .

وأفادت الأخبار بأن الفرنجة الذين يشدون أزر السلطان دفعوا سكان السواحل للتمرد على إبراهيم باشا فاستولوا على السواحل بمساعدة أساطيل الفرنجة ، وقطعوا طريق إبراهيم باشا إلى مصر ، فحار خليف كيف يقف الناس ضد أنفسهم ؟ولماذا يجتمعون ضد إبراهيم باشا وينقادون للعصملي والفرنجة ؟لماذا يحبون خنّاقهم ويتخبطون في ليله الدامس ؟ لماذا يحاربون من يدلهم على الدرب ليخرجهم من الفوضى والعماء ؟ ولماذا يغادرون صفوفهم فيكسرونها لينخرطوا في الصف العامر ؟ لماذا يروغون كالثعالب فينضوون تحت ظل المنتصر متنكرين للمهزوم ولو كان المهزوم هم أنفسهم ؟

في مثل هذه الأوقات تصبح الصنعة الأفضل هي الصيد في الماء العكر فيكثر اللصوص والنهابون والمشلحون والنصابون والبلاصون والمرتشون والمنافقون والمتصوفون والدراويش والمهابيل ..!

إنهم لايواجهون سيف الذل مرة واحدة وإلى الأبـــد حـــتى لايظل معلقاً فوق رؤوسهم دائماً ، فليسقط سيف الذل وليقتل من يقتل ، وليأمن الآخرون على مصيرهم ولتمشي المرأة تحمـل الذهب فوق رأسها دون أن يعترضها أحد ...

انسحب خليف البدر مع الجيش الإبراهيمي مخلفـــاً مئـــات المدافع المحطمة والمغنومة من العسكر العثماني ، وتراجـــع عـــن أورفة ومرعش وعينتاب وأضنة وطرسوس..وحـــين تكـــامل العسكر في حلب بدأوا ينهبون السرايا والقشلات ويبيعون مـــا فيها ، باعوا الحنطة واللبش والشون المنهوب برخص الـــتراب والتفنكـــة بقـــرش والمطـــرة بعشـــرة بـــارات والتاســـومة بقرشين...وحملوا معهم ما استطاعوا حمله من أعلاف وخـــبز وشعير ، وتعرض الكثير من الأهالي للتشليح ..!

وفي اليوم التالي ظهراً غادر البلد آخر العساكر والآلايـــات المصرية فظهر أهل البلد وراحوا ينهبون القشـــلات والســـرايا فحملوا كل ما تركه العسكر ، أو لم يستطيعوا حمله أو بيعه أو نهبه من تفنك وبارود ورصاص ولبش عســـكر وســـجاجيد وتواسيم ، حصل بعضهم عل عشر بنادق أو أكثر ..تســابقوا للنهب فتضارب المتأخرون من أجـــل تاســـومة ، وحدثـــت

مشاجرة من أجل لبش عسكري حين تناتفها العشرات..وأشاع أحدهم أن إبراهيم باشا ترك خزانته مدفونة في إحدى غـــرف السرايا على أمل عودته ، فحملوا الرفوش والمعاول وحطمـــوا بلاط الصالونات والغرف ، وتنازعوا علـــى الأمـــاكن الـــتي سيحفرونها ، انتقلو من غرفة إلى أخرى و لم تسلم الجدران مـــن التخريب ، وكانت الإشاعة قد وصلت إلى البعض الآخـــر أن الخزانة مدفونة في القلعة فهاجموها بالرفوش والمعاول...وانتـــهى هم الأمر إلى التخابط بالمعاول والرفوش وهم يظنون أن بعضهم وصل إلى الكنوز المطمورة !

ودخلت العربان مدينة حلب لتشارك في النهب لكنــــهم لم يعرفوا ما ينهبون وقد فاتهم ما يعرفونه مـــن تفنـــك وبـــارود وتواسيم لأن الأهالي نهبوه قبلهم ، فعطفـــوا علـــى الأهـــالي يشلحونهم ما يحملونه ، أو ما يلبسونه فتناتفوا أثوابهم فجروا في الشوارع عراة حتى لاينهب البدو جلودهم ..وتنادى الأهـــالي لردهم فتصادموا كالأمواج الحاقدة الضارية ، وعـــلا صـــوت الرصاص ، وركضت الدماء عارية في الشوارع والأزقة ..

في ذلك الهرج قرر خليف أن يعود إلى شمس الديـــن لينتظـــر عودة إبراهيم باشا ، فاستولى على أحـــد أحصنـــة الإســـطبل

الباشوي ، والتقط مصرية تخلفت عن الجيش وتاهت في أزقــة حلب ..آمن خليف أن إبراهيم باشا سيعود حتماً ، وســتكون عودته قريبة ما دام قد ترك أخلص جنوده عرب الهنادة ونـشرهم في البوادي ، وعلى ضفاف الأنهار ، ومنابع العيون، وملّكــهم الأراضي أو ملكوها برهبة الخلق منهم ، وقد خلّــف معــهم جبالاً من البنادق الإبراهيمية ليستخدمها عند عودته..!

السفر الثاني

ويركضون في الأرض كالموتى ..

أيام مثمرة كالقنوط

فتحت زليخة عينيها الواسعتين المتعبتين الوسنانتين فاصطدمتا بالسقف المتدلي كبطن الحامل ، وعلى الشدحة الكبيرة شاهدت أبا بريص فطاردته بعينيها ، توقف كأنما جمدته نظرتها ، وقصفها بعينين بارزتين باردتين كحبتي برد ، أحست بـالخوف وبالقرف منهما إلا أنه لم يلبث أن زحف مسرعاً متوارياً بـين أعواد السوس الجافة محدثاً خشخشة تفوقت على شخير خليف الرتيب الراقد إلى جانبها .

كانت حزم السوس قد أصبحت سوداء من الهباب واندلقت في بعض المواقع حيث تقصفت أعواد الطرفاء تحت ثقل الطـين الذي تكدسه زليخة فوق السطح قبل كل شتاء .

رفع خليف جدران بيته أمام عيون شمس الدين المندهشـة ، وبالقدسية نفسها التي ترفع فيها بيوت الله أقام بنيان أول منزل حضري ثابت في شمس الدين ؛ بيدين عاريتين مـن ممارسة اختزلها عقله فقط رفع سافا فوق ساف وليس على يديـه إلا زوجه تمده باللبن الجاف والطين ؛ ولأول مرة أصبحت شمـس الدين تبقى حتى إن رحلت كلها .

ومع أنه استخدم مطماراً جلبه معه إلا أن البناء كان يميل إلى أحد جانبيه كشجرة تتجه إلى الشمس ، أو كحمل حمار مـال على أحد جانبيه وأوشك على السقوط .

بعد أن غسل يديه من طينه نسي مهنة المعمار تماماً حتى أنـه لم يغير السقف أو يصلحه ، وكان السطح يمده بأنشودة المطـر الجميلة والحزينة والمتغيرة الإيقاع بحسب غزارة المطر ؛ وهـو مسدوح في فراشه مما يمنحه أماناً من البلل ومعرفة بنوعه وكأنـه يراه رؤي العين .لكن الأمان من المطر انتهى عندما راح السقف يدلف ، فوزعت زليخة أواني تستقبل الدلف في أرجاء البيـت فحصلت على أهزوجة مطرية أخرى ، ولأنها ليسـت حالمـة كخليف قالت له ذات يوم :الشتاء قادم .

قال خليف ساخراً : سأستقبله حالاً بالدبكة ، تكرم عيونك..

ـــ: سيدلف المنزل .

ـــ:سأطليه بالطين غداً .

ولأن الغد لا يأتي عند خليف ، كانت زليخة تقوم بنفسـها بتكديس الوحل المجبول بالتبن على السطح قبل كل شتاء حـتى لم يعد يحتمل السقف زيادة .وإذ تسمع في الليل تقصف أعـواد

الطرفاء وخشخشة السحالي والحشرات في السقف تقول لـه في اليوم التالي : سيكون هذا البيت قبرنا ..

ــ:وهل ستجدين قبراً أجمل ؟

ــ: أترضى أن ندفن أحياءً ؟

ــ: سندفن في النهاية على كل حال .

كانت إجابات خليف ساخرة غالباً ، وكـان ذلـك يثـير غضبها أول الأمر ثم اعتادها كما تعتاد المرأة وجع بيت الرحـم الذي لا يشكى لأحد .

حاولت زليخة أن تنهض ، لم تحاول قررت النهوض فقـط فأحست بعجزها عن الحركة وكأن عظامها مفككـة ، كـل عظم يصيح وحده ويخشخش كسقف بيتهم ، كخبز الرقـاق اليابس تحت ضلوع زوجة الأب التي تدعي مرضـاً كاذبـاً في الخرافة..أكل ذلك من أثر الليلة الفائتة..؟قال لها كما في كـل مرة يأتيها :سأحرثك كالأرض البائرة ، وأرسـل الحيـاة في رحمك ..

استبشرت كعادتها وصدقته وكأنما هو الله الذي يضع النطفة فيها فتورق وتخضر ...وما إن انتهيا، وقد تفككت عظامها

كأنما جرت فوقها خيول سباق ، حتى أدركت أن شيئا لم يحدث ..لو حدث شئ لأدركت حالا ..

لماذا تظل بطنها قاسية وصلبة كبطن بنت باكر وكأن خليف لا يدحس حيوانه الجميل فيها في الليلة الواحدة مرات ؟لماذا لا تنجب المرأة إلا من بطنها ؟ لماذا لا تنجب من بطة ساقها كما في الخرافات ؟ كلما نذرت نذرا تحسست بطنها ، قاستها لعلها كبرت قليلا ، لعل النذر أورق ، لعله فرخ في داخلها ، لعله وصل إلى بطون أو أسماع الرجال الصالحين الذين تستصرخهم . لقد عصف الغضب بها عصفا ذات نذر خائب فتمادت على ربها : لماذا يا ربي ألست مثل كل النساء..؟خلقتني مقطوعة من شجرة كأنما ما جئت من بطن وكأنما لن يجئ أحد من بطني ..

لقد كان باب الله مغلقا كوجه بدوي فلم يستجب لغضبها ، كما لم يستجب لدعواتها ورجاءاتها ودموعها ، ولا لوساطات الشيخ إبراهيم وحجبه وقراواته..

لابد أن تعيد ربط عظامها المفككة لتنهض فوراءها أعمال كثيرة .لن تنجز الشكوى ما عجزت الأدعية والنذور والحجب عن إنجازه ، ولن يقوم بعملها أحد فلا بنت لها تتكئ عليها ولا

حتى بنت زوج لتلقي الحمل عليها إذا ما انفكت عظامها حقاً أو خداعاً ..

سيظل خليف نائماً يشخر شخيره الهادئ الرتيب إلى الضحى العالية ، ليس كسلاً ولا زهداً في الدنيا ولكن ما حاجته للاستيقاظ باكراً إذا كانت زليخة تتدبر كل شئ ؟

أبى خليف أن يعود إلى مهنة الرعي عندما حاول الشيخ حمد إعادته إلى رعاية قطيعه ، واعتبر ذلك محاولة مقصودة منه لإنقاص هيبته والحط من شأنه ، فهل يعمل تحت إمرة شيخ من عمل تحت إمرة إبراهيم باشا ..؟ ثم إن خليف غني غنىً فاحشاً فهو يملك امرأة وفرساً وبارودة وهذه أقصى ما يطمع به رجل، أما الطعام فلا يفكر فيه أحد فالفرس والبارودة تنتزع رزق العيال من فم السبع .

أحب خليف الإبراهيمية والسبوح وفضلهما على زوجته ، لقد هدّ عليها مرة لأنها سمّت الإبراهيمية عصا ، سوّى لها عرس كلبة وكاد يطيّر مخها لولا تدخل حمار علاوي السطم الذي لاذت خلفه فوقع يرفس الأرض قرباناً لها ..وراهن مرة أن يصيب طائراً عابراً بالإبراهيمية مقابل ثمنية الحنطة التي ليس في

بيته غيرها ، وتغزل بها ذات جلسة سمر فقال : إنها تصيب رأس الإبرة..

فرد عليه أحدهم مكذباً : لا تسرد ..

فعصف الغضب بخليف وقال : سردك أبو ملعون ..فأنا أراهنك على إصابة عقال الرجل في رأسه ..

ــ: فما الرهان ؟

ــ:جحشي الأقمر مقابل أي جدي مفشوش من جدائكم الجربانة ..

ــ: قبلنا..ولكن لنضع العقال فوق صخرة أو عصا .

ــ:لا ..لن أراهن إلا وهو على رأس رجل ..

ــ:قد تقتله..

ــ:إن كان أجله قد خلص فلا حيلة لأحد في الأمر .

ــ:لط ابنك عالحيطان وقل شغل الشيطان..

.وأبى خليف أن ينيشن إلا على هدف حي لأن ذلك وحده يجعله يستخرج مهارته خوفاً على النيشان الحي من إصابة غير محسوبة..ولما لم يجرؤ أحد أن يكون هدفاً للإبراهيمية فقد سلم له جحشه الأقمر .

أما فرسه السبوح فقد قتل الشيخ حمد نفسه ليبيعه له ، فقـال له خليف : إنه ليس للبيع.

ــ: إن لم تبعه لي سأصيبه بالعين .

ــ: السبوح محصن ضد العين والأمراض ، ولا أستطيع بيعـــه بكل كنوز الأرض .

ــ: لا أعرض عليك كنوز الأرض لكنـــي ســأعطيك حـــتى أرضيك فنفسي به .

ــ: لا تحاول يا شيخ ، فماذا سأقول لإبراهيم باشا لو عـاد و لم يجد فرسه ؟

ــ:قل له مات أليس هو من مخلوقات الله التي تموت ؟

ــ:بعيد الشر عنه ، بل سأستقبله على ظهره عندما يعود، فـإن لم يكن السبوح عندي فلن أجرؤ أن أريه وجهي.

ــ: سأعيرك إياه لتستقبله إن عاد ..

ــ: العيرة بغل حرون ..

ــ:إذاً ما رأيك أن نجعله ينزو على بعض أفراسي؟

ــ: لينزو ما شاء له النزو ، ولكن على الأصائل وحدها ، فـلا يجوز لفرس إبراهيم باشا أن ينحط فيركب غير الأصائل .

وأثبت السبوح أنه فحل لايشق له غبار، لا يميز بين حـــواء وكميت ، شقراء أو درعاء محجلـــة أو بلقـــاء ، مســـرولة أو عصماء ، المهم أن تكون الأنثى أصيلة ، وتســـامع النـــاس في وادي الفرات بالفرس الملوكي الموصـــل فجـــاؤوا بأفراســـهم يشبيّها، وينتر نسله في وادي الفرات كله .

قالت له زليخة: ستقتل فرسك..

قال : طول عمري أنزو على النساء فهل قتلني ذلك ؟

قالت : لقد هزل الفرس كثيرا فأصبح كالخلال ..

قال غاضبا : حتى ما بين فخذيك .. ستخلصين من ضرتك ..!

سكتت زليخة خشية من سلاطة لسانه فانكفأت إلى داخـــل نفسها وهي تعرف أنه ما لم يكن مقتنعا بشئ فلن يقوم به حتى لو تحول نهر الفرات إلى كلمات تقرض على مسامعه .

وكان خليف بفضل فرسه وبندقيته ومهنه غير المكتملة قـــد منح الكثير من الألقاب ، وشمس الدين لا تمنح الألقاب جزافـــا فهي تختصر الإنسان في كلمة واحدة ، لقد تزاحمـــت عليـــه الألقاب في فترة وجيزة كدموع الحزينة ، لكن الألقاب لم تطعم زليخة ، فانصرفت عنه لتدبير أمور معاشهم وإلا مـــاتوا مـــن الجوع .في أيام الحصاد تعاون أهل القرية في الحصاد والرجـــاد

والدراس دون أجر ، ولا يتركها أحد ممن عاونتهم ، فبعد الحصاد والدراس يعطيها كل واحد شيئا مما تسمح به نفسه. تلقط السنابل بعد الحصاد ، تلم شيئا من التبن لخرافها ، وتساعد النساء في أعمال بيوتهن فتحلب وتخثر ، وتخض الشكوة ، وتجرش الحبوب على الرحى أو تدقها بالجرن ، تنفش الصوف وتطرقه وتغسله وتغزله وتنسجه ، فتمنحها هذه جزة صوف ، وتعطيها الأخرى إداما لعيشها ..وكثيرا ما تطوعت لعجن العجين وخبزه وعادت بعدة أرغفة ساخنة إلى بيتها .

أما في الأعراس فإنها تتدخل في كل كبيرة وصغيرة حتى أصبحت لا يستغنى عنها ، والعرس الذي لا تنهض به زليخة ليس عرسا فهي تتكفل بكل ما يخص العروس :تحف حواجبها، تنتف شعر إبطها وعانتها ومؤخرتها ، تحنيها، ثم تغسلها وتجدل شعرها، وتلبسها وتعصبها، وتزينها وترافقها حتى بيت زوجها، وتعلمها كيف تتصرف معه .

وهي آخر من يخرج من عند العروس قبل الدخلة إذ تشغلها وتلهيها حتى تدفيعة العريس ، وقد قيل فيها المثل :لزليخة قرص في كل عرس.

ولم تتوقف عند الأعمال العادية ، بل تجاوزتها إلى أعمال معقدة تحتاج إلى خيال خصب وفطنة ماكرة فأصبحت تضرب الفأل للنسوان ، وبرعت فيه حتى أنها لتحط في جيبها أعتى قرباطية أو مغربية أو مسلمية .والأمر الذي بدأ بمزحة حين رمت الأحجار والودع وقطع البلور والكعاب والخرز لتقرأ فألا لإحدى الفتيات التي تعرفها جيدا ، تحول مع الزمن إلى براعة..

ما تقوله زليخة نبوءة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، بل إن بعضهن يحورن الفأل الذي فتحته زليخة بما يتلاءم مع ما حدث فعلا..حتى أنها لا تدري أحيانا ما إذا كانت قد حدثت به أم لا ، وكانت تنتهي إلى أن تصدق هي نفسها أنها قد قالت ما قيل حقا ، بل لقد اعتقدت أن ما تقوله قد حدث من قبل فعلا وأنها رأته بعينيها وهو إنما يتكرر الآن أمامها في الفأل ،وقد قبضت على بعض نبوءاتها في أحلامها فأصبحت هذه مصدرا للمصائر والكوارث والحظوظ.

وستتذكر فتيات شمس الدين كلهن نبوءتها لزهية المحيمد : لن ترتاحي إلا في القبر ، وعرسك سيكون موتك ..

دخلت زليخة كل بيوت القرية عرفت أسرارها وخفاياها فحتى القرية المفتوحة كراحة اليد لها أسرارها ، لقد اندحست

بين المرأة وزوجها ، بين العاشق والمعشوق ، بين الزاني والزانية، بين الرجل ومخاويه ، والمرأة وقرينتها ، والشـــرير وإبليســـه ، والخير وملائكته وفي هذه العلاقات تكمن كل الأسرار الـــتي لا تقرأ في الكف المفتوحة التي يلعب فيها إبليس اللعين دائمـا دورا متكررا ومتشابها منذ الخطيئة الأولى ؛ أما التبجحات الجنســـية العجائبية التي تطفو على سطح الأسرار العميقـــة لتحجبـــها ، فليست سوى ادعاءات أو رغبات أو أمنيات أمام مـــا تعرفـــه زليخة حقا .

لذلك لم تكتف بضرب الفأل ، بل عالجت الأمراض الجنسية التي لا تفصح عنها النساء إلا لطبيبهن أو شيخهن أو ساحرهن، وحتى الرجال المغلقون كسر بدوي همسوا لها بأمراضهم السرية التي لها رائحة العهر ، وهم يثقون بأن رائحتها النتنة كفم الضبع لن تطاردهم .

طبخت أعشابا لتقوية الباه ، ولتكبير الذكور ، ولزيادة طاقـة المرأة في الجماع ، وعملت أسحارا لفك مغاليق القلوب المرتجـة ليحب القلب الكاره ، وليكره القلب المحب ، وليصد الواصل ، ويصل الهاجر ، أليست هي التي علمت إبليس الدرس الـــذي نساه حين قال للنساء : من عمل خيرا معكن اعملن شرا معه ،

ثم قال انصرفن فقد انتهى الدرس ، فانصرفن إلا واحدة قـــالت له: إن أقدامي لا تحملني إلى البيت ، وحين حملها على رقبتــــه بالت عليه .

وصنعت ، وقد حملها حماس عملها ، أدوية للإنجاب كــانت تعطي نتائج إيجابية في غيرها ، وبالرغم من هذا قيل فيها المثل : لو كان عندها طب حطت على راسها خب.

لم تؤثر أعمال زليخة الخفية في صداقــــة الشـــيخ إبراهيـــم وخليف، و لم يقاطعها الشيخ معتبرا أنها تجور على كثرته ، ليس لأنها مستباحة ، بل لأنه ما عاد حريصا على احتكارها ، وعلى كل حال فالشيخ و زليخة يذهبان معا إلى الغيــــب ، وهـــذا اتفاقهما الوحيد ، هو يذهب على جناح الملائكــــة والأخيـــار الصالحين من عباد الله ، وزليخة تذهب على أجنحة الجن المؤمن أو الكافر ، الأبيض والأسود والأحمر ، مع هـــذا فـــإن عــالم اللامرئيين يتداخل بغموض يجعل الحدود كالسراب لا يمكــــن تسييجها، وكل منهما يقفز في حقل الآخر ، إلا أن الشيخ يظل مرجعا أعلى تصب عنده الحالات المستعصية كحالة زليخة الـتي حجب لها ، ومسح بطنها بيده الكريمة وقرأ عليها إلا أن النساء لا تقنعهن المظاهر بل يغصن في أعماق النوايـــا مؤكــدات أن

الشيخ إبراهيم هو الذي دعا على زليخة بعدم الخلفة ، وشـــد رحمها نكاية بها وانتقاما منها .

ولم يكن أحد غيرها يعرف أنها تلتقي بابنها ، وأنه يأتيـــها أحيانا فوق موجة النهر ملفوفا بصرة ، محمولا بسلة ، ويأتيـــها أحيانا باسما ذهبيا على جناح طائر ما ، بين يدي ملاك أو جـني مؤمن ..وأنها تداعبه ، تهدهده ، تغني له ، تشـمه ، تضمـه ، ولكنه عندما يمضي لا يترك أثرا منه فبوله لم يوسخ فرجها أبدا.

مازال خليف يشخر شخيره الرتيب وما زالت زليخة عـاجزة عن النهوض ، متكاسلة متراخية ، نظرت إليه بإمعان فـأدركت كم تحبه فهو وحده الذي يبقى بعد أن يمضي ابنها دون أثـــر ، بعد أن يمضي الجن والمردة بخطواتهم السريعة ورفيف أجنحتهم ، بعد أن يمضي الناس كلهم يبقى وحده الحي النـــابض الدافـئ الضاج بالحياة .

وبالرغم من أن لسانها كان يسلقه سلقا عندما تشرب مـــاء الشجاعة ، أو يحاصرها الهم واليأس ، إلا أنها لم تعشق أحـــدا سواه ، وإذا قالت النسوة لهـــا : إن لا هـــم لـــه إلا ترطيـــل خصيانه.. أدركت أنها هي من يرطل خصيانه ، وأنها لا ترغـب في شئ من الدنيا مثل أن تفعل ذلك ، وهي لا تعيش إلا مـــن

أجله فقد احتضنها وهي مشرفة على الهلاك ، فبسط عليها جناحه ، وأمنها من جوع ومن خوف ، وجعلها امرأة بعد أن كانت مجرد خادم نكرة ، أخرجها من ظلمة الوحدة والذل والجدران الرطبة المظلمة إلى براري الشمس الفضاحة ، فوضعت وحدها على وحدته ليولدا حياة ثالثة دونها لا يتركب القدر ولا يتم الاستمرار والخلود ..إلا أن حلمها بالولد الذي يوسخ فرجها لم يتحقق مما جعل كل بناء خرابا .

لابد أن تنهض الآن فالشمس غمرت الشعاب والأودية ، طردت تعبها المتشبث بها كالقنوط ، تحركت دون ضجيج حتى لا تزعج خليف ، حملت الماء وفي عتبة الغرفة تخلصت من ثيابها، رمتها بحركة واحدة بارعة وسريعة ، وتجمعت على نفسها مقرفصة متداخلة كالجنين فانفلتت الأجزاء الحميمة المتوارية من جسدها لتطل إطلالة ناقصة مستدركة من زليخة لا تكفي اللامرئيين الذين يتلصصون على خلق الله للوقوع في عشق جسدها والدخول فيه ، لأنها تعتقد أنهم إن دخلوا فلن تخرجهم لا القراوات ولا ضرب التواسيم والعصي والأوتاد .

دلقت الماء على رأسها عدة مرات بطاسة كبيرة ، ثم على كتفيها وصدرها وتحت إبطيها وبطنها وفرجها ، ومررت

بيديها على جسدها كله تفركه فركا ، ثم تشاهدت وخرطت جسدها من الماء بيديها ، لبست ثوبها وصايتها ونشفت شعرها ومشطته وجدلته وتعصبت ، ثم فتحت الباب لتدخل شمس نيسانية عابقة برائحة الربيع البري الذي له عمق الأفق ورائحة اللقاء الحميم .

عبرت الحوش المنفتح على البراري الواسعة إلى مربط حمارها الأبيض ، قدمت له العلف ، نثرت الحب للدجاجات ، ولجت الحظيرة فرأت السبوح ذاويا لم يمس علفه ، هزت رأسها بأسف وعادت إلى المنزل ، حملت قربتها ووضعتها فوق الحمار وخيل إليها أن ولدا ما يمسك شليل صايتها منذ بدأت جولتها الصباحية فالتفتت وقد أشرق في نفسها أمل يائس بحلم غامض لارس له في بطنها فرأت الجدي الوحيد يعلس طرف صايتها فأحست بخيبة مريرة ودفرت الجدي برجلها دفرة جعلته يتدحرج مصدرلغاما مخنوقا ، لامت قسوتها المجنونة وهي تتورك حمارها وتيمم صوب النهر ..مرت بوضحة المرار تدور في فناء خيمتها ، قالت الأخيرة : شمسك اليوم عالية ؟
قالت زليخة بغير قليل من الادعاء والتبجح : لقد اغتسلت .

أحست الأخرى بالطعنة لأنه لايمكن الاعتراف بـاللامرئيين ، فردت لها الطعنة : ما ينفع الغرقان كثر السبوح .

· نفذت اللطمة إلى سويداء القلب فعكرت مزاجها الذي كان للتو هادئا ، ركبها عفريت المخاصمة وهي المســالمة عــادة ، فردت بقسوة على وضحة :ما لنا حكم على الله ، لنا حكـــم على ما بيدنا ..

سخرت وضحة في سرها من حياة البشر القاحلة كحقـــل صقيع ، وتمرغت هي في حقول الضوء اللامرئية البهيجة الـتي لا يراها الفانون الذاوون الخامدون في حياقم الضيقـــة كجـــهاز العقرب ، ولا حتى في أحلامهم التي لا تمتد كأبصارهم الزائغـة أبعد من أنوفهم ، والتفتت إلى من تراه وحدها بنظرة امتنـــان لأنه أخرجها من حقل الصقيع ، فمنحها وحدها ابتسامة شفيفة متواطئة ، مع هذا غلبها طبعها المشـــاكس فـــأبت أن تفوتهـــا لزليخة، صرخت خلفها :الله ما يضع بيض بصفاة.

كانت زليخة قد لكزت حمارها بتعجل مقصود لتفوت علـى الأخرى فرصة الرد ، ومع أن وضحة مرفوع لها الـــرواق إلا أن الرد المتشفي الحاقد صدم أذنيها كصفعة ، كـــادت الدمـــوع تطفر من عينيها ، انسلت إلى داخلها كأفعى تنسل إلى جحرها،

فوصلتها ضحة شمس الدين الصباحية وصورها المتكررة المألوفـة كأنما من وراء حجاب ..مرت أمام الخيم دون أن تسلم علـــى أحد أو تدعو الورّادات كالعادة ، لكن ظهورها أعلن كأجراس المرياع ساعة الورد ، فانسلت من كل خيمة فتـــاة توركـــت حمارها ، وتقاطرن خلف زليخة وكأنها مرياع يقود القطيع .

التحقن بها خارج القرية على حمرهن فتســـابقن ، تنـــابزن بالألقاب ، قذفن بعضهن بعضاً بأقوال فاحشة لا يخطر في بـــال مخلوق أن عذراء يمكن أن تقولها .اســـتنفدن فرصـــة الحريـــة اللامحدودة الممنوحة لهن في غياب الأهل والرجل فمنحن الخفـــة والطيش والفجارة اكتمالها الممسوس ، وغنت زهية :

لأزرع شكارة لعشيري / واسقيها مي العين

واحصد هروش القلب / لمن يجينا الزين

وصلن إلى النهر ، فنزلن عن حمرهن وتراكضن إليه ، ارتمين في أحضانه، تراشقن بالماء ، اصطخـــبن والتصقـــت الثيـــاب بأجسادهن فبرزت الأجزاء النافرة الحميمة بفجـــور ، النـــهود الظمأى للمس ، الأرداف المستديرة الرخصة ، البطون المنزلقة المنسفحة إلى أيكة المعرفة .

انكبت زليخة على قربتها تملؤها غائبة عن صخب الحياة حولها وغبطة الفتيات التي لم تجرها أبداً ، فقد عاشت طوال عمرها محرومة من العبث البهيج الصاخب كزير نساء يطارد جمع إناث شهي ، في منزل أسيادها مطمورة في ظلمة البيوت الرطبة التي لا تنفذ إليها الشمس ، وحين اصطادها خليف ضائعة وأدخلها معه في دروب الشمس عادت ، وقد أغرقها هم المعاش ، إلى الدروب المظلمة والسرية ، والدهاليز الباردة الرطبة كالرحم العاقر.

رأت الفتيات انصراف زليخة إلى نفسها وعزلتها ، فتغامزن عليها ، قالت لها إحداهن : لست على بعضك ..

ـــ: وهل هناك أحد على بعضه ؟

قالت أخرى : طبعاً من يحضن حبيبه ، فلعل خليف أغضبك ..

قالت ثالثة : سنشمط له (...) وقذفت كلمة قبيحة تضاحكن لها بصراخ مستنكر مصطنع .

احتجت إحداهن : لن توافق ..فماذا يبقى لها ؟

سألت أخرى : كم مرة في الليلة الواحدة ؟

زجرتها بنظرتها ، فألحت : أمانة ..بالميتين ..؟

ـــ:ألا تخجلين ؟

ـــ: سرك في بير .

وسألتها زهية : أما زال فألك لي كما هو ؟

قالت زليخة : هل هو كتبتي لأغيره ..؟

ردت زهية : إن لم تغيريه سأغرقك في النهر .

أشارت إلى الفتيات فحملنها من يديها ورجليها وأرجحنها: هوب الجنة هوب النار ، وهي بين أيديهن صرخت : سـيكون ذلك قريباً ..وغرق صوتها في خبطة الماء ، فقامت تجرجر نفسها وهي تسعل لدخول الماء في مجاري تنفسـها..لكـن زهيـة احتضنتها بود وقالت : لماذا تريدين التخلص مني سريعاً يا أمي؟ أحست زليخة بالإشفاق على الفتاة التي لا يزهر تفتحها الحـار في حضن عطوف ، لأنها يتيمة الأم ، فقالت لها :في كل صبـاح سعد جديد ..

قالت زهية وهي تشرق بدمع الأمل : فافتحي لي الفأل إذاً ..

خرجن من الماء ، اقتعدن الشاطئ الرملي الرطب على شـكل حلقة ، وأخرجت زليخة كيسها من خرج حمارها وقعـدت معهن ، قالت لزهية : ضعي يدك فوقه .وضعت زهية يدهـا فوق حجارة الفأل ، وأغمضت عينيها متمنية فألاً جديـداً ، تمتمت زليخة بكلمات غامضة في سـرها ثم رمـت الـودع

والحجارة والخرز والكعاب والبلــورات المختلفــة الأشــكال والألوان والأحجام ، لبست سيماء الجد وحدقت في حجارتها ، وسكنت الفتيات وكأن على رؤوسهن الطـــير ، ولم يعــدن يسمعن إلا اصطخاب مياه النهر وصوت زليخة العميق الهـادئ وكأنه يأتي من وراء حجاب .

أيام مراوغة كاليقين

السبوح يرمل صف الإناث الطويل

كان فمه جافا ،ولسانه ثقيلا كالحطبة ، لقد أضاع السبوح وهو يركض باحثا عنه في حقل ،في حويجة ،في حرش وحين هده التعب وأجهده العطش فغلظ لسانه رأى السبوح فوق العشب هيكلا عظميا ، وقد حولت العصافير والطيور محاجر عينيه ، فمه ، آذانه ،قفصه الصدري إلى أعشاش لها ، تطير منها وتحط فيها.

أدرك ،عندما أفاق من نومه ، وفمه جاف ولسانه كالحطبة أن الكابوس الذي رآه قد حدث حقا ، وأن السبوح فارقه إلى الأبد.ركض مضطربا متعجلا ، تعثر في دجاجة قفزت أمامه مذعورة كأنما يطاردها ثعلب ، وبخطوات سريعة عبر الحوش الخالي إلى حظيرة حصانه ، دفع الباب فدخل معه النور الذي تراقصت فيه آلاف ذرات الغبار كالضباب فرأى من خلالها فرسه مستندا إلى الجدار كأنما يتكئ عليه وهو يغفو إغفاءة قصيرة سيعود منها بعد قليل ..في تلك اللحظة المطمئنة استعاد حسه بالواقع فوصله نباح كلب بعيد ، ورنت في أذنه أجراس المراييع الأخيرة المبتعدة المتلاشية وكأنها تأتيه من عالم

آخر..تنفس خليف بعمق وطمأن نفسه :إنه نائم..خوي الذي لا خوي لي غيره ، لم أحس بالوحدة أبدا بوجوده ، كنت أعرف أنه لن يخذلني ويذهب بعيدا في الظلمة التي لا عودة منها..

لكن الحصان الذي ظنه خليف غافيا أو أقنع قلبه بذلك كي لا تذهب نفسه شعاعا كان قد دخل في ظلمة الغياب ، مات السبوح ، مات حصان إبراهيم باشا واقفا وحيدا مهيبا كالبشر، وهي ليست المرة الأولى التي يخرج فيها من جنس الحيوان إلى جنس البشر، ففي أيامه الأخيرة أضرب عن الطعام كالنساك والمتصوفين ، ومثلهم ذوى وهزل وتصاغر، وربما مثلهم أيضا طافت به موائد السماء العامرة الشهية فلم يقربها .

مات الحصان وحيدا ، نفق قبل أن تنطلق صرخات الكون الوليدة ،فيتنفس الصبح ،وترتفع الشمس ،وتشقشق العصافير ، وتصيح الديكة ، وتثغو الأغنام ، وترن أجراس المراييع وأصوات البشر ، وحيدا دون أن يودعه أحد مضى إلى ظلمته الأبدية .

لمس خليف الحصان بتهيب وخوف فلم يعد قادرا على تكذيب نفسه ، لم يحس بدفئه ، لم يحس بنبضه ، و لم يرتجف جلده للمسة المفاجئة ، وإذ جاءه اليقين كطعنة في القلب

انزلقت قدما الحصان وتداعى مثل جدار هرم علـــى الأرض في خبطة اختلطت بأصوات رفرفة أجنحة الطيور التي غادرت مــن محاجر عينيه ، فمه، قفصه الصدري .

عرف خليف ما كان أدركه من قبل : مات السبوح هديـــة إبراهيم باشا ، مات قهرا أو انتحارا كالبشر إذ تلصـــق بهـــم وصمة العار التي لا سبيل لغسلها إلا بالدم.

في فوضى الانسحاب،عندما سقط نجم إبراهيم باشا وهـوى من حالق هرب الحصان وهم يخرجون خيل الإسطبل الباشوي، طارده خليف مع السائس الذي قال له : إنه أحـــب أحصنـــة إبراهيم باشا إلى قلبه ، ولو عرف هروبه لقتله، وإن لم يســتطع إعادته فالموت مصيره المحتوم .وعندما عاد السائس يائسا حتى لا يتخلف عن العسكر المنسحبين فيضيع في الرجلين ، ظل خليـف يتتبع الحصان حتى عاد به ، لكنه لم يجد السائس ولا العســـكر فاعتبره هدية من إبراهيم باشا وقرر أن يحتفظ به أمانة في عنقـــه حتى عودته .

ساهم خليف في قتل حصانه فحفلات البغاء التي يقيمونهـــا تكريما لفحولته الطافحة بالأمـــهار الأصيلـــة استنزفت طاقـــة السنوات القادمة ، و لم ينتبه حتى خليف للإنذارات الصريحـــة

لخطر الانغماس في البغاء الخيلي ، تأخرت التوبة فجـــاء النزو الأخير لا إنذارا متأخرا يستوجب الحيطة والتوبة بـــل ضربـــة قاضية ..فقد شب الحصان مرة واثنتين وثلاث ثم نكس متراجعا مهزوما ،يزخ العرق منه في خطوط طويلة متواصلة ، ويشـــل كراية الفزع ، أحس خليف نفسه بالهزيمة الشخصية ، وسحقته العيون الشامتة كعريس خائب ، وطعنته التعليقات ..

ـــ:قومه بالرقع.

ـــ: لقد أصيب بالعين .

ـــ:ليقرأ عليه الشيخ .

ـــ: ضعوا له خرزة زرقاء أو حجبوا له.

ـــ: فات الأوان.

ـــ: لقد هرم الحصان و لم تعد تنفعه التمائم والحجب والتعاويذ.

قاد خليف فرسه مخلفا الحشد الذي راقب الزفـــة الـــتي لم تكتمل إلى النهر ، خوض فيه مع حصانه وبحب زائد ضاعفـــه الفشل فرك صدره وفهدتيه ، وجهه وقذاله ، بطنه وكفله ...

لم يحرم خليف حصانه من المتعة الإلهية التي لا ينجـــو منـــها إنسان أو حيوان ، وقارن نفسه بحصانه فرأى أنهما من طينـــة واحدة لا يشبعان،ولا يؤثر فيهما الزمن ، لكن الزمن الخبـــيء

الغدار الذي لا يرى كالجنيات والملائكة حط بثقله على الحصان فجأة ،دفعة واحدة كعين حاسدة .

أضرب الحصان عن العلف منذ ذلك اليـــوم ، فاصطحبــه خليف إلى البراري ،حاول أن يعزيه عما حدث ،قال لــــه : لا تندم على ما فات ، وتذكر أن الإنـــاث اللـــواتي ركبتـــهن لم يركبهن حصان قبلك،ولن يركبهن حصان بعدك، وحتى التيـس الدعي لم يحصل على عدد إناثك..لقد تركت نســلك في وادي الفرات كله ، أنت أفضل حظا من صاحبك الـــذي لم يثمــر كبغل لعين حتى قطعة لحم تبول على نفسها..عليك أن تـــأكل لتصمد حتى عودة إبراهيم باشا ، أقول لك جازما لن أقابلــه إن لم تكن معي.

لم يلتفت الحصان مع أنه حاول أن يدير رأسه إليه بيده ، بـل ظل يسير بخطوته الوئيدة المترددة كخطوة شيخ متهدم،فاستوقفه خليف واقفا في وجهه قائلا : يجب أن تعدني بـــــألا تــتركني وحيدا..توقف عن إكمال قوله فقد كـــانت عينـــا الحصــــان زجاجيتين ميتتين .

من يومها وخليف ينتظر أن يموت الحصان في كل لحظـــة ، ذوى وضمر حتى أصبح جلدا على عظم ، تعد أضلاعه وعظامه عدا وكأنه هيكل عظمي عار.

أحس خليف ببعض العزاء وهو يفكر بأن حصانه ربما قبل أن يموت ابتسم كالبشر وهو يرى الصف الطويل الطويل الـذي لا يعد من الإناث التي ركبها.انحنى على الحصان مسح ظهره بحنان وفكر بمرارة ..لقد أصبحت وحيدا كاليتيم.

دخلت زليخة في شلال الضوء النافذ من الباب ، وقفت فوق رأس الحصان قليلا ثم قالت : لقد مات حصانك منـــذ وقـــت طويل .

قال خليف دون أن يلتفت إليها : لقد مات واقفا .

قالت زليخة : لا أحد يموت واقفا.

رماها بنظرة قاسية حاقدة ، أحست بالإشـــفاق عليـــه لا بالخوف ، إلا أنها لم تتراجع فرائحة الموت الخضراء الراكـــدة كالطحالب تجتذب الذباب الأزرق الضاج ،وبحسها العملـــي قالت : لابد من جره إلى خارج القرية وإلا جيفها ..

ذهبت زليخة لتفزع بعض الرجال لربط الحصـــان بـــأفراس وجره إلى خارج القرية ، فيما كان خليف يبكي حصانه ، ومن

ضباب دموعه الغزيرة العصية كمطر الصيف رأى السبوح ينطلق راكضا في البراري فوقه رفوف العصافير والحساسين والزرازير والقطا واللقالق، وحوله أسراب الغزلان والأرانب والثعالب في حركة منطلقة لكنها ساكنة ثابتة كالمقيدة.

العسكر راحت ماجت

جاؤوا عند الظهيرة في يوم تموزي شمسه تذيب مخ العصفور، يمحوهم وهج الظهيرة ويظهرهم كالآل .تقدموا من الشمال يجللهم الغبار الذي غطى وجوههم ، وتكاثف على شوارهم وحواجبهم التي لم تحمها الشفقات ، أما ستراتهم التي بلون التراب فكانت تنز عرقا غزيرا يستقبل ذرات الغبار ويدوفها وحلا .

كانت شمس الدين بناسها ودوابها وكلابها تتقلب في قيلولتها التي تنضح عرقا في الظل ، ولم يفلت من قبضة القيلولة الرصاصية سوى بضعة صبية يبحثون عن أعشاش القطا والدراج والمريعي والعصافير تحت سوق القمح التي درسها الجراد ، وفجأة ارتفعت صرخة انتصار من أحدهم :

ـــ: وجدتها ..اوجدتها..!

نط الولد عدة نطات من الفرح ، وانبطح على بطنه يحدق في عش عصفور ترقد فيه ثلاث بيضات صغيرة بحجـــم بعـــرورة الجمل ، ساخنة كأنما نزلت للتو ، وصله الأولاد واحـــدا إثـــر الآخر ، وكلما نظر واحدهم إلى البيضات التي بلـــون المـــاس العكر أطلق صرخة دهشة حاسدة ، وتكوموا إلى جانبه علـــى بطونهم ، يراقبون البيضات ، مد أحدهم يده ليلمسها فضربـــه صاحبها على يده : لا تلمسها فتنكسر..!

سحب الآخر يده عن البيضات المنمشة ، وقال : ماذا ســتفعل بها يا سالم ..؟

قال سالم : سألفها بخرقة أو بعذق صوف مبلل بالماء وأدمســها في النار فأشويها..

ـــ: ستطعمنا منها ..

ـــ: لكنها لن تكفيني وحدي ..

ـــ: قد تكون بيضات حية فتسممك ..

ـــ: وهل أنا غشيم عن بيض الحية..؟!

ـــ: بيضة دجاجة واحدة تعادل عشرين منها ، اتركها لتفقـــس فتحصل على الأفراخ ، وتربيها..

ـــ: كيف تفقس وأمها ليست فوقها ؟

ـــ: ستعود بذهابنا ..وحتى لا نضيع مكانها نعلمها برجم مـــن الحجارة.

ـــ: اتركها ولا تأخذها وإلا دعت عليك أمها فـــيرميك الله في نار جهنم .

ـــ:حرام أن تأخذها يا سالم ، فقدتنحن أمها عليها.

ـــ: فإن لم تعد أمها..؟

ـــ:ستعود ، فالأم لا تهجر بيضها..

ـــ: ربما تكون أمها ماتت..

ـــ: بل خذها يا سالم ، فقد تأتيها حيـــة وتبتلعـــها ، فيصـــير خطاها في رقبتك..

ـــ: سآخذها وأراقب العش ، فإن عـــادت الأم رددت إليـــها البيضات ..

ـــ: لكن الأم ستهجرها لو لمستها..

وفيما الصبية منشغلون بمصير البيضات الصغيرة سمعوا وقـــع حوافر الخيل ، التفتوا برؤوسهم المشغولة بمصير البيضات التفاتـة سريعة فشاهدوا كوكبة العسكر تتقدم كزوبعة غبار .

استفاق كلب من قيلولته ، ونبح نباحا هزيلا دون أن يكلف نفسه عناء النهوض ، جاوبه كلب آخر، كان يبرد لهاته بلعق ساقية شنينة مازالت رطبة تفوح منها أبخرة حامضة، بنباح فاتر إلا أنهما معا شكلا جوقة لاستقبال القادمين ، منقذين تقليدهم الخالد الذي كون سمعتهم الشهيرة في كونهم أول المستقبلين وآخر المودعين .

وحين بدأت الخيول العرقى المجهدة تدب في أرض شمس الدين استغل الصبي الذي اقترح ترك البيضات مكانها فرصة البلبلة فقبط البيضات دفعة واحدة وهرب ، طار الآخرون وراءه، تشبثوا به قبل أن يبتعد ، حاولوا تخليص البيضات منه ، لكنها كانت قد تحولت في يده إلى سائل لزج وقشور طرية مهشمة ، فاشتبك معه صاحبها في عراك شرس حاقد ، عندها انطلقت الرصاصات لتخمد نهائيا نباح الكلبين الفاديين ، فهاجت الكلاب الأخرى وارتفع نباحها ، فتتالت الرصاصات تحصدها .

ترك الصبية بعضهم بعضا إلى حين ، وطاروا إلى بيوتهم وهم يتذكرون الأهزوجة التي علمها خليف لهم :

صاح الديك بشمس الدين / عصملي راح يولي.

و لم تجرؤ ألسنتهم على لوكـــها في وجـــوه العســـكر لأن الأهازيج لا تنفع مع من يملكون العصمليات .

نهضت شمس الدين مروعة بالطلقات المقتحمة دون إنـــذار ، ظنت أن غزوا فاجأها، وسيأخذها عارية حافية قبل أن تتمكـــن من صحوها ، فارتجفت من الأخيذة الذليلة ، وحين شـــاهدت ركب الجنود يتقدم بجلال ، اطمأنت بعض الاطمئنان ، فـالرمد أهون من العمى..!

أومأ الشيخ حمد للضيوف من أمام خيمته ، فاقتربوا منـــه ، وقبل أن يترجل المأمور قال له : أأنتم أموات..؟!

قال الشيخ : النائم مثل الميت ..

قال المأمور: حتى كلابكم كانت نائمة فلم تنبح ..!

قال الشيخ : البركة فيكم فهي لن تنبح بعد الآن أبدا .

تراكض بعض الرجال حاملين الماء ، صبوا على أيدي المأمور والجنود ، فغسلوا وجوههم وأعناقهم ، وتناولوا بقية الماء مـــن الرجال ودلقوه فوق رؤوسهم لينتعشوا ..ثم جلبوا لهم الشـــنينة الباردة ، فعبوا منها حتى انتفخت بطونهم ، وسحب الرجـــال خيول العسكر ليقدموا لها الماء والعلف ، والشيخ لا يتوقف عن الترحيب بهم بعدد الخطوات التي مشوها ، أما في سره فكـــان

يقول : لعنة الله على الدرب الذي حذفكم علينا ، فأنتم كالجراد أمامكم خضرا ووراكم يابسة..!

وقبل أن يلحق بالضيوف إلى داخل الخيمة أشار للرجال أن يذبحوا ، ويعجلوا بالغداء.

أبى خليف أن يمد يده إلى الذبيحة، وقال للرجال : سأعود إلى بيتي ، فأنا لا أضع يدي في يد هؤلاء.

قالوا له : لا تضع يدك في أيديهم ، ولكن اذبح الشاة واسلخها فأنت أسرعنا في هذا ..!

ــ: لقد سبق مني يمين ألا أقدم لهم شيئا فحربي معهم مازالت مستمرة.

ــ: اترك حكاية الحرب هذه حتى عودة إبراهيم باشا .

ــ: بل أنا في حالة حرب دائمة معهم ، لم أترك لهم طريقا إلي، فلا محصول يطلبون عشره، ولا دواب يأخذون خاجورها..!

ــ: نعرف ذلك يا خليف ..

ــ: لا تطلبوا مني شيئا لهم..

ــ: من يتجاهل جنود السلطان كأنما يتجاهل السلطان نفسه.

ــ: السلطان هو رأس البلا ، فأنا أعدى للسلطان من جنوده ، فالخط الأعوج من الثور الكبير.

ـــ: ولكننا لا نستطيع أن نعادي السلطان ، الله يكفينا شره ..

ـــ: لن يشمر عن زنوده إن لم تشمروا أنتم عـــن زنودكـــم ، وسيظل نير السلطان في أعناقكم مـــادام الخـــوف يلبســـكم كجلودكم..

ـــ: لو لمسناهم لمسا لما عاد لنا بقاء هنا ، والأرض غالية.

ـــ: بل نفوسكم هي الغالية عليكم ، فأرض الله واسعة.

ـــ:فأين يذهب العصفور عن بيدر الدخن ، سنعود إلى النـــهر ، وعندها سيعثرون علينا..فأين المفر؟

ـــ: سأذبح الشاة وأسلخها إن طاوعتموني في أن ندبر لهم مقلبا لا ينسونه طوال حياتهم .

ـــ: نحن معك إن لم يكن في ذلك ما يؤذيهم في أرواحـــهم ولا يضرنا..

ـــ:لا تفزعوا لن نشلحهم ولـــن نســـتل أرواحـــهم الغاليـــة عليكم..سندسم لهم الطعام فنجعل ليلتهم بسواد أفعالهم ، ليلـــة واحدة لن يؤدوا فيها شيئا من دينهم الطويل لنا ، لتســـويدهم ليالينا كلها ، لكنها أفضل من لا شيء ..!

في الوقت الذي باشروا فيه بالذبح وإعداد الطعام كان الشيخ حمد يناور المأمور الذي بدا كحجر الصوان لا يلين له قلب ولا لسان ، قال : هل حسبتم مال السلطان ؟

قال الشيخ حمد : كلنا للسطان.

ـــ: لا نأخذ منكم إلا الكلام .

ـــ: بل ستأخذ ما تشاء..

ـــ: كأنك مطمئن ، فهل زبنتم شيئاً في الأودية أو عند البـدو؟ لن يخفى علي شيء ، وعندها لن أرحمكم..!

قال الشيخ غاضباً :إن قمنا بشيء يغضب السـلطان فـالله لا يرحمك إن رحمتنا..

لهجة الشيخ الغاضبة والمستسبعة جعلت المأمور يتراجع قليـلاً مفكراً بأن الشيخ لن يسمح له أن يدوس في بطنه حتى يخـرج مصارينه ، فليخفف الوطء عليه إلا أنه أضمرها لـه ، فقـال بتوعد خفي : سنرى ..سنرى..!

قال الشيخ : أنت تعرف أن الجراد لم يكتف بالمحصول ، بـل علك حتى أشجار الحوائج وأوتاد الخيام..

قال المأمور ساخراً : ما شاء الله ..أبقى عليكم أنتم فقـط ..؟ نعم الشريدة.!

تجاهل الشيخ السخرية في كلام المأموروقال : لا تسأل عن الخاجور فسوف نؤديه حتى آخر بارة، وحسب طلبكم ، وفوقها بوسة من شواربكم ...

نضج اللحم في القدور ، ففرشوا الصياني بالخبز ثم دلقوا اللحم والمرق فوقها، وحمسوا الشحم وأضافوا إليه عدة طاسات من السمن ، ثم أراقوه فوق الطعام ، وقدمت الصياني للضيوف باحتفال كبير ، فنسي المأمور والجنود الخاجور والعشر بمرأى اللحم الذي يتلألأ بالدسم ، فأقبلوا يلتهمون الطعام بأكفهم بشراهة وهم يزخون عرقا كالمطر..

جاء الليل فجاء الويل! ناموا في أول الليل وهم متخمون بالطعام الذي خدرهم ، وضربتهم نسمات غربية ندية، تبسموا لها في نومهم ، وكأنها أيد رقيقة تلمسهم بحنان، لكنهم ما لبثوا أن هبوا على أوجاع مستعجلة في بطونهم ، تعاقبوا إلى الخلاء أولا ثم خرجوا اثنين اثنين، ثم استوطنوا الخلاء كلهم، وهم يطحرون ويزحرون ويئنون ، نبحتهم الكلاب الناحية من مجزرهم ، فجن جنونهم ، وأطلقوا النار على صوت النباح ، على صوت حسفة ما ، حركة ما ، زول ما .. وهم يكادون يموتون رعبا من الأفاعي أو العقارب التي قد تهاجمهم...

قضوا ليلتهم في الخلاء يتحارسون ، وقضت شمس الدين ليلتها ساهرة على عجاج ملحمة المأمور والـــدرك ، وهـــي تخفـــق بالضحك المأسور كطيور البراري تستظل نبتة هزيلة شائكة .

تنفس الصبح ، و لم يتنفس الجنود فقد اصفروا وذووا في ليلـة واحدة ، و لم يكن المأمور قادرا على الجدل ، بل أصبح ضيـــق الصدر ، زاهدا في التفاصيل، فتعجل كل شـــيء .. وقبـــل أن يغادر، قال للشيخ : إن الطعام لم يطلع من قلوبهم..وإنهم لابـد وضعوا فيه سم أفعى ، وإنـــه ســيعود علـــى كـــل حـــال قريبا..وسيرى..!

ركب المأمور وجنوده خيلهم ، وعدوا سريعا باحثين عـــن خلاء ليأخذوا راحتهم بعيدا عن شمس الدين ، وخـــرج الأولاد خلفهم وقد ابتعدوا هازجين:

صاح الديك بشمس الدين / عصملي راح يولي ..

ظلت شمس الدين ممسكة بخواصرها من شدة الضحك أيامـــا طويلة ، وتحولت الحادثة النادرة لتكون أبرز معارك شمس الديـن وبطولاتها ، إذ لم يمض جيل واحد حتى أصبحت تلك ملحمـة من ملاحم شمس الدين يذكرون فيها أن شمس الدين ســركلت الجند العصملي بعد أن جردتهم من أسلحتهم وخيولهم ، وأنهـــا

أركبتهم بالمقلوب موثقي الأيدي فوق الحمر الزعراء ، والأولاد يهيجونها وينخسونها بالأشواك والعصي ، وهم يهزجون:

يا جحيشاتي هيجي هيجي

نجمة الظهر لاحت بزيجي

المأمور يلوح بايده

والجحيش الأزعر يزيده

صاح الديك بشمس الدين

عصملي راح يولي .

أيام مقيدة كالحنين

بيض الدراج في أفواه الطرق

استقر خليف البدر إلى جانب الشيخ إبراهيم في الحويجـــة ، مسندا ظهره إلى شجرة غرب ، دافنا رجليه في ماء النهر حيث يصطدمان بالحصى الصغيرة التي يدحرجها الماء فتصل صليـــلا يجعله حاجز الماء يصل إلى المسامع المرهفة وانيا هامسا بعذوبة ، كضحكة الحسناء يخنقها الحياء . ويزف الزل والقصب زفيفا عاليا ، ويتحرك سابحا في الفضاء ، طائرا مع الرياح ، وتنحـني أشجار الصفصاف على النهر بحنان ، يناديها النهر فتوشـك أن تلبي النداء ، وتغوص في اللجة المشتهاة ، وترتمي شمس الأصيل في النهر فتصبغه بلون النحاس ، وتمخر نعاج الماء النهر بخفـــة امرأة مثقلة بالحبور ، فيمـــا تحـــط طيـــور الإوز والشـــقراق والنوارس، أو تطير في عين الشمس الحمئة ، وتغيـــب فيـــها ، يتكاثر البعوض والبرغش ، ويطن طنينا مزعجا كروح قلقة .

منذ قليل كان خليف البدر يبحث عن الشيخ إبراهيم بعصبية وإلحاح ، مر في كل البيوت سائلا عمن رآه وكأنما كان يبحث عن آخر أمل له ..! ومع أن الشيخ هو أول من تندر بعســكرية خليف وعنه حملت شمس الدين قولها المأثور : قضـــى خليـــف

خمس سنوات في عسكريته أصبحت زادا لبقية عمره ، فإنهمـــا أصبحا رفيقي طريق فهو يبحث عنه عندما تضيق بـــه الأرض فيصبح الرحب أضيق من عين الحسود ، عندما تتكاثر الأسـئلة التي لاأجوبة لها كبيض الدراج الـــذي لا يفـــرخ ولا يعقـــد الرفوف، عندما تواجهه مشكلة مستعصية تحتـــاج إلى حلـــم الرب..في غيابه يظن أنه سيجد عنده جوابا لكـــل أسـئلته ، حلولا لكل مشكلاته وحين يراه ساهما متأملا جامدا كحجـــر يطير اليقين فزعا من قلبه كفرخ زاغ موصى، يطير قبل أن ينزل الإنسان ليلتقط حجرا .قال له خليف مرة : أعرف أنك لـــن تنجدني مع هذا أظل منجذبا إليك كميت إلى ضريحه .

ــ: ينجدك الله لا البشري الفاني .

ــ: لن تدلني على درب أبدا كأنك لا تعرف يقينا ، ولا تملـك دربا..

ــ: دروب الله غامضة لا تنفتح إلا بمشيئته للمختـــارين مـــن عباده..

ــ: تحولني دائما إلى نفسي أو إلى الله ، وأنا أهرب من نفســي وأريد تدخلك عند الله ..!

-: كنت أظن أنك دخلت إبراهيم باشا فشفاك من أحلامك..

-: تظل الأحلام حية كجمرة تحت رماد التلاهي ..

-: لو حصلت على حورية في الأرض لنسيت حورية الجنة ..

-: هل يعوض المخلوق من طين عن المخلوق من نور ؟

يفاجأ الشيخ بمنطق خليف المستبصر فيصمت غارقا في السكون و يجلس جامدا ثابتا مقيدا كشجرة ،أيأس من أنثى قطاة تبحث عن عشها في أرض محروثة ، و أضيع من مبصر في مأدبة العميان ، وبالرغم من سحابات الشك التي لايخفيها خليف أحيانا فإنه يبحث عنه ليأنس به ، ويرتاح لقربه ، فهل يتعزى عن عجزه بعجز الشيخ أم ينتظر قيامته ..؟!

الشيخ يمسك أفواه الدروب

يهرب الشيخ إبراهيم من وجوه الناس إلى معتزله في الحويجة، يتغلغل في داخلها كأرنب مذعور يبتعد حتى زاويتها الجنوبية الغربية حيث تظله الأشجار وتحجبه عن العيون ، ومن هناك يرى النهر والقرية بناسها وحيواناتها ولا يراه أحد . يغيب فيها أياما دون أن يعرف أحد أين هو ، بل دون أن يحس أحد بغيابه ، فلا أحد يسأل عنه ، ولا أحد يفتقده فشمس الدين لا

تفتقد شيخها إلا عندما تحتاجه ، عندها يتساءلون أين ذهـب ؟ وكيف غاب عن أنظارهم ؟ يلومون أنفسهم لأنهم لم يراعـوه ، ويحسون بالذنب لأنهم أغفلوه و لم يهتموا به ، ومـادامـوا قـد احتاجوه فإنهم سيجدونه ، يسألون عنه بإلحاح ، ينادونه بينـهم وبين أنفسهم فيحضر فجأة ، ينبت كأنما سمع نداءهم الصـلمت الحار ، ولأن المزارات لا تسعفهم يتمسكون بأذياله ، إن لـدغ لهم ولد ، إن تعسرت ولادة أنثى أو شاة أو فرس ، إن لخ الجـن أحد أحبتهم ، إن أصابتهم عين حاسدة ، إن نزلت بهم مصيبـة، إن اختل توازن الدنيا بشرور لا يعرفونها فأمطرتهم السماء وحلا أو دماء ؛ إن أطبق العجاج عليهم كاللحد، يلثمون أطـراف ثيابه ، يدخلون عليه ، يتمسحون به كالكلاب الضالة الـتي لا ملجأ لها إلاه ، يقبلون يديه يرجونه والدمعة في عيونهم : اصنـع لنا حجابا ..

ــ: اقرأ على رأس الولد ..

ــ:نفر الجن عن ذات المخاض وذات القرينة وذات التابعة .

ــ: أبعد العين الحاسدة.

ــ: أزل سحر الساحرين ، هجع السماء الغاضبـة والريـاح العاصفة والنهر الفائض .

أما عندما لا يكونون في حاجة إليه فإنهم يمرون به وكأنه زائد عن الحاجة ، لا يعرفون لماذا يعيش بينهم ومن حذفه عليهم ؟ وماذا يعمل ؟ فهو مفروض عليهم فرضا ينتظر رزقه منهم كطيور السماء وجرذان الحقل ..وكثيرا ما قال الشيخ لنفسه أنهم أشد كفرا ونفاقا من الأعراب المذكورين في القرآن، حتى ربهم لا يصلون له إلا إذا احتاجوه ، فهل سيغيرهم الشيخ إبراهيم ؟إن آلاف الشيوخ عاجزون عن تغيير طبيعة بالروح فالطبع يغلب التطبع وهم كبول البعير يرجعون إلى الوراء ، بل كذيل الكلب لا يمكن تقويمه ..!

ولماذا يقومهم وهو لم يعد يبالي بهم منذ طلق الوفرة والسلطان والمعجزات طلاقا غير معلن ، فهدلة التي كانت مطلبا ملحا ليستعيد توازنه ، ويقفز قفزة النمر إلى هدف جديد أصبحت ، وهي المحطة المؤقتة ، كل أحلامه ، فتخلى أمام سحر مداعباتها عن المملكة الضائعة وما يتبعها من سلطان ، فالوفرة ظلت إمكانية متاحة ، فحلال الناس وحلال الله في براريه كلها قريبة ودانية وما عليه ، وقد اتيحت له فرص كثيرة ، إلا أن يأمر لتكون له ، لكنه لم يكن يملك الهمة لكي يأمر ، لم يكن يرغب حتى في المحاولة .. أيكون قد تأتى لأحلامه الدنسة هيئة

مقدسة وحين حصل عليها لم تعد تهمه القوة ولا المعجـــزات ؟ أتكون القوة بديله عن النساء اللواتي ظن أنه فقدهن إلى الأبـد ، وحين أمسك بأذيال واحدة لحقها كالمأخوذ ناسيا ابتـــهالات الأحلام المتدافعة كالمطر ؟ أليس هذا ما حصل حقا ؟ ومع هـذا ظل الشيخ حريصا على ألا ينسوه وألا يزول من أذهانهم ، وإن غاب عن أنظارهم ، فأدخل في روعهم أن غياباته لزيارة قـــبر المصطفى الذي يقوده الشوق إليه ، ولينجـــد خلقـــا بعيديـــن يستصرخونه ويستغيثون به ، أو يكون في مهمة حماية سرية لهم لأنهم لا يعرفون الأخطار المحدقة بهم ، ولا العيون التي ترقـــب زلاتهم ، ولا ما يحاك لهم في علم الغيب .

حدثه محيمد العبد الله أنه في غبش المساء ، وكان قادما مـــن الخلاء ، رأى رجالا يتجمعون حول أحدهم وهو يدعوهـــم : عزيمتنا اليوم في بيت مطر العلي .وقال محيمد : لقـــد كـــانت وجوههم مألوفة لدي ، بل أكاد أجزم أن هـــذا فـــلان وذاك علان..فقلت لهم خذوني معكم .رد أحدهم علي وقـد رأوني : لن تنفعنا ولن ننفعك ..! ثم اختفوا وكأنما لم يكونوا ، حلـــم وغاب ..تبسم الشيخ إبراهيم : لقد ذهبـــوا إلى بيـــت مطـــر حقا..!

ـــ: ومن هم يا شيخي ؟

ـــ: إنهم من إخواننا الجن ..

ـــ: ولماذا اختاروا هذا البيت دون غيره ؟

ـــ:لأن أصحابه يضعون مؤونتهم في ظروفها ، في عدولهـــا ، في مخامرها ومطامرها ولا يختمونها باسم الله، ومالا يختم باســـم الله سرعان ما يفتح ..!

ـــ: لكن مطر لم يعلن عن سرقة منزله ؟

ـــ: وأنا أين ذهبت ؟ لقد سبقتهم إلى بيت مطـــــر فختمـــت العدول والظروف والمطامر باسم الواحد الأحد ، القهار الصمد وعندما وصلوا أصيبوا بخيبة ، وخرجوا من المنزل ووجوهـــهم باردة..!

فقال محيمد : فاتني أن أقول لك أن الرجل وهو يدعوهم قـــال لنذهب قبل أن يسبقنا الشيخ إبراهيم ..!

لذلك عندما يتلفتون فلا يجدونه يعتقدون أنه في أحد مهامـــه السرية الكثيرة ، وأنه يحميهم من شر لايدركونه ولا تصل إليـــه معرفتهم ، فلا بد أن الشيخ يمسك الآن أفواه الدروب والمسالك على الجن الذين يتربصون بهم ، ويريدون بهم شرا..!

أبانا الذي في السموات ..

جاءه خليف في الأصيل إلى عزلته فوجد الشيخ الذي يمسك أفواه الدروب والمسالك على الجن جامدا هامدا كالموت نفسه، فأدرك أنه عبثا بحث عنه وأن الأسئلة التي تضج في داخله لن تجد جوابها،وتذكر أنه منذ أشهر بحث عنه بالإلحاح نفسه ، بالأمل نفسه وحين وجده رمى جثته عليه كآخر ملجأ وآخر ملاذ ، وفي هذا المكان من الحويجة ، وفي أصيل كهذا الأصيل وكأنما كل شئ يتكرر، وقال له : لم أعد أطيق صبرا يا شيخي !

ـــ: من لا يطيق صبرا لا يصل ..

ـــ: أنا لا أتحدث عن الأحلام..

ـــ: ومن يتحدث عن الأحلام ؟ إنني أتحدث عن راحة البال يا ولدي..

ـــ: وكيف أحصل عليها إذا كان ما يؤرقني لا يؤرق الناس ، ولا يساوي شيئا عندهم ؟!

ـــ: مالا يساوي شيئا عند الناس هو كل شئ عند فاقده..

ـــ:أريد ذرية ياشيخ فما عدت قادرا على العيش وحيدا كبغــل لا يثمر .

ـــ: مادمت تريدها ستحصل عليها .

ـــ: أعندما أموت ؟لابد أن تساعدني فإن لم تفعل فلن يلتـــوي لساني على لسانك أبدا.

ـــ: يساعدك الله الذي بيده كل شئ وهو على كل شئ قدير .

ـــ: أنت تكلم الله وتناجيه ..!

ـــ: من يصل إلى هذا تسقط الدنيا من عينيه أما أنا فما زالـــت روحي معلقة فيها ..

ـــ: لا تضللني يا شيخ من يصبر صبرك ، من يصمت صمتـــك لابد أن يحدث خالقه، الذي يعيش وحيدا ليس له إلا الله .

ـــ: إنه الصبر إذا والأمل في حديث لم يحدث بعد .

ـــ: ما دمت لا تصل إليه فمن يصل إذا ؟ لا أصدق أنـــك لا تناجيه ، ولا أصدق أنه لا يصغي إليـــك ، فاخـــبره عـــني إن سامرته، قل له إن خليف البدر لن يصلي ولن يصوم ولن يـزور قبور رجاله الصالحين إن لم تعطه ذرية ..!

شعر الشيخ بالحزن وعصره ألم لا يطاق فهذا الرجل وضـــع أمله كله فيه ، كيف لا والسموات تنفتح لدعائه والملائكة تأتمر

بأمره ، والجن يرتمون تحت أقدامه ..أخرجه خليف من غيبتــــه السادرة بضراعته الحارة : لن تخذلني .

ـــ: أخذل نفسي ولا أخذلك .

ـــ: هذا هو الطريق الوحيد الذي بقي لي .

ـــ: بل هناك طريق آخر لا تراه ..

ـــ: أرنيه إذا ..ماذا تنتظر ؟

ـــ:تزوج مرة أخرى ..

ـــ: لا تفتح جروحا أخرى بارك لي بما في يدي ولا تؤملني بمــا ليس لي فأنتَ تعرف أن لا أحد يزوجني ..

ـــ: سأفعل إن شاء الله ..

ـــ: وأنا سأصطاد لك أكبر غزالة معمرة في البراري ..

ـــ: بل لتكن فتية وسمينة ، تنعشني الفتية الكثيرة اللحم .

ـــ: ما زالت نفسك خضراء يا شيخ .

في الغابة الحجرية

غادره خليف فاصطادته زهية دون قصد مثل وعل وحيـــــد وقع في شباك لم تكن منصوبة له.مر بخيام القرية وهو يحـــــدث

نفسه فاصطدم أمام أحد البيوت بفتاة تخبز ، توقف مذهولا فقد هاله الشبه بينها وبين البيضاء البدرية ، وقال لنفسه متلجلجـا :

من أين جئت ..؟

قالت ساخرة : من تحت الأرض ..!

ــ: بل نزلت من السماء .

ــ: ما الفرق ؟

ــ: الفرق كبير !

ــ: في الحالين أنت أعمى .

ــ: أنا أعمى حقا لأنني لم ألحظك من قبل، لم أكتشف وجــود من أعيش من أجل رؤيتها .

ــ: لا تكثر من الكلام ..

ــ: ليست كثرة الكلام خيبة دائما ، هي أحيانــا تســبيح في جمال خلق الله.

ــ:ضع لسانك في فمك وإلا شمطته ووضعته في قفاك ..

ــ:أنت لبوة حقيقية ..صدقيني لقد رأيتك من قبل ..

ــ:في أحلامك..؟

ــ: وما أدراك ؟

ــ:انقلع وإلا قلعت لك عينيك ..

ـــ: قدماي لا تطاوعاني،وقلبي لم يعد في يدي ، ودمائي تغلـي كالنار ..

ـــ:لملم مكسوراتك وامش..

ـــ:ما عاد يلمني غيرك..إني أحبك..

ـــ:حبتك سلمى الليالي..

ـــ:ليتها أحبتني من قبل أما وقد رأيتك فما عدت أريد أن يحبني أحد غيرك .

ـــ: فارقنا بريحة طيبة..إن نفذ صبري سويت لك عرس كلبة .

تجمعت ذريـــرات العــرق علـــى جبينـــها في حبيبـــات لؤلؤية،انحدرت على الخدين الورديتين المقمرتين من سنا النـــار، انحنى ليحمل رغيفا اشتهته نفسه فأسرته الرائحة التي فغمت أنفه من عشرين عاما فخطف قبلة لها مذاق الدموع ورائحـــة وردة برية وانقلب كل شئ إلى جحيم..حملت زهية الصاج الأحمـــر الملتهب فركض قبل أن تملأ الدهشة وجهه ،قذفتـــه بـــه،درج وراءه طويلا وهو يركض مأخوذا من المفاجأة لا من الرعب..!

أصبح خليف أحد زوار بيت محيمد العبد الله بـــالرغم مـــن عنف اللقاء الأول ، لقد عثر على أحلامه التي بحـــث عنـــها طويلا، وبدأ رحلته الشاقة إلى قلب الغابة الحجرية،وقبـــل أن

يتعلق بغصن أخضر تقرر زفاف زهية ..فبحث خليــف عــن ملجئه الأخير وملاذه الوحيد وهو يرى جثث أحلامه الصرعــى كعصافير تعقبها صياد غاشم .

استغاثة راعشة كالخوف

لم يسمع الشيخ إبراهيم ضجيج أسئلة خليف ، و لم يحــس بالثورة المكتومة في نفسه ، بل ظل جامدا يترصد الجن العــابر وقد ازداد زفيف الزل ، وتعالى حفيــف الأشــجار وبــردت نسمات الهواء حاملة معها البعوض الطنان ، وسقطت الشــمس مخضبة الأفق بلون الدم ... أدرك خليــف أن غيبــة الشــيخ ستطول إن لم يبادره بالحديث فقال : ستتزوج زهية..

وبعد لأي واحتباس خاله خليف دهرا قال الشيخ : تلك ســنة الكون .

ــ:لكنني لن أصبر دونها ..

ــ: ستصبر..ليس في يدك شئ تعمله.

ــ:أحين وجدتها أفقدها ؟

ــ: المرمي ما يلحق صوابا ..

ـــ: أحقا أن أحلامي مستحيلة ؟ أريد أن أحيا فقط فهل تحـول هذا إلى حلم صعب التحقيق ؟ لماذا حين نعرف مـــا نريـــد لا يتحقق ما نريده مع أنه بسيط وواضح كوهج الشمس ، إنـــــه الحياة في جريانها الطبيعي فلماذا ينكسر الجريان حين نريـــده أن يستمر؟ومن يكسره..؟

قال الشيخ : لو كان كل مخلوق يستطيع أن يحقق ما يريد لمــــا وجد الخوف ولا اليأس ، ولا الأمل ولا الأحلام ..

ـــ:لماذا تقتل أحلامي كفراخ يجندلها صياد بلا رحمة ؟

ـــ: يقتل الأحلام من لا يحتملونها ، لو يعرف الواحد عدوه ..

ـــ:إنني أعرفه،إنها هذه القرية الظالمة .

ـــ:فماذا ستفعل ؟

ـــ:سأتركها..

ـــ:إلى أين ؟

ـــ: إلى من يقبلني ..

لا تعترف القرى بالغرباء ، لا تخلطهم بدمائها فكل غريـــب لابد عائد إلى أهله، وحتى لو قضى عمره فيها فإنها لا تقبلـــه إلا كغريب،والشيخ إبراهيم نفسه لولا هدلة المشكو لكــــان الآن يحمل اسما آخر ،ويعيش في مكان آخر ، ومن يدري ربما كـــان

حقق ما أراد فتغيير المكان تغيير للحظ أيضا ، لقد قيدته هدلة إلى شمس الدين كما يقيد الثور إلى كدانه، وحدها هدلة عرفت علته وقبلته بها والإنسان يسكن لمن يرتضيه بعلته ولا يسأله عن سره الذي لا يجب البوح به ؛ وبالرغم من أن الشيخ لا حمامة له ، لأنه شيخ واصل ، فقد طورا طرائق من الوصل تجعلهما في أعلى عليين ،يرتجفان لحظة الوصل أكثر مما يرتجفان مع الحمامة.هكذا هي الحياة دائما لا شيء كما ترغب فيه تماما ، لكن هناك ما يعوضك ، ما يلهيك ، ما يصبرك ولو فقد الشيخ هدلة المشكو ما كان سيمكث لحظة واحدة في شمس الدين ..

كانت الظلمة التي تزيدها الأشجار كثافة قد أوغلت في أسرارها ،والطيور غادرت صفحة النهر وأوغلت تحت جدران الزل إلى مخابئها ووحده كان غضب خليف ساطعا ومدافا بالمرار:سأقتلهم ..!

ـــ: من ؟

ـــ: من حرموني منها ، مسهوج وأبوها ..

ـــ: ما الفائدة ؟

ـــ:سأخطفها..

ـــ:أنت كمن يهذي أو كالضائع تريد أن تقتـــل مـــرة ،وأن تخطف مرة أخرى ولا تعرف حتى إن كانت تطاوعك..

ـــ: ستطاوعني ..

ـــ:أسألتها رأيها؟

ـــ:إنها تريدني.

ـــ: أأنت متأكد ؟

ـــ:في سهراتنا تخصني بالكلام أكثر من غيري ..

ـــ: إذا أنت تخمن فقط ، ليس هذا هو العشق يا ولدي ، لـــو كانت تعشقك لما وقف شيء في طريقها إليك.

إنها لم تعطه ريقا حلوا ، و لم ينعقد لسانه على لســانها إلا في منازعة أو خصومة ، لكنه يشعر أن تلك الخصومـــة ليســت حقيقية ، إنها غطاء لعواطف عميقة فوارة ..إلا أن ما يحيره هــو أنها ليست من النوع الذي يخجل من عواطفه ليواريها فــهي إذا لم تحسم أمرها بعد ، فما زالت تردد بسخرية أغنيتها الأثـــيرة التي ستقولها لمن تختاره:

بس حبني وفوت / والعب على الخدين

تالي العمر موت / خلنا نتشابك زين

لقد وعد نفسه أن يصبر إلى أن تستوي وتسقط كـــالثمرة الناضجة في حضنه ، لكن ما قطع الطريق الطويلة هي خطبـــة مسهوج لها فهل كل أحلامه أصبحت هباء ؟ فقال كمن يحدث نفسه : ما العمل ؟

ــ: الصبر .

ــ: الصبر دائما؟!إن صبرت سأفقدها .

ــ: وقد تفقدها إلى الأبد بحماقة ترتكبها، فزهية حلـــم لكـــل شباب القرية لكنها لا تؤخذ رغما عنها ، لقد خطبها مســهوج مرارا من قبل وردته ، ولا أعتقد أنها ستتزوجه.

ــ: لماذا لم ترفضه ؟

ــ:ربما أجبرها أهلها .

ــ: سأترك هذه القرية ، لن أكون فيها عندما تزف إلى غيري..

غادره خليف غاضبا وظل الشيخ وحيدا يسمع صوت نـواح الرياح متعجبا من أحوال القلب وتقلباته المفاجئة ، فبـــالأمس فقط كان خليف يدرك أن أحدا لـــن يعطيـــه امـــرأة ، والآن يستقتل من أجل ما لن يعطيه إياه أحد ، فلماذا يخادع القلـــب نفسه ؟ ولماذا يحلم بما لن يكون ؟!

أيام زهية القصيرة كعنق الضبع

رقصة طائر الحبارى

تنحدر الخطا نحو النهر كدمع حزين ، تشحط على الأرض فتخلف نشيجاً مكتوماً ، وتخدش السكون الشامل إلا من نباح كلب ، أو نهيق حمار.

ببطء ينحدرون نحو النهر كركب جنائزي يقودهم مسهوج كالمرياع فحلاً دون فحولة ، ونيران شمس الدين المسجورة تلوّح لهم مناديل من نار .يشتعل مسهوج بنيران غضب مقهور، وتنحدر في قلبه الدموع : لقد جلّلته زهية بالعار!

انتظرته شمس الدين ثلاث ليال دون جدوى ، طلعت الشمس وغابت ثلاث مرات ، ولم يطلع مسهوج ، كان مجللاً كحمار في برذعته ،خانساً في الخدر كامرأة ! وحين خرج كان مطموراً بالخزي والعار كنبتة شوك هاجمها العجاج فاستكانت تحته..!

زهية التي حلم بها تراخى بين يديها كقملة مفروكة ، سبعته مع أنه كان مسلحا بمطرق طرفاء ، وبوصايا الصحب أن يتركها كتلة دامية.

ألبسوه ثوب العرس ، تمسحوا به ليتعجل زواجهم ، أشبعوه قرصا ولكما ، وهمسوا في أذنيه عبارات فاحشة، أوصاه بعضهم: شقها كما يشق المحراث الأرض ..ولتسمع السماء صرختها !

وقال له آخرون :احرق جوفها ، وأطلع الشرر من عينيها ..!

سلحوه بمطرق طرفاء يسلخ اللحم عن العظم ، تركوه حتى اللحظة الأخيرة ، ودسه أحدهم تحت نخاجيته، وهم يدفعونه إلى الداخل ، وهمس له : اتركها كتلة دامية تمنعت أم لم تتمنع، علمها أن الفرس تتبع الرسن!اركبها حتى لا تركبك!عودها ألا ترفع طرفها إليك ،ولتلطي بجانبك بذل كلب يتمسح بصاحبه..!

قالوا له : سننتظرك هنا ..لن نذهب إلى بيوتنا حتى تخرج إلينا بالدم ..!

ــ:لا تجبن..!

ــ:لا تجعلنا ننتظر طويلا..!

ــ: إياك والرفق فحواء الحيوان الذي لاينفع الرفق معه .

ــ:اليوم يومك..!

وهوسوا فوقه: هذا اليوم اللي كنا نريده.

هجس في نفسه خوفا بالرغم من أنه اليوم الذي كـــان يريـــده حقا..!

ولج البيت بتهيب ورغبة ، كمن يريد ويخشى ما يريـــد ! ولج و لم يخرج ، انتظرته شمس الدين ثلاث ليال ،غابت الشمس وطلعت ثلاث مرات ، و لم يطلع مسهوج ، قدموا له الطعـــام والشراب ولكن نفسه عافته ، ولطا في زاوية الخـــدر كقـــط مزجور تنحدر الدموع في قلبه ، ويلتهب بنيران غضب مقهور، وكثر اللغط والحديث فماذا يقول لهم ؟

حلم دائما أن ينال زهية ، يعريها ، فتطلع بين يديه وردة من نار ، وشمسا لا تأفل..اوحين قارب الحلم ، تملا ها وتنشـــقها حتى تمشت رائحتها في أوردته ودمائه، وإذ هم بها قالت لـــه : اسمع يا مسهوج..! قلت لك من قبل لست رجلي ولن أمكنك من نفسي..!

قال :هذا الكلام ما عاد ينفعك، لقد أصبحت في بيتي..!

قالت : لن يغير هذا من الأمر شيئا..!

غضب مسهوج ، ثار فأخرج مطرق الطرفاء ، وقال لها:

ـــ: لن أتركك تفضحيني..!

قالت: إنك لا تخيفني ، سأكسره وأحشوه في قفاك..!

ارتفعت يده ، وقفت أمامه كلبوة متحفزة، رأى التصميم في عينيها فتراجع ، حاول أن يأخذها بالحسـنى، حدثـها فلـم تستجب، قال في نفسه : لعلها ستلين غدا..!

قضيا لياليهما الثلاث كوحشين في قفص ، تلاسنا ، تشاجرا، تعاركا، ثم تحاسنا ولكن عبثا، والخـوف يتجمـع في قلـب مسهوج، ويطرقه بعنف المياجن ، وأصوات صحبه الداعيـة إلى أن ينتهي من أمرها تصله من الخارج كطعنات خناجر تمزق قلبا غادرته الدماء..!

ثلاث ليال غابت الشمس فيها ، و لم يغب حيوانه في مجمـع الأسرار، لم يلج المرود في العين، لم يتدل الدلو في البئر..!

كثر اللغط ولاكوا سيرته..

قالوا: إن شيئه كلسان الكلب المتدلي دون فائدة..!

ـ: مسكين ..إنه كالمرياع يعجبك منظره ، لكنه خـال مـن الفحولة.!

ـ: لقدكع عند الضراب..!

وهو لا يجرؤ أن يقول لهم:إن زهية هي التي امتنعت عليه ، فذاك خزي آخر ، سيسخرون منه : يا حيف عالرجال..!

ـ:أنت مرة إذن..!

ـــ: اقتلها ، مادام هذا سبيلك الوحيد لتلوث أفخاذها بالدم.
ـــ: لم يحدث أن استعصت امرأة على رجـــل إلا إذا لم يكـــن رجلا..!

وقالت النساء المسنات :لميتات الأثداء كحيوانه:إنه مقضوب..!

قلبت أمه وأخته البيت ، نبشتا تحـــت البســـط والســـوح والحصائر علهما تجدان شيئا غريبا زو ا مغلقا، شعرا معقـــودا، عذق صوف مشدود..

وتنادت شمس الدين كلها لنجدته ، قالوا: من في بيته مقـــص أو زو مغلق فليفتحه، من في بيته عقدة أو حزمـــــة أو كـــارة فليفتحها..وقالت امرأة مسنة : لينزل إلى النـــهر ، ليفتـــح الله عليه..!

تنحدر الخطا إلى النهر صامتة كدمع حزيـــن لا يخلـــف إلا نشيجا مكتوما ، كالأشباح يدبون في جوف الليـــل البـــهيم ، ونيران شمس الدين المشتعلة تلوح لهم مناديل من نار ..!

على شاطئ النهر توقف الركب ، الوقت خريف والماء بارد قالوا : سننزل معك..وسنكون إلى جوارك..

ـــ: سنكون سورا حولك..!

قال : سأنزل وحدي ، وإلا فلن أنزل أبدا..!

يصطخب النهر ، يرغي ويزبد ويفور كـــالتنور ، كقلـــب مسهوج ، والموجة تحطم الموجة في صراع وحشي أبدي ..!

تعرى ، ثم ولج النهر ، اندفع في الماء ، كان الماء باردا فلـــم يبال القلب المكروب ..صاحوا به:لا تبتعد..!

دخل في جوف النهر وابتعد ، النهر أرحـــم مـــن شـــفقة أصحابه، من عيون شمس الدين المتفحصة التي تنظر إلى عــــاره ظانة أن العيب فيه ؛ مع أن حيوانه يشتم رائحة الأنثـــى ، أي أنثى على مسيرة يوم ..اولكن زهية تلك الشمس الحارقــــة ، المهر الجموح لارسن لها،يمكن أن تكسر رأسها، لكن لا يمكـــن أن تكسر كلامها.

تلقفه النهر فانسرب فيه كسمكة ، أوغل فيه ، ثم غــاص إلى الأسفل كالحصاة، فرأى وجوها غيبها النهر ، ومض في داخلـه خاطر : أيمضي بعاره؟ أيسكن جوف النهر ، ولا يعود إلى زهية المتمنعة ، ولا عيون شمس الديـــن المتهمـــة والحارقـــة برغـــم التعاطف؟! أينهزم ؟أينكسر منذ الجولة الأولى..؟ أيقولون هزمته امرأة..؟ لا ، لن يمر من بين رجلي امرأة، ولو كـــانت تهـــزم طابور عسكر، لن يسلم نفسه للنهر ليغيبه في أحشــــائه، بـــل ليغسله ، ليطهره ، ليجلوه ، يرتفع مع الموج وينحط ، يغـــوص

في جوف الماء كالسمكة، يلامس القاع الزلق ، يرمي أوساخه في النهر ، يرتفع مع الموج، يفرك عانته وفرجه ويغسلهما ، يلعب الموج بأشلائه، يداعبه ، يسوطه ، ويضرب ذكره السابح وحده كسلحفاة معمرة، وينهار التردد في داخله ، يغادره العشق فلا تبقى إلا شهوته ورغبته الضارية في الحياة ، فيرى زهية شراعا أبيض تمزقه الريح ، منديلا مطرزا بالدم ، وردة بلون الدم ..!

ــ: أنا قادم..! وتستكين زهية مهرة مروضة ، سمكة طيعة، غزالة رقيقة مذعورة، حورية ماء مغسولة بالزبد ، بأنهار من لبن مصفى، بأنهار من خمرة لذة للشاربين ، ترتمي في عينيه ، ترتمي في حضنه.

ــ: أنا قادم..! ويحس نفسه واسعا كالسماء، عميقا كالظنون، قاطعا كالسيف، طاهرا وطاغيا وظالما كالنهر ، ويرى الأشجار في الحويجة نساء تناديه ، تتعرى له ، تشرع أفخاذها المرمرية وسيفه ينغرز في أحشاء الغابة السرية ، في المتاهة في شدة الورد، في سر الماء والنار ، سر العار وسر الرجولة ..

خرج من النهر إلى حيث ينتظره الصحب على الضفاف عاريا كطفل وليد ، لم يضع يده على موضع الحياء منه، لم

يجفف جسده ، بهدوء ودون ارتعاش لبـــس ثيابــه وصحبــه ينتظرون بخشية وقلق وترقب.

قالوا : حديد..؟

قال : أشد..!

قالوا : ما رأيت في النهر..؟

قال : رأيت الشمس ترتعش في حضني ..!

عادوا به ، قال لهم : زفوني من جديد ، هذا هو يوم الدخلـة الحقيقي ..اعادت البسمة إلى الوجــوه، ابتــهجوا ، ورددوا هوساهم وهم يدخلون القرية.

خرجت شمس الدين لاستقبالهم ، وتجدد عرس مســـهوج ، وانطلقت الزغردات..وقبل أن يدخل إلى الخدر ، طلب من أمه عدة أوتاد وميجنة، استغربت طلبه ، لكنها لبتـــه في الحـــال ، فدخل الخدر كرجل مدجج بيقينه ، فوجدها تتكـــوم علـــى فراشها غير عابئة بتلك الضجة ، نظر إليــها ، رازهــا..قـــال بصوت عال:أنت لي يازهية..!

قالت : نجوم السماء أقرب لك..!

قال :كل نجوم السماء صارت في حضني!

قالت : كثرة الكلام خيبة..

قال : لن أكثر من الكلام..لكنك ستكونين لي..إن طلعت إلى السماء أو نزلت إلى الأرض ستكونين لي..!

قالت ساخرة : يا فرحة أمك..ازفوك من جديد وصدقت أوهامك..!

قال:لقد خلعتك من قلبي لذلك سأنالك..!

همة ودون تردد شمر عن ساعديه، وأزاح السوح عن الأرض، حمل الميجنة وركز أربعة الأوتاد في الأرض ، واستغربت زهية..ماذا يفعل..؟لقد جن الرجل..اقالت :إنه يستعرض ..يتهدد لكنه لن يجرؤ ستوقفه عند حده.

وإذ انتهى تطلع إليها والشرر يتطاير من عينيه ، تقدم منها بثبات وحزم ، تراجعت: مستحيل ..ستقتله!

أمسك بها ، حاولت التملص ، شد يدا حديدية على ساعدها وجرها نحوه ، ضربته بقدمها بين فخذيه ، تلوى ألما و لم يفلتها ، ومن جدائلها الشمسية أمسكها ، لواها ، طرحها أرضا ، شد جدائلها على عنقها ، جرجرها إلى الأوتاد ، ركب على بطنها، داس بركبته على إحدى يديها، وشد الأخرى إلى الوتد ، ثم شد الثانية، تلوت كأفعى ، دفرت برجليها كثور، بصقت في وجهه ، رفسته برجليها حين اقترب منها ، إلا أنه

داس على واحدة ، وشد الأخرى إلى الوتد ، ثم شد الثانيـــة ، وتركها مشبوحة على الأرض منفرجة اليدين والساقين ..وقهقه بجنون..!

تعرى بهدوء ، وعرض أمامها حيوانـــه الجميـــل المنتصـــب كالوتد، مزق ثيابها، نتفها، ملخها قطعة قطعة، نـــثرة نـــثرة ، وظهر الجسد أبيض كالحليب ، النهدان حمامتان بريتان ، البطـن مصقولة تنتهي بسفح زلق يلمع كقمر في الماء ، وحرش حويجـة يخفي كل الأسرار.

يدور مسهوج حول الجسد العاري مثل طائر الحبارى ينفـش ريشه كالمروحة، يشد جناحيـــه، يفـــرد أحدهمـــا إلى الأرض ويرقص حول أنثاه..يبتعد مسهوج عن الجسد ليتملاه ، ليصوره في عينيه ، ليطويه في صدره إلى الأبد ثم يعاود رقصة الطائر مرة أخرى بروح نشوى، فتلمع لا صفة في عينيه مثل حية تخلصـت للتو من جلدها ، مثل شمس مغسولة ، مثل غابة مـــن نـــار ، واقترب مسهوج نهرا عالي الموج ، حط فوقها ، لاكت الأصابع النهدين البكرين فتوترت الحلمتان وقستا كحبتي عدس ، مـــر بوجهه على البطن المخملي فشم رائحة العشب الندي وصخب الحواس المهتاجة، ارتمى فوقها نهرا من الجوع والتوق والرغبـة ،

غطاها كما يغطي النهر سمكة، أتى عليها كنهر يفيض علـــى حويجة، ثم غاص في الجسد المندى بحبات العرق الباردة ، والذي له رائحة الورد البري فابترد فيه كما يبترد في النـــهر ، صـــهل كمهر جامح ، وعدا كالشوق اللاهب دون توقف ..وشـــق رحم النهر بسيفه ، شق رحم الليل البهيم البليل اللذيذ المنعش ، ومعا انطلقت صرختان حيوانيتان ، صرخة ألم وصرخة انتصار!

زهية أيكة نار ، وجذوة ماء

عاركت زهية الصبية في المراعي، ركضت مثلهم خلـــف الطيور، رمت رفا منها بمحذاف ، تفوقـــت عليـــهم بـــالرمي بالمقلاع ، وقادت المأخوذين لرد الغزو المبـــاغت ، بـــاطحت الصبية وبطحتهم ، بارتهم بالتبول واقفة ، بـــارزتهم بـــالأقوال الفاحشة ففعلت بأمهاتهم ، وحضرت حفلات نزو الكبـــاش والتيوس وسفاد الكلاب، وحين تداخل كلب وكلبة و لم يتمكنا من الخروج من بعضهما مع أن كلا منهما كان يشد نفســه إلى طرف آخر قامت بالتفريق بينهما بيديـــها العـــاريتين وكأنهـــا تولدهما..

تشوك نهداها فجأة ، تتأا كفقعتي كمأتين صغيرتين ، وهـــي تعارك الأولاد على عصا الحاج ، أحست بهما ينموان كفرخين نابضين يفصلان جسدها عن جسد الولد الذي تعاركــه ، وإذ كبرت فجأة ، وخرجت من طفولتها ظل الصبية الذين لعبــت معهم وراءها في المرعى صغارا، خلفتهم وقد بدؤوا يستملحون المباطحة والالتحام بها جسدا لجسد ولا يهمــهم أن يخســروا معها..

تكونت زهية في رحم البراري خالية من الإثم والطهر ، تــأتي أفعالها كما الطبيعة والحيوانات حارة جارفة ، ترغب في كل ما يبقى ، وتنبو عينها عن كل ما يأفل .

عندما أصبح لزهية وجه قمر مكتمل ، وصــدر كفيضة الربيع، وجدائل كأشعة الشمس رغبت برجل يكون جذوة مـن ماء ، وأيكة من نار ، تغتسل به ، ويغتسل بها فلا يخالطــهما الندم ، ولا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، بل يظلان عـاريين متشابكين ، فلا إثم في العشق ، لا حرام في الوجد ، لا موت في التشابك ، خالدان في وحدهما كقمرين ، كنهرين ، كربــين يسكنان عند فم الأنهار .

لا يعزل البيت شجرة حور باسقة ، روحها روح لبوة بـــل يغير زوارها ، فطالبوا ودها يأتونها ليـــلا ونهـــارا مدججـــين بالكنايات والتوريات والأقوال المواربة التي تحتمل ألف وجـــه ، بعضهم يدخل بيتها كما يدخل أرضا مقدســـة ، وآخـــرون يدخلونه كبيت بغاء يلبدون كأفاع تنقض لحظة الغفلة وعلـــى زهية أن تخوض معركة الكلمات المليئة بالأفخاخ والأشـــراك فتصول القادمين ، تكشف نواياهم ، تصيدهـــم بأشـــراكهم، وتسوط جلودهم بأسلحتهم التي لها فعل الكي الذي بلا عودة .

تنزل زهية إلى الميدان المفتوح كساحة سباق يشمل الــرأس وما فيه، الصدر وما يجنه ، والسرة وما تحتها مسلحة بلســـان صارم ، وقلب جسور تاركة خجل الأنثى للغريرات اللـــواتي يجهلن سر إثبات الذات في معركة الضواري الكاسرة. لا تقيم حراسا على فمها شأن من يرى نفسه فوق الآخرين ، ولكلامها وقع الصاعقة ، وفعل الإعصار ، وقوة العاصفة ، تقول مـــا في قلبها وما في القلب فظ وجارح كالحقيقة، فهي لا تبـــالي بمـــا يكنزونه عنها من أفكار ، ما داموا لا يعـــترفون إلا بأنفســـهم عندما يريدون امتلاك قلبها عنوة ، مع أنها لا تملـــك إلا قلبـــا واحدا لن تمنحه إلا لمن يتغلب عليها.

من يهرب من معركة الكلمات ساحبا خلفه جثث كلماته الصرعى كالخراف العجاف يتوارى مكسوفا من اكتشاف هزيمته على يد امرأة ، أو يعود إلى المعركة شاحذا أسلحته ومصمما على الفوز كذئب أقطع .

بعضهم يخزون حزيانا مشهودا لا علاج له يلتصق بشخصيتهم ، ويعرضهم للسخرية الدائمة فيفرون بجلودهم إلى الأبد .

بعض ثالث ينهزمون من المعركة العلنية ليواصلوها بضراوة في وسائل سرية ، إذ تظل زهية في قلوبهم وأحلامهم وجعا دائما وجرحا داميا ينزف ، وأملا مستحيلا لا يستطيعون العيش معه بسلام ، فيلجؤون إلى السحر الذي يجعل المستحيل ممكنا ، وينتظرون أن تسقط زهية في أحضانهم كالثمرة الناضجة وقد شواها نار البعد وحر الهجر ، وطبخات السحر وتبدلات الغيب الغامضة ، فتقاد إليهم ذليلة كالمأخوذة تلعق أقدام الهوان ، وتترجى غفرانا ذابلا لفعل الصد والمر الذي أذاقتهم إياه ، فيتصدصدون مرجئين لحظة الغفران لينعموا بذل الكلبة.

يتوسدون أحلامهم ، ويضعون أرجلهم في ماء باردة حتى تأتي اللحظة الموعودة التي يشكون في موتهم ، ولا يشكون في

حدوثها ، ولا فرق إن جاء بها جني مؤمن أو كافر ، أو شيطان رجيم دخل في عقلها ، أو ملائكة رحماء يجبون رأب الصدع ، والجمع بين رأسين على وسادة بالحلال ..!

ومن لا يرغبون في الضياع في عينين صفراوين كعيون القطط ودهاليز الأحلام الرطبة يخلعونها هائيا من قلوبهم ، ويستسلمون لأمواج الحياة العمياء كالغيب . والمنهزمون الأكثر حصافة الذين يعرفون قانون اللعبة أو المبارزة يدركون أن المبارزة مستمرة ما دامت الرؤوس الجديدة تزدحم في ساحة العزباء تنتظر لحظة قطافها ، ولا يمكن للرؤوس المقطوعة كطالبي يد الأميرة الخاسرين أن تدخل ساحة السباق من جديد .

من يخل بشروط اللعبة فيتجاوز سهام الكلام إلى وقاحة الفعل كمن يريد استعادة ما خسره عنوة ، علاجه أهون فقد سبحت زهية أحدهم بعيش اللبن ، ورمت آخر بالمنجل فشجته، وطمرت ثالثا بكرسي الجلة الذي تعجنه ، وهطرت رابعا بالميجنة التي تدق بها الحب ، ولا حقت خليف البدر بصاج مشوي بالنار ..

ولأن المحروم من الريق الحلو يستعذبه فقد خطبوها كلهم ، ورفضتهم جميعا ، لكن مسهوجا لم يحترم قواعد اللعبة لا عن

قلة معرفة بل عن عناد حرضه عشق دخل عظامه ، وجعله يذل نفسه ، ويرتمي على وجهه فاقدا كل كرامة .

محيمد العبد الله وابنه مواس كانا يريان ويراقبان ويسكتان لأن العادات تمنعهما من طرد الشباب الذين حولوا بيتهم إلى خلية نحل ، ومضافة دائمة ، وفكر محيمد أنه لكي يعيد الهدوء إلى بيته عليه أن يخرج ابنته منه ، وليأمن أيضا خوفا يظل يركبه كما تركب الريح غصنا.

قال لها ذات يوم : ستتزوجين مسهوج فهو خير من طلب يدك.

ـــ: لا أريده يا أبي..

ـــ:لكنك لا تريدين غيره..

ـــ:لا أرى فيهم من يستحقني.

ـــ: فماذا يقول الناس..؟

ـــ: لا يهمني ما يقولون ..!

ـــ: أنا يهمني ..

ـــ: أزهدت في يا أبي؟

ـــ: الفتاة ضيفة في بيت أبيها ، وبيتها الدائم هو بيت زوجها.

ـــ: فاتركني ضيفة عندك ، لا أريد الزواج.

ـ: لن تعسريني في آخر عمري ، لقد أعطيت كلمـــة ولـــن أتراجع عنها.

لم يتراجع الأب ، و لم تتراجع زهية ففي الوقت الذي زفوهـا إلى مسهوج كانت تطارد فارسا لا يأفل ، يذهـــب ويبقـى كالنهر، يتغلب عليها فتمنحه قلبها بلا شروط .

من يضع الأفعى في عبه؟!

ظن مسهوج أن الدماء التي سالت على فخـــذي زهيـــة ، ولوثت منديله فتحت له الطريق نهائيا إلى جسدها وقلبها ، فلم يحدث أبدا أن شدوا منديلا مطرزا بدم عذراء على رأس عصا ، وطافوا به في شمس الدين مسجلين علامة لا تمحى على فحولـة مثلومة ، استنهضت الزغاريد من الحناجر التي خشبتها الممانعـة البكر لزهية.

وفكر مسهوج ، وهو يسمع الزغاريد المبتهجـــة بالدمـاء المسفوحة أن زهية ستفتح له فخذيها كخيمة تلجها الريح كلما أراد أن يكتوي بنارها ، ويتمرغ على حرشها اللعـــين ، إذ لا يمكن لامرأة أن تعض الرجل الأول الذي مرغها بدمائها.

في ذلك الوقت بالذات ، و زهية تسمع زغاريد الدم المسفوح ، وقبل أن تلم نفسها ، وتمسح دماءها عن فخذيها ، قررت مستهدية بحكمة وحوش الغابة : لن يتوقف الصياد عن مطاردتها إلا إذا أنشبت مخالبها فيه ..

وفي اليوم التالي ، وفيما كان مسهوج يطوي ، للمرة الألف، في صدره صورة للفرس وهي تتبع الرسن ، معللا نفسه بالمتع التي سينهلها من نبع الجسد الثر ، كانت زهية تزداد منعة بحقد تجذر في أعماقها ، وقدوم مسنون على حجر الرحى دسته تحت فراشها ، وانتظرت وهي تعلم أنه سيعاود الكرة ، متيمنا بهجومه المظفر ،ولم يطل انتظارها فعيناه أرسلتا شهابا لامعا ، ارتجفت له كراهية لا خوفا ، وحين تقدم منها ، منقادا للمعة عينيه ، دست يدها تحت الفراش متسلحة بالقدوم ، فتوقف مذهولا ، وكفت العينان عن بريقهما إذ قالت له :لن يتكرر ما حدث وفي عرق ينبض!

ـــ: لقد أصبحت زوجتي.

ـــ: هذا ما تظنه.

ـــ:وما كان بيننا..؟

ـــ: وما يكون بين القاتل والمقتول؟

ـــ: ستؤذين نفسك.

ـــ :سأحطم رأسك كشجرة يابسة إن تقدمت خطوة..!

الحقد المتجذر في العينين الصفراوين كالعشب اليابس بخّـــــــر يقين مسهوج ، فارتجفت يداه ، وسقط الرسن منهما نهائيا.

مطية الشيطان..

جاء أصحاب مسهوج كعصبة صبية صـــــاخبين يحملـــون بأيديهم أعواد غرب وطرفاء استلوها من أكـــوام الحطـــب في طريقهم ، دخلوا خيمة مسهوج بوجوه عابسة جامدة للتهنئة ، وقبل أن يتمكن من التفوه بعبارات الترحيب بطحـــــوه علـــى الأرض كنعجة للذبح وانهالوا عليه بعصيهم بضـــرب طقســي مبرح لا يتوقاه إلا بثيابه ، كلهم أرادوا زهية وهو الذي فاز بهـا فليتحمل الضربات التي كانت ستوجه إليها لو فازوا بها لأنهـــا تمنعت عليهم وخثرت ريقهم .وحين توالت الضربـــات عليـــه توقاها مسهوج بيديه دون أن يصرخ ، عض على لسانه وتلوى كصل محاصر ، ظن صحبه أن المرأة تتلكأ حياء فازدادوا ضراوة في ضربه ليستحثوها ، لكن زهية ظلت مقعية في آخر الخيمـــة

دون أن تطرف لها عين أو تتحرك ، وهي تنظر إليـــه بتشـــف حاقد وتتمنى أن يموت بين أيديهم فالزوجة المحبة وحدها الــــتي تنقذ زوجها ، أما زهية فليست زوجة ولا محبة .

ولما أدركوا أن حصة الطقس الموجع زادت كفوا عن ضربــه وقد خيمت عليهم سحابة غضب عقدت حواجبهم ، فتصرف زهية طعنة لهم جميعا ..أخذوا يد صاحبـــهم وأنهضـــوه عــــن الأرض، صافحوه بحرارة ، قال له أحدهـــم : غـــير حـــذاءك حالا..!

وقال آخر : اقضي عليها وإلا قضت عليك .

خرج أصحابه وتركوهما حيوانين في قفص ، كلبين مربوطين في قيد واحد يشبان فلا يجد كل منهما إلا وجه الآخر ينشـــب فيه مخالبه ، ولا يتوقفان إلا بعد أن يهدهما التعب والدم النازف، لكنهما لا يستريحان فكل واحد يراقب الآخر ويخطط لمعـــاودة الهجوم أو الرد، والمعركة مفتوحة على كل الجســـــد وبكــــل الأسلحة التي تطالها أيديهم ..الخناجر ، الفـــــؤوس ، الســـم، السحر، وفك الإشتباك غير ممكن لأنهما عروسان في خلوتهما.

ويتراكم الحقد في القلبين كغبار تراكمه الزوابع العاصفـــة ، ويهرب النوم مفتونا بالمواجهة فيتجند كل منهما عيني ذئـــــب

خشية أن يغفل فتجندله ضربة غدر حاقدة ، يظلان مشـدودين كوتر القوس فيهزلان ويهزلان حتى الاضمحـلال والتلاشـي ويختزلان في زوجين من العيون الغاضبة المحمرة الـتي تتبـادل نظرات الحقد والكراهية .

يتسلل مسهوج في الليل إلى النهر هاربا من جحيم العزلـة الحاقدة ،يتسلل إلى الهواء العليل ، إلى خريـر الميـاه ، نقيـق الضفادع ، حفيف الأشجار ، همهمات الحيوانات المختبئـة في الأحراش، همهمات جنيات شامتات ، حوريات ماء يصطخـبن في أجراف النهر دون أن يرين..ويتمنى أن تدركه رحمة ما قبـل أن يجن أو يتلاشى ، رحمة من ملاك ما ، مارد ما يطلع له فينـير ظلمة الليل الدامس قائلا : شبيك لبيك...!لكن لا أحد يـلّبي ، لا شيء يتغير ، ولا تدركه رحمة تنهض في قلب ملاك أو مـارد فيبث أحزانه للنهر ، يريح إصبعه الذي يعض عليـه ، ويمنـح ارتخاء لوتر القوس..فتنعشه النسمات الغربية الباردة ،تهمس لـه نجوم الليل الأنيسة ، يبتسم له القمر البدر ، يرعشه انسـجام الكون الأليف فيحس بالراحة والأمل ويعود إلى خيمته ، ومـا أن يدخل حتى يسمع كشيش الأفعى وهي تتجمع على نفسـها استعدادا لما يأتي فتذوي ورود الأمل آن تتفتح .

مضت أيام الخلوة كئيبة بطيئة كالكابوس ، كتهجس الأعمى لدرب طويل طويل ، عادا إلى البيت الكبير وقـــد أصبحـــت سيرتهما على كل لسان في شمس الدين التي لامتمسهوجا لأنه يضع نفسه تحت رحمة امرأة الخلاص منـــها غنيمـــة، فـــالمرأة الكارهة لبعلها مطية للشيطان تستخدم جسدها لا عهرا وإنمـــا انتقاما من الرجل المتجاهل لرغباتها المقدسة .

تدخلت أم مسهوج في المعركة وهي ترى ابنـــها يـــذوب ويتلاشى ، زارت قبور الشيوخ الصالحين نذرت لهم النـــذور ، حجبت لهما عند الشيخ إبراهيم ، وطلبت من زليخـــة عمـــلا يبدل الأدوار أو يجعل المرأة الناشز أطوع من خاتم وآلف مـــن حمامة . استعانت زليخة ، التي لم تنس نبوءاتها لزهية ، بـــالجن لتوفق بينهما ، فحملتهم خصلة من شعرها وخرقة عليـــها دم حيضها ، وخصلة من شعر مسهوج ولفت الكل بقطعة مـــن طرف ثوبه وأوصتهم أن يدفنوها في جبل عرفات ، في الموضـــع الذي التقى فيه جدنا آدم بجدتنا حواء . ذات صباح قال لهـــا مسهوج : صبي الماء على يدي لأغسل وجهي.ولأن للناشز طبع العنز المفشوشة وبهجتها الطائشة فقد ردت عليه غاضبـــة : لم أصبح خادمة لك.

كانت على منفض يده فلطمها ، شبت كاللبوة وسـرـدت وجهه ، ضربها بالمحذاف فشجها ، وبالرغم من الدماء الغزيرة التي جللتها لم تتوقف عن مهاجمته فربطها مع الحمار في قيد واحد ، وحين جاء الأب معاتبا رأى وجهه المسرد، فقال له : اقتلها لك اللحم ولنا العظم .

لكن مسهوجا كان قد تلاشى ، و لم يبق منه إلا العظام التي يشدها الجلد ويمنع تبعثرها ، و لم يعد قادرا على الجلوس بين رجلين فمن تعسره امرأة ليس رجلا .

وفيما كانت أمه تتقلب على أشواك انتظار عمل الجن الأكيد كان مسهوج قد اتخذ قراره ، فقد صعب عليه أن يضيع بسبب امرأة ، أن يموت كالفطيسة رخيصا دون ثمن ، لا يطالب أحد بدمه الذي لم يسفح مع أنه قتيل نزف دمه حتى القطرة الأخيرة، قرر تنفيذ خطته التي لم تكن محكمة قدر ما كانت يائسة ، بل لم تكن خطة على الإطلاق وإنما هي هدفه الذي لم يتوصل إليه، فإما أن يخضعها أو يقتلها..

وانتظر ليلة حتى سمع صوت تنفسها المنتظم فارتجف بعصبية لما سيقوم به ، لم يضيع الوقت وضع جسده بين رجليها ويديه على رقبتها ، استفاقت مذعورة ، اختبطت،زجر: إما الموت

خنقا أو الدخول في أحشائك وإلى الأبد .تخبطت بين يديـــه ، دفرت برجليها ، شتمت فأنزلت قطعة من السماء لكنه قال لها بهدوء عصبي : لن تفلتي هذه المرة..اتناولت محاشمه فأصبحا للتو متساويين :أنت أيضا لن تفلت مني ..!

شد على عنقها بخوف من لم يعد محميا فقد أصبح هو أيضـا هدفا للرمي ، من يطلق أولا يربح المعركة ، جحظت عيناهـــا الصفراوان،لمعت بروق أمام عينيه ، أصبح تنفسها عسيرا كأنمـا ينفذ من خرة إبرة ، صاحت أعصاب في جسده ، صاح جسده كله ، دفرت برجليها ، خبطتهما بيـــأس،لسـعته ضربـات كالسياط النافذة التي تجز اللحم عن العظم ، لم يعـــد يصلـــها النفس، رأت نفسها تغيب وروحها تنسل من عينيها ، لم يعـد يحتمـل الألم ، رأى نفســه يغيــب وروحــه تنســل مــن خصيتيه..استسلما للموت ، هدا معا كقتيلين وهما يسبحان في عرقهما..مرت لحظات ودبت نسمة الحياة في جسديهما ، عاد نبض الحياة البطيء إلى عروقهما ، جر كل منهما نفسه ، قامـا يترنحان كالخارجين من قبر فقد ماتا بالنسبة لبعضهما بعضا .

للطامع دموع الضواري ، ورائحة الوردة البرية

أطلقت زهية المحيمد زغرودة طويلة كضحكة الجنيات عندما طلقها مسهوج ثلاثا منهيا معركته الضروس هزيمة شاملة لـــه، وانتصار ناقص لها،نهرها أبوها بحزم ، واحتقنت عينـــاه بـــدم الغضب المشدود المقهور:المرأة الحشيمة تفضل المـــوت علـــى الطلاق.

لوى مسهوج رقبته كطفل يتيم وراقب كفل زهيـــة وهـــي تبتعد عنه في إثر أبيها وأخيها، فتذكر المثل (مثل الوزة تمشـــي وتهتزه)، وأدرك للتو أنه لم يخسر كرامته فقط ، وإنما خســر إلى الأبد المرأة الوحيدة التي أحبها حقا ، فقد تركت له قلبا خاليـــا إلا من ندم أبدي لا سبيل لإصلاحه، وغضب من قلبه الـــذي يخونه راكضا وراء امرأة من نار تحرق كل من يمسها .

مشت زهية غير مصدقة بأنها الميتة التي عادت إليها الـــروح فأرادت أن تتأكد من عودة روحها بمعانقة الهواء والأشـــجار والنهر والأرض والناس ، بلمس الأشياء ، بتهجســـها إياهـــا لتنبض تحت يدها بدفء مبشر بالحيـــاة الوليـــدة ، أرادت أن تصرخ أن تضحك أن تبكي فلم يسعفها الوقـــت ، فمـــا إن

دخلت البيت كالذاهلة حتى انهال عليها ابوها وأخوها ضرباً ، فقد انفجر الغضب الملجوم ، والخزي المحتمل ، و لم يتركاها إلا كتلة دامية.

تعافت الطامح واستقرت في بيت أبيها ، ولأن للطامح رائحة الفريسة السهلة ، وإغراء البغي لم يلبث أن جاءها الجهّال والنصّابون والمهيّفون والمتصيدون في الماء العكر والمتشبهون بهم، فجعلوا بيتها مضافة للقرية ، وديواناً للغزل ، وميداناً للمنافسة،والخيط الدقيق الذي يفصل بين العزباء والطامح ، أن الغزل في البيت الأخير للفحش الذي يضمرونه في نفوسهم ، لاعتقادهم أن الطامح تتسامح بفضول يد تتلمس كفلاً ، تعصر نهداً ، تقرص ربلة ساق،وترحب بشفتين يابستين تختلسان قبلة مخطوفة من الوجه ، الصدر ، العنق ، بل إنها لاتمانع في اشتباك حميم ليدين حارتين نديتين معوزتين للحنان، فالطامح موضع شبهة ، يلوكونها كعلكة ثم يتفلونها عندما لا تبقى في نفس أحد، فتترك للغرباء ، أو لأعمى البصر والبصيرة ، أو للمرمرم الذي يرضى بالفضلات ، أما الموصلون فإنهم لا يتزوجون طامحاً، فما داموا لا يثقبون شيئاً فليثقبوا غشاء البكارة الشفاف كالحياء.

عاد المهزومون في معركة الكلمات كطواويس منفوشة الريش يدلون بعذرية لم تنتهك ، إلى وليمة مفتوحة على مصراعيها كانفتاح السماء على وليمة الجوارح ، يعللون النفس بإذلالها بقرصة مختلسة أو قبلة مسروقة ، إلا أن زهية لم تكن كالطامحات تخشى خطو الزمن الثقيل فتسهل للنهابين العبور إلى جسدها على قارب شهواتها النزقة ، ولا ترغب بأي منهم لتتوسل بقبلة منافقة إلى قلبه ، مما يغلق مصراع القلب ، ويفتح الباب إلى قبل لا تنتهي ، ولا متعجلة زواج لتمنح قرصة أو مسكة يد لتوقع ناصب الفخ في فخه المنصوب لها ، ولا طالبة شبق ذاقت الطعم البكر فلم تعد تصبر عن الانقطاع عنه كالرضيع ، إنها امرأة من نار مقدسة لا تسمح بدخول محرابها إلا لمن ينتصر عليها ، ويملك قلبها ، وقد غرق المتهافتون في بحر عميق حسبوه مياهاً ضحلة ، فتبدد أكثرهم كالثعالب المراوغة ترضى من الغنيمة بالنجاة بجلودها .

تجرأ أحدهم مرة فقال لها ساخراً : بماذا تدلّين على الناس ..؟ أببياض بشرتك ؟ شنينة اللبن البيضاء أطعموها حتى للكلاب..! فقالت له : لن تكون أحد هؤلاء الكلاب ..

وبمكنسة الطرفاء التي كانت تكنس بها أمام الخيمة نزلت عليـــه ضرباً ، فولّى هارباً و لم يعقّب وغضبت يوماً من الساهرين وقد أطالوا الجلوس والليل يتقدم ، فقالت لهم : سأحزّركم حزّورة.. فتشاطر بعضهم: فمن يحزرها ماذا ينوبه ؟ أيحضـــن شمســاً أم قمراً؟

ردت غاضبة : بل يحضن أمه ويركب خيل أبيه ، ويرحل رحيل طوقان..فهل تعرفونه ..؟

قالوا ساخرين : لم نسمع به ..!

قالت : أعرف أنكم تعرفونه ، وحكايته باختصار أنه كلـــب أكرمه أصحابه ، فخان الأمانة فكـــووه بالنـــار فـــهرب و لم يعاود..اوالآن اسمعوا الحزّورة:ما هو الشيء الذي أوله كآخره، ونصفه كله..؟

صمت بعضهم ، وتفاحش آخرون بعد أن تشـــاوروا فلـــم يصلوا إلى الحل ، فقالت لهم : الآن أرونا عرض أكتـــافكم ، ومن ستراه عيناي لايلومنّ إلا نفسه.. فقال أحدهـــم :فـــإن عاد..؟

ـــ:لا يبقى له عندنا إلا علاج طوقان..

قامت وعيناها تتقادح بالشرر، فمضوا يجـــرون خيبتـــهم ، وبقي خليف البدر جالسا في مكانه لا يبرح ، فقالت له : مـــا يبقيك أنت ..؟أجئت بالقلايع؟

قال: سأبقى لأنني أعرف الجواب..!

قالت : ستذهب أنت أيضا، وتأتي مع جوابك غدا.

قال: لا تغضبي سأذهب مثل ربعي، لكني لن أصبر للغد علـــى الجواب.

ـــ:قله بسرعة ولا تتلكأ..!

قال : إنه القمر، أو وجهك..!

في الليلة التي زفت فيها زهية طفش خليف البدر إلى الـبراري ليداري خيبته التي قوضت أحلامه، ونثرتها كحفنة من رمـــاد ، يرتد غضب الخيبة إلى تجريح الذات ، لكن خليفـــا ، ليقبـــل نفسه، وليهرب من ذاته التي لا مهرب منها ، حمل مســـهوجا وزر الخيبة التي لم يكن سببها الحقيقي ، ضرب في البراري على وجهه وهو يستحضر لمسهوج صورا تذله ، وتخرجه من جنس الآدميين ، فيراه حمارا يدوس وردة، كلبا يلغ في إناء نظيـــف ، قردا يطارد غزالة ..لم تبق صورة منفرة لم يستحضرها ، لكـــن ذلك لم يبرد النار المشتعلة في قلبه ، وحار كيف يـــهرب مـــن

ذاته، فتمنى لو يقوم السبوح من رقدته الأبدية ، ليركبه ويظـل منطلقا به دون توقف حتى يصل إلى أهله ، فيشـعل نـارهم المنطفئة ، ويسلمهم رقبته ليفعلوا به ما يشاؤون ..لكن هـذه الأمنية مستحيلة أيضا ، فعظام السبوح صارت مكاحل ، وهـو لا يعرف درب أهله ، وإذ هدته دروب الأماني التي لا منـافذ لها، والبراري التي لا دروب فيها عاد إلى شمس الدين مستسـلما لقدر لا يستطيع رده، فوجد الحرب قائمة بين مسهوج وزهيـة، فارتقب ثمار المعركة بقلق وحماس ، وعندما انتصرت زهية عـاد خليف إلى منزلها بروح النمر الانتحارية لا بـروح الثعلـب المراوغ، فتواثبا مرات كثوري نطاح لا يتوقفـان إلا ليعيـدا الهجمة المرتدة الأكثر ضراوة والأكثر عنفـا.صبـت عليـه سخريتها في أغنية صريحة لا تحتمل الوجهين، لكن سـخريتها جعلت لها وجها ثانيا معاكسا لمنطوقها ، مع هـذا اعتبرهـا علامة تراجع تبشر بنصر بدأ يلوح في الأفق فما أسهل الانتقـال إلى الوجه الوحيد الصريح للأغنية:

بس حبني وفوت / والعب على الخدين

تالي العمر موت / خلنا نتشابك زين

قال لها : هذه هي الأغنية التي ترضيني..

قالت له : لكنها ليست لك.

ـــ: ستكون لي .

.ـــ: زهية لا ترضى بالفضلات.

العجاج يعرج بزهية إلى السماء

مر خيال بشمس الدين، جاء مسرعا كسحابة صيف عابرة، مغبرا كالغريري ، ملوح الوجه بالشــــمس كرغيــف خــبز الملاويح،توقف أمام خيمة محيمد العبد الله وطلب شــربة مــاء دون أن يترجل عن جواده ، وحين أسعفته زهية بطاسة شــنينة قدمت تتركد بها ، أدرك للتو صدق الأغنية التي تقول : بـالبيت المقابل / تطلع شمس وتغيب، كما أدرك أنه وقع في الهوى مــن أول نظرة ، ومع أنه عابر سبيل لم يكن ليتريث أو يتوقف حــتى من أجل شربة الماء ،فقد أنزلته الشمس التي طلعت من بيـــت محيمد العبد الله عن فرسه فظهر طويلا مهيبا ، عريض الكتفين ، ثابت الخطوة ، على شفتيه ظل ابتسامة دائمة ، وفي عينيه ينـــام حلم عميق ..

شرب طاسة الشنينة وقال : سأقضي الليلة هنا لأرتـــاح ، ثم أتابع طريقي غدا..!

لا عزلة لقرى النهر فلا بد من طارئ أو عـــابر ســبيل ، أو غريب أو غزو يحرك أيامها الراكدة ، فالماء طريق من لا يعـرف الطريق ، ومحطة من لا يعرف الأرض ، ومطلب كل حـــي ، وملتقى الحيوان الناطق والأبكم .

وضياع شمس الدين في أحد منحنيات النهر ، واســتكانتها المتوارية تحت جبل سن لم يحمياها من الطـــارئين والعـــابرين والوافدين والأعداء ، فضجيجها ودخانها ورائحـــة شـــوائها جذبت الغجر والطرقية والخطار والعسكر ، وأغنامها جذبـــت البدو والذئاب والضباع ، وأشجار حوائجها جذبت الخنـــازير البرية وبنات آوى والأرانب والثعالب، وماؤها وأعشابها همـــس لأسراب الغزلان ورفوف الكراكي والقطا والحجل والـــدراج الاوز والترغل ومالك الحزين ونعاج الماء ..وكلهم لا يتريث إلا بمقدار ما يحرك أيامها الآسنة الراكدة..

وإذ قرر الخيال أن يقضي يوما واحدا في شمس الدين رحـــب به أهل البيت دون أن يسألوه عن سر استعجاله ، أوسر تريثه ، أو مقصده ..

وفي اليوم التالي مدد الفارس إقامته يوما آخر فقد تضاحى في نومه والسفر البعيد يتطلب أن يسري سروة ليصل إلى غايته قبل أن يليل عليه الليل ، وفي تلك الليلة حضـــر معركـــة الغـــزل الضارية، وأفخاخها السرية ، إلا أنه ظل متعاليا عليها ، بعيـــدا عن المشاركة فيها فهو غريب لا يحق له الدخول في المعركـــة الداخلية ، مع أن عينيه لم ترتفعا عن زهية مما جعل الآخريـــن يرمقونه بنظرات منزعجة لا تخلو من ريبة ..وحين مدد الفارس إقامته يوما آخر دون حجة إلا مزاجه المتعكر بســـبب أرقـــه المفاجئ ، انشغلت شمس الدين به ، فهي لا تعـــترف بـــالمزاج المتعكر سببا لتعطيل عابر سبيل عن المضي في طريقه ، لذلـــك دخلت شمس الدين في هواجسها التي يغذيها شك لا ينضـــب ، وإيمان بأن عابر السبيل مثلهم تماما في طبعه ، يخفي الأســـباب الحقيقية ، حتى إن كانت صارخة ، متعللا بغيرها وإن بـــدت ضعيفة أو واهية ولا تقنع حتى العصفور الذي لا مخ له ، فـــهم لا يفصحون أبدا عما يريدونه صراحة ، ولا بد مـــن اللـــف والدوران ، ومن سر يكنزونه ، وكعادهم دخلوا من ثقـــوب ثوب الاحتمالات الخلق ، نافضين جيوب ثيابهم ، وداخلـــين على الله من احتمال التذنب كما دخل الثعلب الـــذي أكـــل

الدجاجات ، ولما سئل عمن أكلها ، قال : رأيـــت ذويـب يتلحس وادخل على الله ..!

وتساءل بعضهم : لماذا نزل الغريب في بيت محيمد العبـــد الله بالذات..؟

وجزم آخر : لقد اختار البيت قبل أن يأتي..

ــ:لعل صيت زهية وصل إلى خارج شمـــس الديـــن ، والأذن تعشق قبل العين أحيانا.

ــ: إذا سيأتيكم غرباء كثر ما دامت ريح الطامح قد عبقت.

ــ: مادامت الأميرة تقطع رأس من يطلـــب يدهـــا فلمـــاذا يزعجكم أن يقطع رأس هذا الغريب..؟

ــ: لكنه لا يبدو مثل من تقطع رؤوسهم..؟

ــ: وزهية مخاوية الجن ، وما عندها لحية مسرحة.

ــ: سترون أنه سيطب شليله ويهرب في ليلة ما فيها ضو قمر..

في اليوم التالي أسكتت العاصفة الغبارية الأفواه ، وأعمـــت العيون المفتوحة مؤجلة سفر الفارس المتعجل ، فالعاصفة لم تكـن متعجلة ، ولا يملك أحد أن يدعي أن السبب ضعيف أو واه..

جاءت العاصفة الغبارية في البداية هواء ساخنا يحمـل ذرات قليلة من الغبار يذرذرها في العيون ، ويرددها في الوجـــوه ، ثم

تحولت ذرات الغبار إلى سحابات كثيفة وسريعة ومتلاحقة لم تلبث أن تجمعت في سحابة واحدة دائمة تردم القرية والنهر الذي يقاسم البراري مصيرها ما دام ارتضى جوارها.

ازداد عصف الرياح التي تلف وتدور حاملة معها الغبار الناعم الدقيق كمسحوق حجر البيلون ، ثم أظلمت الدنيا بالعجاج ، وغاب كل شيء النهر والبيوت والأشجار والحيوانات ، و لم يبق إلا العجاج ، عجاج كثيف ، عجاج دائم ، عجاج متواصل ، عجاج ..عجاج..عجاج..حتى إذا فتحت عينيك فيه كما تفتحهما في ماء النهر ، لا ترى إلا لون الغبار الأحمر الكثيف الكثيف كالوحل.

استمرت العاصفة المجنونة تصك الخيام ، وتقتلع الأوتاد ، وتطوح بالزروب ، وتحني قامات الأشجار حتى تلصقها بالأرض ، أو تقتلعها لترميها بعيدا .وفي قلب سدم الغبار المستمر الذي تخاله لاستمراره ساكنا راكدا ثابتا تأتي زوبعة تلف وتدور كذيل الشيطان ، صاعدة إلى الأعلى ، فتحمل ما تبتلعه في جوفها من قدور وصيجان وزروب ودجاج وكلاب وأغنام لتمطرها في مكان آخر.

انطوت شمس الدين في خيامها المهددة بالاقتلاع ، فزعة من غضب الرب الذي أتى كان مفاجئا ، وظل الغبار ينفذ إلى البيوت مع منافذ الرياح ، وينفذ إلى القلوب ، ويتراكم مسحوقا لينا ينزلق انزلاقا ولا يتريث.

استنجدت شمس الدين بالشيخ إبراهيم واستجارت به لينده أجداده ، لينده شيوخ شمس الدين وحماتها ليحملوها على كف الأمان ، ويجتازوا بها محنة الرب ، فقال الشيخ إبراهيم : لا يجيركم من غضب الله إلا الله نفسه ، فراجعوا أنفسكم من أخذ أمانة فليردها ، من أكل لحم أخيه ميتا فليتب عن الاغتياب والنميمة ، من فضح مستورة فليرد سترها عليها ، من أكل مال يتيم فليرجعه ، من ذكر أمامه اسم النبي و لم يصل عليه فليكفر عن ذلك بالصلاة عليه ألف مرة ، من ذكر امامه اسم الله و لم يخشع أو يسبح باسمه فلتدمع عيناه ، وليسبح باسمه ألف مرة.. وعدد لهم من المعاصي ما كانوا يظنونه خارجها ، ولا يخطر ببالهم أنهم يرتكبون المعاصي وهم لا يعرفونها ، ثم قال لهم : لا تخشوا أن تخسف بكم الأرض ، أو ترتفع بكم العاصفة إلى السماء فالملائكة يسندون الأرض كي لا تنخسف ، ويجلسون

فوقها ليثقلوها حتى لا تحملها العاصفة إلى السماء ، ثم تكبها كالإناء جاعلة أعلاها أسفلها .

وجلس الشيخ إبراهيم ضارعا إلى الله ، وقال إنه حين يصل إلى إكمال التسبيح باسم الله سبعين ألف ألف مرة سيتوقف العجاج ، ولإنجاز ذلك الكم الذي لا يحيط به بشر مهما علت مرتبته عند الله فقد نده الملائكة والسياد ليساعدوه في مهمته .

لم يعد أحد يخرج من خيمته إلا لقضاء حاجة ، وشمس الدين تردم حية بالرغم من تسبيح الشيخ المتواصل ...

وفي صباح لا يختلف عن الليل اكتشف أهل زهية أن فراشها وفراش الفارس خاليان وباردان ، صرخت زوجة مواس ، لكن صوتها ضاع في العاصفة : انفضحنا..!

لم ينهرها أحد ، لم يملأ فمها دما بلطمة وكأنما كانوا ينتظرون ما حدث ، لم يضيعوا الوقت في ظنون فارغة لا تساوي زمن التفكير فيها لأنها لا تمدهم بأي قدر من الراحة ، فالكارثة أكبر من احتمالهم ويقينهم ، أكبر من الرد على الظنون، خرج مواس بفرسه لا يدري إلى أين ، يلتخلخه العجاج ، وتفتل به العاصفة ، ولم يلبث أن عاد مرعوبا ومذهولا حتى الموت : لا أحد ..لا أثر ..لا درب..!

قال الأب : الويل لنا..

قالت زوجة مواس : ليت العاصفة حملتنا ، ليتها تطمرنا أحياء..

قال مواس : لنطفش ..

قال الأب :لتحملنا العاصفة ..

صرخت زوجة مواس : إلى أين ..؟

قال الأب : أي مكان أرحم من البقاء

روع ولد مواس الوحيد وهو يرى فزع أهله ، فبكـــي بكـــاء يقطع القلب لكن أحدا لم يسكته ..

قالت زوجة مواس : ماذا سيقول الناس ؟

قال مواس : ما سيقولونه أرحم من مواجهتهم بالعار ، سيظنون أن العاصفة شالتنا..

قال الأب : وهي قد شالتنا حقا..

انتظروا الليل وأيديهم على قلوبهم من أن تتوقف العاصفـــة ، لكن الشيخ إبراهيم مع المساعدة المقدمة له من السياد والملائكـة لم ينجزوا بعد السبعين ألف ألف تسبيحة..

في منتصف الليل هيؤوا أنفسهم ، ربطوا أغنامهم ببعضـــها ، حملوا الأثاث والأواني على الحمر، قوضوا البيـــــت ودرجـــوه

وحملوه على بغل ، سترهم الليل وأخفاهم العجاج ، وابتلـــع ضجيج العاصفة كل الأصوات .

وحين توقف العجاج بعد يومين من هروبهم كـــان الشـــيخ إبراهيم قد أكمل التسبيح باسم الله سبعين ألف ألف مرة ، ولـو لم يستعن بالجن المؤمن لما تمكن هو والملائكة والسياد من إنجـــاز التسبيح قبل أن تردم العاصفة شمس الدين تماما ، وتحولها إلى قبر جماعي لأصحابها .

توقفت العاصفة تاركة تلالا من التراب اللين الذي غطـــــى الخيام والزروب ، وردم الصير ..واكتشفت شمـــس الديـــن ، وهي تنهض من قيامتها ، غياب بيت محيمد العبد الله..

ـــ: هل حملته الريح..؟

ـــ: هل طفشوا من وجه العاصفة ..؟

ـــ: أي مجنون يفعل ذلك..؟

وتذكر غير واحد : أنه سمع في الليلة السابقة أصوات.ثغـــاء أغنام ،نباح كلاب ، صراخ بشر في السماء فظن أنه قد جـــن من شدة الهول واستمرار العاصفة .

وأكد آخرون أنهم سمعوا دمدمة وأصواتا ظنوهـــا تســـابيح الملائكة الحافة بهم التي تساند الشيخ إبراهيـــم ..و لم يعتقـــدوا

آنذاك أنها زوبعة لفت بيت محيمد العبد الله وأهله وصعدت بهم إلى السماء.

قال الشيخ إبراهيم وقد استفتوه:الله قادر على كل شئ.

و لم يملك بعضهم مستجيبين لطبعهم المستريب إلا أن يمدوا رؤوسا خجلة من خلل الثوب الخلق ، فتساءلوا عن الفارس : أكان معهم ؟أهرب قبلهم ؟ وهل كان وحيدا؟

نظموا حملة بحث لكن الغبار كان قد محا الآثار وطمرها فلم تبق دروب يلجونها ، فعادوا إلى شمس الدين وتساندوا رجالا ونساء وأطفالا فحملوا التراب ، وكنسوا البيوت ورشوها بالماء فلم يبق من أثار العجاج إلا ما نفذ من غبار إلى الروح ، وإلا سيرة الذين حملتهم العاصفة معها ، وإذ تعدل السير فتضخم أو تهون فإنها لا تنسى أبدا، لا يطويها الزمن المديد بل يقبض عليها ولا يفلتها إلى آخر الزمان..!

وحيد كمالك الحزين

وقف خليف البدر على شاطئ الفرات وحيدا يلوي عنقه كمالك الحزين، تغسل مياه النهر أقدامه، وتثقل المفازات قلبه.

هرب خليف منذ رحلت زهية مع العاصفة المجنونـــة مـــن الناس، من زليخة ، من الشيخ إبراهيم كأنما حملـــت الريـــاح روحه معها ، أو أقامت جدارا بينه وبين الآخرين جميعا لا يمكن اختراقه .

يغادر فراشه منذ الصباح ، يرافق النـــهر ، يناجيـــه ، يبثـــه شجونه وأحزانه فكل شيء يتسرب من بين يديه حتى عمره، كل ما يريده ويرغب فيه يغيـــب ،يـــهرب ، يتلاشـــى كأنمـــا لم يكن.. كأن ما حدث لم يحدث، لا أمل يقود خطواتـــه ، ولا حلم يزهر فيبدد عزلته.حظه فاين وكلبه حفيان ، يعضه الكلب المسعور من فوق الفرس وكأنما تلبسته لعنة،أو دعا عليه داع ..!

لماذا ذهبت زهية قبل أن تعطيه ريقا حلوا ، وتترك له أمـــلا ولو مستحيلا؟ فالقرية التي عاش فيها كأحد أبنائـــها ، والـــتي اختارها عند عودته من عسكريته ، والتي شارك في كل صغـــيرة وكبيرة فيها ما كانت ستزوجه زهية حتى لو وضع رجـــلا في الأرض ورجلا في السماء ، لكن زهية نفسها لم تمنحه اليقـــين الذي كان سيقاتل شمس الدين كلها من أجله ، فيأخذها عنوة، ويغتصبها اغتصابا منهم، ويخرج بها إلى براري الله الواســـعة ، فهو وحيد أينما ذهب ومعها لن يكون وحيدا.

لن تخلط شمس الدين دمه بدمائها مهما طال الأمد مع أنها قرية هشة تتفتت ما إن تلامسها اليد كوردة شقائق النعمان ، وستظل شمس الدين قرية هشة يطوح فيضان مجنون للنهر بخيامها بعيدا ، وتسحلها رياح زفزافة جافلة سحلا قصيا ، ويطمرها ثلج غزير فيجعلها أثرا بعد عين ،وتبددها غزوات البدو فيقال هنا كانت ، وتمججها هجمات العسكر فتضيع في الشعاب القصية والبراري البعيدة ، وإذ ترحل تمحي ولا يبقى منها إلا آثار المناقل المحفورة في الأرض، ورماد المواقد وأغنيات الرياح السافية ، وحكاياها المذروة كبقايا الرماد .

ومع أنها لا تثبت أبدا فإنها تعود إلى قبورها الهزيلة بعناد ذئب جائع وبروح نبتة برية منتظرة هجة جديدة ، فالهجات لا تنتهي ولا تتوقف لأن شمس الدين لا تواجه أحدا ، لا تجابه الظلم ، ولا تتمرد على العدوان بل تنافق للقوي ،لتستظل بظله ، فإن أخرج الظالم أنيابه لزلة ما فروا من أمامه جماعات مفضلين الحياة الصعبة الدائمة الرحيل على الموت ؛فلكلب حي خير من سبع ميت ، وهم يبقون دائما لأنهم يرحلون دائما !

تستكين للغريب ،وتستقوي على أمثالها فكم اشتبكت شمس الدين مع جارتها الشجرة في حرب ضروس لا أهداف ولا

أسباب لها..اوكم اصطرعت مع عشائر أخرى مانحة جثـث القتلى لجوارح السماء وضواري الأرض حتى أصبحت بطونها قبورا لقتلاها ، وما يدخل بطون الضواري لا يسترجعه أحد كما استرجعت العنز العنوزية ذات القرون المغازلية سنيسل وربابة من بطن الذئب .

يتبعون الدم فيقودهم إلى الدم ، وتستمر حلقات الثأر الفارغة كأغنيات الحواج التي لا معنى لها ، يطلقها لترجعها بنت الجرف كالصدى فيؤنس بها وحدته ، سيظلون يسقطون ويسقطون دون توقف ما داموا يعاملون بعضهم كالحيوانات ، وينامون على حمل تين ووعد مستحيل ، يصدقونه ، بأن الفرات سيتحول إلى عسل ، مع أن الغرباء الذين ينظرون إليهم على أنهم أحط من الحيوانات جنسا يهربونه تحت أعينهم التي سيأكلها الدود ، قوارير من ذهب وقوارير من فضة، وهم ينغرسون في وحله كأسماك ميتة!

خليف مثلهم حتى وإن لم يعترفوا به ، مثلهم لأن لاشيء لهم، لا أرض ، ولا سماء ، ولا نبات ولا وجود وحتى أحلامهم لا تخضر فهي كالحجر الصواني .

وعندما يريد مستذلهم أن يستخدمهم لأغراضه يناديهم كما يناديي كلبا ضالا ضاريا فيستأنسهم،ويمنحهم أرضهم ليقيموا قراهم المزيلة الهشة ويطلقهم ضد بعضهم بعضا فتكون مخالبهم أشد ضغينة على أصحابهم ، وأكثر إيلاما،وأكثر تجريحا، يفوزون بالحقد الذي لا ينضب معينه،المستمر إلى الأبد وينجو مستذلهم،ويفوز بمديحهم ذي الصوت العالي.

ما يختلف فيه عنهم أنه معزول حتى بينهم ، لا كيان له ولا حقوق فالمدوفة سيظل كذلك أينما ذهب ، فأين يذهب إذا كانت كل البراري كشمس الدين ..؟!

يسترجع خليف نفسه من أفوله الذي يطول وراء أفكاره التي لا تهدأ ولا تستقر ،فيرى النهر يضج بالحركة ،والشمس تبدأ بالأفول ، والطيور تعود إلى أعشاشها ، وتنسحب طيور أخرى تسبح في النهر باحثة عن ملجأ لها تحت أدغال الحوائج ، ويدوم طائر الشقراق ، سلطان النهر الأحمق ، ومن بعيد تأتي أسراب الغزلان متسترة بأمن المساء لترد النهر..

كل ما يراه خليف يحدث دون مشاركته ، كأنه غير موجود فهو وحيد معزول يغسل النهر أقدامه ، وتثقل المفازات روحه، وينتصب مثل فزاعة مهلهلة لا تملك أن تحمي نفسها.

وليفلت خليف من يد العزلة المميتة يبحث عــن ذكرياتــه الحميمة :إبراهيم باشا ، حلب، بلاد الشام ، معاركــه الــتي خاضها بشراسة الضواري،وإذ تهرب منه الذكريات أو تتبعــثر فإنه يركض على آثاره قصصا ليلتقط شظايا الحياة الغاربــة ، فهي كل ما بقي له،لا يريد أن يخسر ما يدل على أنه كان هنا، وأنه وجد ذات يوم ،لكن هذه لا تسعفه،لا تطرد يــد العزلــة الباردة عن رقبته ،ولا تمنحه برد اليقين ، وما تلبث أن تتبــدد كأنها لم تكن فخليف لم يحقق شيئا مما أراد ، لم يقبض علــى أحلامه ، لم يكبر بانتصارات إبراهيم باشا فثــوب العاريــة لا يدوم ولا يدفئ مقرورا..فهل كل ما حدث لم يحدث ، وكل ما كان لم يكن ؟ ألم يكن حقيقيا ما عاشه خليف..؟

لعل ما لا يراه هو الشيء الحقيقي الوحيد الذي كان والــذي لم يعرف دربه فضاع في متاهات دروب ظن أنهــا ســتوصله فتسرب الحلم من يديه كما تسرب عمره دون جدوى..أأحقــا لم يبق له إلا ما لا يراه..؟ ألم يبق إلا المحجوب المستور المتــواري حيث ترقد حوريته التي رائحتها في أنفــه وملمســها علــى أنامله..؟ فمتى تزول الغشاوة عن عينيه ، ويظهر المستور عاريــا كنور الشمس الفضاحة ..؟

تأفل الشمس الغاربة ، ويتغطى الكون ، الأشجار ، الغزلان، الطيور بالظلمة الحميمة الأليفة، تتوارى كلها لكنها تظل هنـاك كالعالم المحجوب المستتر الذي يظل هناك وإن لم يكن يـــراه.. ويعود خليف إلى زليخة فوجدها التي ما زالت تنتظره فهو كـــل أهلها..!

أيام المحاق

دافئ كالحنان، بارد كالموت !

دخل البدو إلى شمس الدين عدة خيالة سمر الوجوه، نحيفو الأجسام ، قليلو الكلام ، جادو الملامح كالأسلاف، نبحتهم الكلاب فلم يبالوا بها ، فرافقت الكلاب ركبهم المتوغل في القرية دون إنذار!

قبل أن يتفرق البدو كل إلى خويه الشمديني ليتكؤوا على الوسائد هادئي البال، مادين أرجلهم في وجه خويهم الذي يتعامى عن الإهانة ، ويدور حولهم ملبيا طلباتهم كالكلب الأمين ، رأوا الشيخ إبراهيم بلحيته الكثة التي تملأ صدره العريض مقبلا من زور النهر ، فعطف كبيرهم جواده إليه،فانعطف صحبه خلفه دون كلمة..دحمت الخيل الشيخ إبراهيم وهو يحاول أن يروغ منها ، وقال مقدمهم الذي نوى العبث بالشيخ ، وهي نية لا تخطر إلا في بال من يعرف أن الآخرين يضعونه فوق نفوسهم .

ـ: لم أرك في هذه القرية من قبل ..؟

ـ:طول عمري وأنا فيها..

ـــ: فمن خويك..؟

ـــ: وهل الخوي ضروري..؟

ـــ: وتسأل ..؟فمن يحميك إذن ؟ وكيف تأمن على روحك..؟

رأت شمس الدين ركب البدو فتعوذت منهم كما تتعوذ من إبليس اللعين ، وتساءل كل واحد منهم بوجه من استصبح اليوم؟ وحين استوقف البدو الشيخ إبراهيم بدأ أهالي القرية يتقاطرون عليهم ، ويتجمعون حولهم ، فيما استمر البدو في سخريتهم من الشيخ ، فقال له أحدهم:لا تظن أن لحيتك تحميك، فهي لا اعتبار لها عندنا..!

ـــ: لست في حاجة إلى حماية أحد..

قال مقدمهم:اسمعوا ما يقول مسبوع الأب، إنه لا يراكم ولا يخاف منكم..اقل لي إن قتلك واحد من الخيالة فمن يفكك منهم..؟

ـــ: يفكني من يفك الكربة..

ـــ:اختر خويك من بيننا قبل فوات الأوان..

قال مطر العلي:ضيفنا يا جماعة ، فهو خويكم إذن.

قال أحد البدو : لكنه يرفض خوتنا.

قال الشيخ جازماً:لا حاجة بي لخوة أحد.

قال مقدم البدو: ألم أقل لكم ..؟ أنا بريئ مما سيجري له ، وأنتم أيضاً بريؤون منه..

قال خليف الذي وصل حاملاً بندقيته:بل هو خويكم .. أليس كذلك يا شيخ إبراهيم..؟

قال الشيخ إبراهيم : الله خويّ..

قال مقدم البدو وقد بدأ يفقد صبره:لكن الله لن يخلصك من أيدينا، وسأريك ذاك..هيا اشلح ثيابك..اوعنرى إن كان الله سيردّها عليك..

تلكأ الشيخ ، ضربه البدوي بالسوط، وصرخ به : إن لم تقلع ثيابك سألهب جلدك بالسوط..اهيا ارمها واخرج عارياً كما نصلت من بطن أمك..!

أرغى الشيخ وأزبد ، وصاح ضارعاً مستغيثاً والدمع يكاد يطفر من عينيه :أغثني يا غوث كل مظلوم..اووصل الشيخ حمد للتو فقال : لن أسمح لكم بإهانة أحد من القرية..اقال مقدم البدو :لا تتدخل يا شيخ ..فهذا الرجل لا يعترف أنه من قريتكم ..

وقف الشيخ حمد محرجا فهو لا يستطيع أن يعـــادي البـــدو صراحة، ولا يستطيع أن يغمض عينيه عن إهانة ضيفه، أمسـكه خياط الإبرتين يقدم أم يحجم، إن أحجم فلن يرضى عن نفسه، وسيفقد احترام قريته، فقال حاسما تردده : إنه ضيفي وخوتـــه علي، وإن لم تكفوا عنه فلا خوة لكم عندنا أبدا، ولا ســـبيل لكم إليه..!

أدرك البدوي الأرعن أن الموقف يكاد يفلت من يده ، وقـــد بدأت ثقته بنفسه تخونه ، لكنه ما عاد قادرا على الـــتراجع وإلا سقط من عيون صحبه، لذلك أراد أن ينهي الموقف بســـرعة ، فهجم على الشيخ إبراهيم آخذا طرف كصيرته وسافرا إياهـــا عنه ، فعلقت في أكتافه الثقيلة، ورأسه الكبـــير، فجرجرهـــا البدوي، ولاج فيها الشيخ كثور أعمى، وهو يسمع شـــهقات أهل القرية، وضحكات البدو اللاهية..و لم ترتد الشهقة بعـــد عندما طار البدوي، طار كأنما كانت له أجنحة، أو اختطفتـــه أيد خفية ، ثم انخبط على الأرض ككيس عظام متحطمة مـــع صرخته الوحشية المترافقة برد ثوب الشيخ على جسده العاري.

ما حدث حدث خطفا كإغماضة عين وانتباهتها حـــتى أن الواقفين لم يروا أن يدي الشيخ المعصوب بثوبه همـــا اللتـــان

اهتدتا إلى البدوي ، فاختطفتاه وقذفتاه بسرعة قبـــل أن يرتـــد طرفهم عن عريه الذي تعلقت به الأبصار دهشة، إذ لم يكـــن هناك سوى عش خال ووردة مقطوفة.

وصرخ الشيخ رافعا يديه إلى الله : اغثني يــا غــوث كـــل مظلوم..!

أفلت الناس من قبضة الدهشة فلفهم الغضب الجريح ، وقبـل أن يتحول الغضب إلى فعل انسلت أفعى من بين يدي البدوي ، واختفت حالا تحت أنظارهم المدهوشة والغاضبة.

وإذ رأى الشمدينيون مساندة السماء للشيخ دمدموا بغضـب في وجوه البدو الجامدين والمفزوعين فوقف الشيخ حمد بينـــهم وبين أهل القرية وقال :لا يلمسنهم أحد..هيا خذوا قتيلكـــم وارحلوا وإلا لحقتم به..!

تحرك البدو غير مصدقين ما حدث،حملوا صاحبهم ، وساطوا خيولهم، فعدت مبتعدة بهـــم والنقـــع يتطـــاير مـــن تحـــت حوافرها..وفكر الشيخ وهو يرقبهم يبتعدون كالأشباح في ظـل زوبعة الغبار التي أثاروها: بأن العاقبة ستكون وخيمة..فلم يعـد اتفاق الخوة وحده لاغيا،بل إن هناك قتيلا من البدو ،والقوي لا ينتظر أربعين سنة ليأخذ ثأره، ثم يرى أنه استعجل..!

انشغل الشمدينيون بالشيخ إبراهيم، فاحتاطوه ليحموه من ظنونه ، ومن ضعفهم في أن يندهشوا مما رأوا ، أو يحدثوا به ، إلا أن الشيخ أدرك أنهم يعرفون الآن ما لا يحكى ، مالا يباح به، وما ليس موضع نجوى أو همس أو شكوى، وأنهم يرونه عاريا فيلفلفونه بثياب رحمتهم، لكن رحمتهم قصيرة العمر كعشب البراري ، كسحابة صيف لن تلبث أن تنقشع فيكتشفون تحتها العش الخالي والوردة المقطوفة .

حاول أن يروغ منهم ، أن يهرب، وحاولوا أن يحيطوه بالاهتمام ، ويتحدثوا عن الأفعى المؤلفة التي كانت غليظة كعمود البيت ، طويلة كأمراس الخيام ، ولها قرون تزري بقرون أكبر تيس ، وعيناها مثل جمرتين من نار ، وأنها عصرت البدوي عصرا حتى سمعوا تهشم عظامه ، واختناق صوته في حلقه .

وراحوا يروون ما حدث بحماس لبعضهم بعضا ، وكل يضيف ما لم يره الآخرون ، أو ما غفلوا عنه ، وكان الشيخ إبراهيم قد تسلل منسحبا إلى عزلته ليبكي دون أن يراه أحد . شق دربه الذي يعرفه في الحويجة فلم يسمع دمدمة الحيوانات ، ولا خرير المياه ، ولا حفيف الأشجار فالثورة المكبوتة في صدره تفور وتغرق كل الأصوات ..

لقد أخطأ خطأ لا سبيل لإصلاحه ، أطال المكـــوث وهــو يعرف أن الشيخ الذي يطيل المكوث يخم كالماء الراكد . لابــد من الرحيل الآن فالبقاء ما عاد ممكنا ، بالرغم من أنــــه ربــح المعركة مع البدو ، وأثبت قدرته ، واستجابة السماء له ..لــــو حدث ذلك دون أن تنكشف علته..؟! ما عادت الأماني تفيـده فقد أصبح مكشوفا مفضوحا ، مستباحا منذ رأت شمس الديـن عورته التي لا وجود لها ، وغدا ستنشط الأقوال والتفســيرات، وستلوك الأفواه سيرته ، وحتى إن لم يتحدث الكبــــار، فـــإن الصغار سيلاحقونه ، سيصفقون وراءه ، وسيطالبونه بالكشـف عن عورته ، وسيصبح مجنون القرية بعد أن كان شيخها!

ليذهب في هذا اليوم فما الذي يمنعه من ذلك ..؟ لا وفــــرة يفتقدها ، ولا مملكة صغيرة يأسف عليها ، فمن يعش بين القوم أربعين يوما يصبح مثلهم ،والشيخ عاش على الشح كأهل هــذه القرية التي ترجم بالجدب الذي يلاحق الأجنة في بطون أمـهاتهم بالرغم من الماء الطافح الذي يمر بين أصابعهم فارغا كــالزمن ، فيترقبون ماء السماء الشحيح كلبن شاة مغرزة ، يســـتمطرونه بأغاني الصبية ، تطق حلوقهم ، يفتحون لها فمــــم في الغـــزارة كضب يلعق الصخور الجافة، ويغرقون في الشح كأسماك ميتة ،

والكثرة قاب قوسين أو أدنى ، فالنهر لا يكف عن الخرير ، ولا يغير مجراه ، والأرض العطشى تئن حوله ، فالزراعة حيية خفـرة بطيئة كالسلحفاة التي تخطو خطوة إلى الأمام ثم تنقلب علـــى ظهرها ضاربة ولزمن طويل أرجلها الرخوة في فضاء شاسع فإن هاجمها عدو ما انكمشت في درعها إلى أن يأتيها طـارئ مـا يقلبها على بطنها لتواصل زحفها الوئيد الوئيد.

مع هذا يحملون عبء الإقامة في قرية هشة تجعل صيدهـم سهلا، و ينغمسون في التفاصيل اليومية الصغيرة ، فيضخمـون المناسبات الهزيلة كالصواصي المصوفة ، ويجللـون الصغـائر ، ويكبرون المشاحنات النحيلة كعود الخيزران ،ويجعلون من الحبة قبة ، ومن القبر مزارا ومن الهروب مرجلة ، ومـن الملاسـنة الفارغة عرس كلبة ، يفرجون على بعضهم بعضا الأم وابنتـها ، يلعنون الكبير والصغير والنائم بالسرير ، ويحلفون فلا يعثرون إلا على طاسة ويس ، وفروج الأمهات والأخوات والمحارم ...

الويل لك منهم سيفرجون عليك الكبير والصغير ، بل لقـد تفرجوا ، إلا أن القادم أعظم، فعيبك المستمر سيمد أسمـارهم بالحكايات الساحرة الدائمة ، وستكون تسليتهم التي لا تنتـهي

في أيامهم المقبلة والمدبرة ، وكلما عن لهم أن يتسلوا مدوا فضولهم إلى عورتك المقطوفة.

ليغادرهم حالا ودون إبطاء ، فحتى هدلة المشكو ما عادت قادرة على ربط رجليه في وحل شمس الدين ، سيشتاق لها ، وسيحن إليها فهي الشح الذي استبدله بالغزارة ، والرجل يستطيع أن يترك كل شئ دون ألم إلا امرأة تحبه حتى لو كان شيخا لا أرض له.. لقد ظلا معا لكن أحدا لا يستطيع أن يقول إنهما كانا معا ، لاشيء يثبت ذلك ، لا شئ يشير إليه ، ولعل هذا هو السر الذي شدها إليه، أن يكون لها رجل خال من فضيحة الحيل.

حتى أولادها الذين كبروا أمام عينيه لم يدركوا أن بينهما علاقة حميمة وسرية ، لقد اكتفى بهدلة ، وأحب أولادها ، وقد أغنته عن مصير الشيخ الحقيقي الذي لا ينسج علاقات تضعفه أو تقيده ، فيظل خاليا من القيود والظنون والعلاقات ، يحن إلى كل الأمكنة التي تقوده روحه القلقة إليها ، وفي سفره الدائم يتجدد بتجدد الأمكنة ، قد يموت في قرية ما ، في نزل ما ، في برية ما فيقبره العابرون أو تقبره الملائكة عندما لا يكون ثمة أحد، وقد يحفر حفرته بنفسه فالشيخ وحده يعرف متى يسلم

الأمانة فيترل في حفرته ويترك للرياح السافية أن تردمها ، والقبر في البراري علامة ، وموقع استقرار يجذب العابرين.!

إنه يتحدث عن مصير الشيخ بحنين من يفتقده كأنما لم يشف تماما من أحلام القوة والسلطان ؟ أهي حقـا أحـلام القـوة والسلطان أم أنه درب الحق الذي أراده منذ البداية فاصطادتـه غرائزه وشهواته ، وجرفته بعيدا عنه ؟ أأزمته هي الـتي أرتـه الدرب الذي لم يره أم أن غرائزه قد خفت صوتها العالي فأصبح يرى ما لم يكن يراه من قبل ؟ أهو درب أبيه عاوده على نحـو مكتمل ؟ كيف تظل الدروب تملك سمتها بالرغم من الزمـن الضائع والمفارق الكثيرة و انشغالات الهواجس الصاخبة ؟

هل سيسير في درب الحق فلا يعبأ بالموت ولا يخادعه كـي يسقط وهو يركض ذات غفلة منه فلا يلتقيان وجها لوجـه ، ولا يقلقه شحوب الموت الذي يعلو وجهه ، ولا رائحة جثتـه العفنة ..؟! أيبهجه حقا أن يركب المصير الحقيقي للشيخ أم أنـه مازال يضرب بعيدا عن الحاح ؟ أحقا ما يراه أم أنـه يخـادع نفسه ؟ أما عاد مدركا لما يريد ؟ ومتى كان يدرك ما يريد عـن يقين كامل .. ؟ ويل للقلب الذي لا يعرف شاطئ الأمـان ، وللأحلام التي لا تدرك يقينها ..!

انشغل الشيخ إبراهيم بنفسه مخوضاً مرات في الحويجة كوحش جريح ، و لم ينتبه إلى أن الليل الستار احتضن الكون ، وطمأن الخائفين والهاربين والموجوعين الباحثين عن ظلمة يتوارون فيها .

هدأ الشيخ إذ تسربل بالظلمة الرحيمة كأنما انزاح عن قلبه الثقل الذي هده، كأنما غسله الليل ، أو كأن ما حدث لم يحدث ..امادام سيلبس الليل الستار بعد قليل ، ويذهب إلى الأبد دون أن يرى أحدا من شمس الدين فإن ما حدث لم يحدث حقا ، و لم يكن أبدا !

توقف الشيخ إذ سمع صوت تحطم أغصان يقترب منه رويدا رويدا في الظلمة الشاملة ، و لم يلبث أن تبعه صوت لا يخطئه أبدا لكثرة ما ناداه ، سار باتجاه الصوت وناداها بدوره ، وعندما تقابلا كادت الدموع تطفر من عينيه ، سارعت لطمأنته : أنا المعنية وحدي ، وأنا أعرف..!

ـــ: كان يجب أن أذهب من زمان لولاك..!

ـــ: لم يتغير شئ.

ـــ: لقد تغير كل شئ.

ـــ: عشت بظلك ..

ــ: لا ظل لي يا هدلة.

ــ: أنت تكبر الأمر..

ــ: لقد انفضحت ، وسيركض الأولاد خلفي يعيرونني بعلـــتي ..سأجن ..

ــ: وأنا ..؟

ــ: ما عدت في حاجة إلي ، فأولادك كبروا..

ــ: لا أحد يغنيني عنك .

ــ: ما عاد البقاء ممكنا..

ــ: أين ستذهب ؟

ــ:كل الأرض لي .

ــ: خذني معك.

ــ: أ جننت ؟ أيشقى أولادك بعدك ..؟

ــ: ما عادوا بحاجة إلي ، وأنا بحاجة إليك..

ــ: الشيخ لا يحمل أحدا معه ..!

في آخر الليل تسلل الشيخ إبراهيم كاللص ، بعد أن طبع قبلة على جبين هدلة التي ذرفت دموعا كثيرة، وهي تودعه ، وقـــد عرفت متى تغادر الروح الجسد.

اندفع الشيخ إبراهيم في دروب الحياة وبراريها ، ليخلع اسمه، ويلبس اسما جديدا ، ويبحث عن مملكة صغيرة لا جنة فيـــها ، لأن هدلة المشكو لن تكون هناك ، فالمرأة لا تتكـــرر أبـــدا ، وتوارت غصة قصيرة العمر كالومضة خلف المملكة التي سيرفع فيها اسم الله لا سلطان للبشري الفاني وهذا هو مصير الشيخ الحقيقي الذي لا تشده الروابط ، ولا تعيقه العواطف ، وشـــعر ببعض الراحة وهو يعتقد أنه استعاد مصيره الحقيقي ، مصــــير الشيخ الذي أضاعه من قبل فضرب في البيد كحيوان وحيد ..!

ظلت هدلة في الحويجة تسمع زفيف الزل والقصب وخريـــر المياه ووقع الخطوات المبتعدة ، ذهب الثاني كما ذهـــب الأول دون أمل في العودة ، خطفت الأول جنيته ، وخطفت الثـــاني علته وظنونه ، وتركت هدلة كالأرض السائبة البائرة ، ومـــات كل شئ فلن يعرف أحد أنها عرفت الحب الحنون الشـامل دون الحمامة.

لم يبق لها إلا ذكرياتها التي تنغلق عليها ، لأنها لا تملـــك أن تحكيها لأحد ، بل تكدسها في سرداب الأحزان ، وتســتعيدها كحبات المسبحة كلما خلت إلى نفسها إلا أنها لن تعوضها عن اللمسة الحنون والهمسة الدافئة..وأحست بالـــبرد والوحشـــة

والضياع فانفلت الدمع الحبيس حاجبـــا طريـــق العـــودة إلى خيمتها..!

خليفه يمتطي الدهر

تقعي زليخة في الركن القصي من البيت وحيدة كالدميـــــة، تغيب مع دمدمة الرعود البعيدة التي تتدهدى كصخور عملاقـة لجبل ينهار ، فيباغتها حزن غامض مفاجئ كلسعة عقرب ، مـا يلبث أن يهيض الجروح الغافية ، وينبش المواجع التي تدفنــــــها انشغالات الحياة اليومية، وهذر النساء وهذيـــاهن المشـــترك، يتسلل من فم زليخة ، بعيدا عن إرادها ، صوت حزين ملتـــاع كاو ينعي غدر الأيام وميلة الحظ ، ويتغلغل صوت النعي الحزين في المسام والعظام والدم ، فيغيب الناس والأشياء والزمــــن ولا يبقى إلا الحزن المنفلت من عقاله ، والدمـــوع الـــتي تجـــري كالسواقي .

يأتي خليف ، تسمع وقع خطاه دون أن تراه ، ومع اقـــتراب وقع الخطا يخفت صوت النعي دون أن ينقطع ، يظهر خليـف ، يتوقف قليلا في لوحة الباب مترددا ، يهم أن يعود على عقبيـــه وقد نفذ الصوت الحزين إلى قلبه كطعنة حاسمة . يتغلب علـــى

تردده ، ويدخل البيت صامتا واجما ، يتناول وسادة ويلقيها فوق ساحة الصوف ، وينسدح على ظهره ، يزداد صوت زليخة خفوتا حتى يتلاشى ولا تبقى إلا الآهات الحرى والنشيج المكتوم ، والعبرات التي تهمي بغزارة.

ولأن لسراديب الأحزان البناء نفسه في كل نفس فإنه سريع العدوى طاغي التأثير . يغيب خليف في سحابة الحزن المطلقة السراح التي استخرجتها زليخة من كهوف الماضي وسراديبه الرطبة المظلمة التي تتكدس فيها جثث الأسلاف والمواجع والحظ الفاين والخيبات ، والأحلام الصرعى المثل بها ، والأحلام المستحيلة المسترجعة من عماء محيط عميق .

تكفكف زليخة آخر عبراتها بردن ثوبها ، ويظل صدرها يشلع بالنحيب الذي كعمته كطفلة أجبرت على بلع عبراتها تحت التهديد .

يسود الصمت بينهما كأنما كل منهما يجلس إلى نفسه ، وتفكر زليخة بأن خليفا سيظل مسدوحا هكذا لزمن طويل يطارد أشباحه وأطيافه التي تصطدم بها أينما تحركت .

لن يهب خليف ، كما من قبل ، من رقدته بحماس يمنحه اليقين حرارة الصدق ، فيقول لها : سأغرس الحياة في رحمك..!

ولن تجيبه بالحماسة التي تمنحها يقينا بأنخليفا كالرب ، وما دام قد قرر أن يمنحها حياة ثالثة، فإنه قادر أن يفعل فتجيبه : ما دمت ترغب سيحدث ما ترغب فيه .

إنها تدرك الآن أن أحدا ما لن يأتي ، وأن فخذيها لن تستقبلا الحياة ، ولن ترسل من يبشرخليفا وهو جالس بين الرجال : جاءك ولد ..! فيرفرف قلبه فرحا كعصفور عثر على فرخه الضائع ، لكنه يخفي فرحة قلبه بجلافة يدعيها : أبو سليخ ..ماذا سيفعل لي الولد ..؟!

ذاك حلم الماضي الذي أصبح مستحيلا وأخذ مكانه في سرداب الأحزان ، إلا أن الولد الذي لم يأت ظل حاجزا بينهما كالسيف اللامرئي يوضع بين الرجل والمرأة فلا يتجاوز أحدهما حده ، إنه كالأشباح موجود بلا وجوده..!

ليس الولد حاجزا وحيدا فالحواجز تنهض بينهما في كل يوم، بل هي كانت منذ التقيا مصادفة ، فخليف لم يسع إليها ، لم يرغب فيها ، و لم يتوله بحبها إنما تعثر بها في طريقه فأراد كل منهما أن يؤنس وحدته بوحدة الآخر ... وإذا كانت قد أحبته، وأرادت أن يكون لها وحدها ، ولو رغما عنه ، ليحمل نسمة باردة إلى صحراء حياتها القاحلة ، فإن الملمس البارد

للأشباح دخل بينهما ، وظل يقصيها ويبعدهـــا إلى أن تحـــول البعد بينهما إلى مساحات صقيع شاملة .

لم تستطع زليخة أن تكون بديلا لأشباحه، و لم تســـتطع أن تتغلب عليها بالرغم من كل ما استخدمته من سحر وتعـــاويذ وتمائم ورقى .. لقد خرب بمقاومته الضارية ، كل ما أبرمتـــه ، وكل ما عقدته ، وكأنما الأشباح ولدت معه و لم يرها في حلم، أو يعثر عليها في غفوة ، أو تترائى له في ظلمة ، لقد سممـــت الأشباح اللامرئية حياهما .

لا تخيفها ابنة امرأة ولا تعجزها فهي قادرة على منازلة أعـــتى العاتيات لتدافع عن حبها ، عالمها ، بيتها ، ملجئها الـــذي لا ملجأ لها غيره ، ولكن لا سبيل لمنازلة ما ينفلت منك ، ما يمـــر خطفاً ، ما لا يمر اطلاقاً ، ما يراك ولا تراه ، ما يســـمعك ولا تسمعه ..وحين ظهرت زهية في حياته قالت : نزوة وتزول .

لم تزل النزوة إلا بعد أن كشفت لها أن لا تاريخ لخليـــف في شمس الدين ، فهو نبت لا جذور له مثلها تماماً ، لا أحد يعرف من أين جاء ، ولا أين سينتهي به المطاف ، إنه هدوفة ولا أحد يعطي الهدوفة امرأة ، فشمس الدين لن تفسح لـــه مكانـــاً في دمائها ، ولو كانت دماء طامح يزورّ الآخرون عنها .

لم يكن خليف يجهل عزلته ، لكنه أراد أن يدعي ما لا يملك، أن يخدع نفسه ، أن يظهر كالآخرين ، كان يكـــذب علـــى نفسه، ويروغ من الحقائق كثعلب ماكر ..وكلما نفثت زهيـــة سمومها فيه أفرغ تلك السموم بزليخة ، فهو كالأرول تعضـــه الأفعى فيعض عود الكبر . كانت تستقبله دائماً مانحة نفسها له مطلقاً ، وهي تعرف أنه يطارد فيها زهية ، ولا يقبض عليها .

وعندما رحلت زهية أو اختفت كمـــا تختفـــي الجنيـــات والأشباح زاد ابتعاده عنها ، ورافق أشباحه هائياً ، وخســـرت زليخة حتى عضة الأرول المتألمة السامة .

سيظلان يعيشان معاً ، بل ســـيظلان يتســـاكنان ، لأن لا أحد لكليهما ، لكن بينهما سيفاً غير مرئي ، بسمة طفل مشرقة لا تأتي ، واصطخاب أشباح لا ينتهي ، وهما معاً لا يملكـــان إلا مطاردة الآمال المستحيلة .

يعود صوت الرعود البعيدة المتدهدية كحجارة الجبل فيحطم جليد الصمت ، وتقول زهية بصوت له رائحة النشيج الخشنة : إنها تمطر بعيداً..!

ويقول خليف بصوت له رائحة الحزن العميق : ستمطر هنـــا أيضاً.!

تعدل خطى كأنما ندهته أشباحه ، ثم استوى قائما ، ثبت كوفيته وعقاله على رأسه ، درج العباءة حول جسده متهيئاً للخروج ، لم تسأله أين يذهب ، همت لكنها تراجعت لأنها لن تتلقى جوابا حتى إن رد عليها، فهو يغمغم عادة إنه ذاهب إلى جهنم ، أو أنه سيعود.

خرج خليف فاستقبله هواء فاتر كرفيف الأجنحة ، وسحابات تتلاحق عجلى إلى بيادر الغيوم السوداء التي تشقها بروق بعيدة ، وسمع نغيط طيور الوز المهاجر ، رفع رأسه فرأى أسرابها الكثيفة المتتابعة تظهر وتغيب خلف الغيوم على شكل مثلثات لا قواعد لها ، ولا انتظام لأضلاعها ، وحسد الطيور المهاجرة فوق الغيوم .

تجاوز شمس الدين الجاثمة ككتل من الصخور ، سار في الأرض الزورية ، ثم عبر المخاضة إلى الحويجة ، تقدم فيها ، تقصفت تحت أقدامه أغصان ، وخشخشت أوراق ، فسكنت زواحف وحشرات وحيوانات أنصتت مترقبة ظهور الحيوان الذي أثار كل هذه الضجة.

اختار خليف مكانا يجلس فيه مستذريا بالأشجار ، وقبل أن يخرج أشباحه كدمى يخرجها ولد عابث تذكر الشيخ إبراهيم

خويه الحالم الذي يحرس أفواه السكك ، ويبيع الأحلام لنفسه وللآخرين والذي شكا له أن أبواب السماء لم تفتح له ، ولم ير المحجوب المتواري بالرغم من أنه أضاع عمره في انتظاره . لم يصدقه خليف الذي كان يظن أن الشيوخ وحدهم يتمتعون برؤية ما لا يرى ، ووحدهم يرون ما يحجب عن الآخرين ، ووحدهم الذين يدلون الخلق على الدرب الذي لا درب غيره ، الدرب الوحيد الذي يقود إلى المستور المتواري ، لكن الشيخ قال له : إن المحجوب يكشف للمختارين ، لمن يدمنون طرق أبواب السماء ، وقد رأى خليف مرة ما لم يتكرر مع أنه آمن أن المحجوب المتواري أعظم من الظاهر المشاهد ، فالظاهر يموت، يغيب ، يتلاشى ، يأخذه الزمن الراكض كعجاجة خيل مقفية ، أما المتواري فدائم وأبدي لا يحول ولا يزول ولا تغيره الأيام ، بل يبقى دائما هوهو ، وإن لم يكشف لك لتنغمس في نعيمه إلى الأبد فإن حياتك زائلة ، ضريرة لا طعم لها ، أمام البقاء الأبدي . وإذ ترى المحجوب مرة ستصبح أسيره ، فتحاول أن تقبض عليه مرات ، فإن عاندك وتفلت منك كفرح القلب فأنت لا تسعى إليه بما يكفي ، فأدمن طرق أبوابه ، وما ظهر مرة سيظهر مرات أخرى ، وإذ يتابع خليف طرق أبواب

السماء يتجدد أمله بأن يرى حوريته التي ما زالت رائحتـــها في أنفه ، وملمسها على أنامله .

ضاقت السماء بازدحام الغيوم المتكدسة فتخففـــت منــها أمطارا تدثّهادثّـاً ، فتغازلت قطرات المطر وأوراق الشـــجر ، وباحت برغبة اللقيا همس حزين ، وخشخشة دافئة ، وغاصت دمدمة الرعد البعيدة عميقاعميقا في الأرض ، ومـــيز خليـــف صوت نغيط الوز المهاجر بالآلاف مختلطا بأنشودة المطر الخالدة، وتساءل : أيهاجر الوز تحت المطر؟!

ازداد هطول الأمطار فاتصلت السماء بالأرض ، ونفـــذ إلى قلب خليف يقين بأنه يتصل بكل شيء ، وأنه مثل كل شيء في الكون ، فهو جزء من الأشجار والرعود والبروق والنهر والمطر، جزء من ضجة الكون الأليفة ، وسكونها الأنيس ، كل شــــيء يصب فيه ، ويخرج منه كأوعية الغراف ، فسمع رفيف أجنحـة الملائكة يصعدون وينزلون وحبات المطر المرتعشة في أكفـــــهم الحانية ، ورأى الأشجار نساء تتعرى وتنزل في النهر ، وظهرت حدائق نور تناديه أن يعطو من ثمارها المتدليـــة كالأســـرجة ، والينابيع تندفع من قلب النهر جداول من لبن وعسل وخمر لـــذة للشاربين ، وظهرت حوريته ، رآها بين آلاف الحوريات عارية

تلصف كسيف برق يتشقق ، وترتعش بدفء حار كمطر الربيع ، وهي تتقدم بينهن منارة من نور يصل النهر بالسماء ، هي الطريق ، هي معراجه إلى السماء ، هي عمود النور الذي سيصعد عليه ، عيناها تضحكان ، وحبات المطر تنحدر على جسدها الحليبي بنشوة قطرات ماء تتزلق على خد وردة. فتح يديه ، تقدم إليها ، وجهه في وجهها، عيناه في عينيها ، رائحتها أوراق الشجر المغسول والفرحة المفاجئة.

قال : أنت؟

قالت: تحقق الوعد.

قال : انتظرت طويلا.

ـــ: كنت قريبة منك ، لو مددت يدك للمستني.

ـــ: مددتها..!

ـــ:لو همست لأجبتك ..

ـــ: همست.

ـــ: لو صمت لسمعت صوت أنفاسي ، ورفة أهدابي..!

ـــ: صمت.

ـــ: لو أصغيت لسمعت نبضات قلبي في عروقك .

ـــ: لقد سمعته..

ـــ: فانعم بما انتظرت..

وآن رفع أنامله ليلمس الجسد الدافئ نفرت مبتعدة كغزالـــة مذعورة ، وللتو أصبحت نائية وبعيدة كنجمـــة في الســـماء ، لكنها ظلت متلألئة كنور دافئ تدعوه إليها بعينيها ، فلحق بهـــا مشرعا يديه للقاء ، غاب كل شيء الوجوه المنادية، الأشجار ، الأثمار، الأطيار ، الحوريات وظل جسدها وحده ، عمود نـــور يدله على الدرب ، وهو قطرة ماء في العماء المحيط الشامل ، في الدرب المائي المفتوح إلى الجسد المنارة ، إلى فم الأنهـــار ، إلى حلم الأمس واليوم والغد،حلم الأجداد،وإذ خطا بثقة في العماء الرحب نفذ إليه صوت نغيط الوز عاليا كتسبيح الملائكة ...

الثلجة الكبيرة

.. قبل أن يأتي الغزو جاءت الرياح ..!

جاءت الرياح الكانونية في السحر شجرا محني القامةموشّـــــل الأعضاء ، يمشي عاريا دون استحياء.!

رفرفت أعوادالزل في الحويجة كأسراب طيــور مــهاجرة ، واندفعت فوق النهر كرايات خضراء لجيش ظافر ، وهي تصدر صلصلة ولها زفيف..!

عصفت الرياح بالخيام ، وخلعت الــزروب وطوحتــها ، وقلعت بعض الأوتاد والأمراس التي تشد الخيــام ، فــانخضت خضا عنيفا ، واصطفقتاصطفاقا قويا كاد يقوضها..

تنادت شمس الدين ، ثبتت الخيـــام ، تفقـــدت الصـــير ، الأعلاف، كراسي الجلة ، فعلوا ذلك بعجلة الملحوقين الذيـــن كانوا يشمون في الرياح رائحة ثلج أكيدة ، قال أحدهم : نَوْها نو ثلج..!

قال آخر كأنه يحدث نفسه : دنيانا ستثلج مساء.

ازداد عنف الرياح في الأصيل ، وحين أصبحت برودها تقط المسمار ، هطل الثلج ، هطل كعاصفة ، كشلال مــن النــور الأبيض البهيج ، ملايين الأنجم والأقمار البيضاء تساقطت علــى شمس الدين واصطدمت بالأرض والخيــام والصــير بصــوت مكتوم، وبخفيف تحسه ولا تسمعه .

انبرى الأطفال تحت ندف الثلج يتراكضون كخيل ســباق ، يفتحون أفواههم نحو السماء لتساقط فيها ندف الثلج المتلألئـــة

كالماسات . وتحركت النسوة راكضات بين الصير والزرائب والبيوت لاستكمال عمل لم ينجز ، أو دون عمل ضروري أحيانا تدفعهن رغبات خفية في أن يتبللن بالثلج ، يغتسلن في العراء ، أو يصبحن ندفة ثلج ماسية لا تذوب أبدا..!

راقب الرجال الثلج والأطفال وهم يهزون رؤوسهم بفرح قلق ، تغتاله رصانة مصطنعة.

نادرا ما يهطل الثلج في شمس الدين ، فهو كالفرح النادر ، كبهجة القلب الحقيقية ، كالقبلة الأولى ، كعرس البكر يأتي مرة واحدة في العمر.

سقط الليل باكرازمهريريا ، أبيض لا تلونه شعاعات الشمس الغاربة ، سقط كتلة واحدة كخيمة منهارة .

ارتفع الدخان بين البيوت ، وسعرت النار في المواقد ، وأدخلت القطعان إلى الخيام لتنام مع أهلها وإلا طمرت بالثلج ، والنار تشب رتخمد ، وتتحول إلى جمرات حمراء كحبات تمر شهية .

عاد الأولاد إلى البيوت مجللين بالثلج ، نفضوا أنفسهم مرات، ووقفوا يرقبون الثلج المنهمر ، تتراقص عيونهم مع الأنجم

الساقطة وشلالات الضوء التي كانت تغيب عن أنظارهم رويدا رويدا ...

قبع الناس يصطلون بالنار ، ويتحدثون عن الأفعى التي تسبت في الشتاء ثم تعود إلى الحياة في الربيع ، وكأنما ولدت للتو ، عن قرية تجمدت من البرد ، وطمرها الثلج الذي استمر أياما وليالي، طمرها بخيامها وحيواناتها وناسها وأشجارها، وحين طلعت الشمس ، وذاب الثلج ، ولدت القرية من رحم الثلج ، وظهر الناس على هيئاتهم يوم تجمدوا ، بعضهم ينطلق راكضا ، بعضهم يضاجع زوجه ، نسوة يرضعن أطفالهن ، عاشقان في قبلة خلدها الثلج ، وآخر يضع لقمة في فمه ...

تحدثوا طويلا والثلج يهطل ، والنار همدت كومة من رماد ، فسعوا إلى مراقدهم ، لبس الرجال زوجاتهم ، ولبسنهم ، وحلم العازبون بإناث دافئات شهيات متقدات كالنار ، وحلم الأطفال بالأفعى التي تولد في الربيع من جسد الأفعى الميتة ، وحين استيقظت شمس الدين في اليوم التالي كان الثلج ما يزال يهطل ، يهطل باستمرار ، بإصرار، كبيرا كريش الطيور ، غزيرا كأوراق الأشجار في عاصفة خريفية .

مر يوم آخر ، فثالث ، فرابع والثلج يهطل غزيرا ، والقلق خالط القلوب التي تشربت الفزع من حبل الصرة ، فكل شيء أصبح باردا جامدا، ونقطة الماء التي تسقط من الإناء تتجمد قبل أن تصل إلى الأرض ..

ومر يوم خامس وسادس وسابع وثامن وتاسع والثلج يهطل دون توقف ، فأصبحت الأرض بيضاء كقطعة جبن عملاقة ، تغطت الحقول والبيوت والمراعي والهضاب والأودية والدروب، وبدت الأشجار وبيوت الشعر تلالا من الثلج أو أمواجا عالية ثابتة في بحر حليبي .

النهر وحده كان يجري حيا ، يلامس الثلج جسده فيذوب توا، لذلك ظل يميز عما حوله بحركته الوئيدة البطيئة المنسابة بصمت إنما بلونه الأبيض الجديد .

مرت عشرة أيام ، عشرون يوما والماسات المتلألئة تسقط من السماء ولا تذوب بل تجمد حالا وتتحول إلى صحراء جليدية ، وتغطى الفرات بالكفن الثلجي ، و لم تعد تنساب فوقه كتل الثلج كغيوم بيضاء ، متهادية كالسحب ..بل تجمد رويدا رويدا ، تقاصرت حركته ،نازع النهر ، حشرج ثم غادرته الحياة ، وثبت كل شيء ..!

استهلكوا كراسي الجلة المخزونة كلها، فالنار لا تخمد أبـــدا وإلا تجمدوا ككل شيء حولهم ، وتحولوا إلى أفواه تأكل فقط.. والثلج يهطل ، وأصبح الطريق بينهم وبين الشجرة ، عبر النـــهر سالكا ، يمكن للرجل أن يعبر النهر وهو يمتطي حمارا..! لكـــن كل قرية انكفأت على نفسها ، فالدواب تنفق ، أو تهاجمـــــها الذئاب فتمزقها ، والمؤن تنفذ ، والموت وحش أبيض ...

مر خمس وعشرون يوما والثلج يهطل باستمرار ، فـــــهرب ثلجي ابن مطر السالم بما تبقى من قطيعــــه إلى أرض لا ثلـــج فيها..! هرب آخرون من الموت إلى الموت ، بحثا عــــن أرض تدفئها الشمس ، وانتظر آخرون رحمة السماء التي تعاقبهم على ذنوب لا يعرفونها ..ولا ينقذهم منها أحد ..

ثلاثون يوما والثلج يهطل ، نفدت المؤن ، نفقت الدواب ، مـــا لم ينفق ذبحوه ودفنوه في الثلج ليأكلوا لحمه ، ويشعلوا شـــحمه سراجا ، وعظمه نارا، والذئاب تحاصرهم ، والكفن الثلجـــــي الذي ينفضونه عن الخيام كلما تراكم ، ما عادوا يملكون مــــن الطاقة ما يمكنهم من نفضه.

زليخة التي ظلت تنتظر عودة خليف ، تلفلفت في فراشــــها ، دافنة رجليها في بطنها ، واضعة كل الألحفة فوقــــها ، ظلـــت

تتنفس ، لا تجهد نفسها ، لا تتحرك حتى تحتفـظ بطاقتـها ، وحده نفسها يروح ويجيء لتولد من جديد حين يذوب الثلـج كالأفعى..!

ومثلها فعلت وضحة المرار ، ذهب أولادها مع من ذهـب ، وبقيت هي تحلم بأن ينجدها جنيها ..! مطر السالم وامرأتـه لبسا بعضهما بعضا بعد أن استنفدا كل الوقود ..وانتظرا وهما يتلابسان أن يذوب الثلج ويولدان من جديد..!

امرأة احتضنت طفلها ، أخوان احتضنا بعضهما، عاشـقان شريدا أهلهما تحاضنا ، ودفن مسهوج نفسه تحت أغطيته وبكى وحدته وضياعه وهو يفكر بالقرية التي جمدها الثلج كأنما أخذتها الصيحة...

أربعون نهارا وأربعون ليلة والثلج يهطل ، وحين توقف فجأة كان كل شيء مكفن بالأبيض وكأنما كان الثلج يسقط من ألف عام ! لم يكن هناك لا خيام ولا مزارات ولا أشجار ، ولا بشر ولا دواب ولا كلاب ولا طيور ..كانت الأرض بيضاء كبحـر حليبي ، ترتفع فيه تلال بيضاء .. لم تكن شمس الدين هنا ..! لم تكن شمس الدين أبدا..!

الرقة ــ ٢١ أيلول ١٩٩٨

الفهرس



Bibliotheca Alexandrina
05595972

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق - ٢٠٠٠

سعر النسخة داخل القطر

٢٠٠ ل.س

في الأقطار العـ

٤٠٠